تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثلاثون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الثلاثون

سورة النبأ

هى مكية ، وعدد آيها أربعون ، نزلت بعد سورة المعارج .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) اشتمالها على إثبات القدرة على البعث الذى ذكر فى السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به .

(٢) أن فى هذه وما قبلها تأنيبا وتقريعا للمكذبين، فهناك قال: « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » وهنا قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » .

(٣) أن فى كل منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ، ويعذّب به المكذبون .

(٤) أن فى هذه تفصيل ما أجمل فى تلك عن يوم الفصل ، فهناك قال : « لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ » . وهنا قال : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » إلى آخر السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) .

شرح المفردات

عمَّ : أى عن أىِّ شىء ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا ، والنبأ : الخبر الذى يُعْنَى به و يهتم بشأنه ؛ والمراد به خبر البعث من القبور والعرض على مالك يوم الدين ، كلا : كلمة تفيد ردّ ماتقدم من الكلام ونفيه ، والمهاد : (بكسر الميم) والمهد فى نحو قوله : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا » : المكان الممهد المذلل ، والأوتاد : واحدها وتِد ؛ وهومايدق فى الأرض ليربط إليه الحبل الذى تشد به الخيمة ، والأزواج : واحدها زوج ؛ و يطلق على الذكر والأنثى ، والسبات : (بضم السين) قطع الحركة لتحصيل الراحة ، واللباس : مايلبسه الإنسان ليستتر به جسمه و يغطيه ، معاشا : أى وقتا لتحصيل أسباب المعاش والحياة ، سبعا شدادا : أى سبع سموات قوية محكمة لافطور فيها ولا تصدّع ، والسراج : مايضىء وينير ، والوهاج : المتلألئ ، والمراد به الشمس ، والمعصرات : السحائب والغيوم إذا أعصرت : أى حان وقت أن تعصر

الماء فيسقط منها ، والثجاج : كثير الانصباب عظيم السيلان؛ والمراد به المطر، والثج : سيلان دم الهدى ، وفى الحديث « أحب العمل إلى الله العَجّ والثَّجّ » والعج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج : إراقة دم الهدى ، والحب : مايقتات به الإنسان كالحنطة والشعير، والنبات : ماتقتات به الدواب من التبن والحشيش ، والجنات : واحدها جنة، وهى الحديقة والبستان فيه الشجر أوالنخل ، والجنات الألفاف : الملتفة الأغصان، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخياف ، وقيل واحدها لف (بكسر اللام وفتحها) وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشراف .

المعنى الجملى

كان المشركون كلما اجتمعوا فى ناد من أنديتهم أخذوا يتحدثون فى شأن الرسول وفيما جاء به ويسأل بعضهم بعضا ، ويسألون غيرهم فيقولون : أساحر هو أم شاعر أم كاهن أم اعتراه بعض آلهتنا بسوء ؟ ، ويتحدثون فى شأن القرآن : أسحر هو أم شعر أم كهانة ؟ ويقول كل واحد ماشاء له هواه ، والرسول سائر قُدُما فى تبليغ رسالته ، وأمامه مصباحه المنير الذى يضىء للناس سبيل الرشاد ، وهو كتابه الكريم، كما كانوا يتحدثون فى شأن البعث ، ويأخذ الجدل بينهم كل مأخذ ؛ فمنهم من ينكرونه البتة ، ويزعمون أنهم إذا ماتوا انتهى أمرهم ، وما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ؛ ومنهم من كانوا يزعمون أنهم إنما تبعث أرواحهم لا أجسامهم بعد أن تأكلها الأرض ، وتعبث بها يد البلى .

وربما لقى أحدهم بعض من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم فيسائله عن ذلك استهزاء وسخرية .

وفى هؤلاء وأشباههم نزلت هذه السورة ردًّا عليهم وتكذيبا لهم، وإقامة للحجة؛ على أن الله قادر على أن يبعثهم بعد موتهم وإن صاروا ترابا ، أو أكلتهم السباع ،

أو احتوتهم البحار فكانوا طعاما للأسماك ، أو أحرقتهم النيران فطاروا مع الريح .

وقد ذكر لهم من مظاهر قدرته أمورا تسعة يشاهدونها بأعينهم لايخفى عليهم شىء منها :

(١) انبساط الأرض وتمهيدها لتصلح لسير الناس والأنعام .

(٢) سموق الجبال صاعدة فى الجوّ .

(٣) تنوّع الآدميين إلى ذكور و إناث .

(٤) جعل النوم راحة للإنسان من عناء الأعمال التى يزاولها عامة نهاره .

(٥) جعل الليل ساترا للخلق .

(٦) جعل النهار وقتا لشئون الحياة والمعاش .

(٧) ارتفاع السموات فوقنا مع إحكام الوضع ودقة الصنع .

(٨) وجود الشمس المنيرة المتوهجة .

(٩) نزول المطر وما ينشأ عنه من النبات .

فكل ذلك داعٍ لهم أن يعترفوا أن من قدر على كل هذا فلا تعجزه إعادتهم إلى النشأة الآخرة .

الإيضاح

(عمّ يتساءلون ؟) أى عن أى شىء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم ؟ روى عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها ، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به ، فنزلت : عمّ يتساءلون .

ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

(عن النبإ العظيم . الذى هم فيه مختلفون) أى عن الخبر العظيم الشأن الذى اختلفوا فى أمره ، فمن قائل إنه مستحيل كما حكى الله عنهم بقوله : « إنْ هِىَ إلا

حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا » ومن شاكٍّ فيه بقوله : « مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ » .

وإيراد الكلام بصورة السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح ، وتثبيت الجواب فى نفس السائل كما جاء فى قوله : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

ثم أخذ سبحانه يردّ عليهم متوعدا لهم فقال :

(كلا سيعلمون) أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين يذكرون البعث بعد الموت ، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ماعاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون ، وتنقطع عنهم الريبة ، حين يُسأل كل عامل عما عمل ، ويفصل بين الخلائق .

وقصارى ذلك ــ فليزدجروا عما هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال ، إذا حلّ بهم العذاب والنكال ، وأن مايتساءلون عنه ، ويضحكون منه حق لاشك فيه ولا ريب .

ثم أكد هذا الوعيد بقوله :

(ثم كلا سيعلمون) وفى تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد .

ثم شرع يبين عظيم قدرته وآيات رحمته التى غفل عنها هؤلاء المنكرون ، مع أنها بين أعينهم فى كل حين فقال :

(١) (ألم نجعل الأرض مهاداً) أى كيف تنكرون أو تشكون فى البعث ، وقد عاينتم ما يدل عليه من قدرة تامة ، وعلم محيط ، وحكمة باهرة تقتضى ألا يكون ماخلق من الخلق عبثا ، فمن ينعم بهذه النعم لايهملها سدى .

انظروا إلى الأرض التى جعلت ممهدة موطأة للناس والدواب ، يقيمون عليها ويفترشونها وينتفعون بخيراتها الظاهرة والباطنة .

(٢) (والجبال أوتادا) أى وجعلنا الجبال لها كالأوتاد كى لا تميل بأهلها، وتضطرب بسكانها، ولولاها لكانت دائمة الاضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان، فلا تتم الحكمة فى كونها مهادا لهم.

(٣) (وخلقناكم أزواجا) أى وجعلناكم أصنافا ذكورا وإناثا، ليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة، وحفظ النسل وتكميله بالتربية والتعليم.

ونحو الآية قوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

(٤) (وجعلنا نومكم سباتا) أى وجعلنا نومكم فى الليل قطْعا للمتاعب التى تكابدونها فى النهار، سعياً فى تحصيل أمور المعاش؛ فالمشاهد أن فى نوم بضع ساعات فى الليل راحة للقوى من تعبها، ونشاطا لها من كسلها، وإعادة لما فقد منها، ولولا ذلك لنفدت القوى، وانقطع المرء عن العمل فى شئون الحياة المختلفة.

(٥) (وجعلنا الليل لباسا) أى وجعلنا الليل بظلامه ساترا للأجسام ومغطياً لها كاللباس الذى يغطى الجسم ويستره. ووجه المنة فى ذلك — أن ظلمته تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربا من عدو، أو إخفاء لما لا يحب أن يطلع عليه غيره، ولله درّ المتنبى:

وكم لظلام الليل عندكَ من يدٍ تُخبّرُ أنّ المانَوِيَّة تكْذِبُ(١)

(٦) (وجعلنا النهار معاشا) أى وجعلناه وقتا لتحصيل أسباب المعاش، لأن الناس يتقلبون فيه فى حوائجهم ومكاسبهم.

(٧) (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) أى سبع سموات قوية الأسر، محكمة النسج والوضع، لا يؤثر فيها كرّ الغداة ولا مر العشى، ليس بها تصدّع ولا فطور.

(٨) (وجعلنا سراجا وهاجا) أى وأنشأنا الشمس سراجا متلألئا بالغا الغاية فى الضوء والحرارة.

(١) المانوية: طائفة تعتقد أن الخير من النهار والشر من الليل.

وقد جعل الله فى هذا الكوكب سر الحياة ؛ فالحرارة والضوء يطردان الأمراض وينعشان كل حى ، ولا أدلّ على هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن يكون بمنأى عن ضوئها وحرارتها ، والجراثيم لاتتوالد إلا حيث يحتجب عنهما السكان ، ويبتعدان عن المكان .

(٩) (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) أى وأنزلنا من السحائب والغيوم التى تتحلب بالمطر ماء كثير السيلان ، عظيم الانصباب .

ثم بين عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال :

(لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا) أى لنبدل بوساطته جدب الأرض خصبا ، فنخرج من الأرض حبًّا يقتات به الناس كالحنطة والشعير ، ونباتا تقتات به الدواب ، وحدائق ذات أغصان ملتفة .

وقد جمع الله فى هذه الآية جميع أنواع ماتنبته الأرض ، فإن مايخرج منها إما أن يكون ذاساق أولا ؛ والأول إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديقة ؛ والثانى إما أن يكون له أكمام فيها حب ، وإما أن يكون بغير ذلك وهو النبات ، وقدّم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات ، لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان ، وأخر الحدائق لأن الفاكهة مما يستغنى عنها الكثير من الناس .

وقال الفرّاء : الجنة مافيه النخيل ، والفردوس مافيه الكرم .

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا

وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) .

شرح المفردات

يوم الفصل : هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق ، ميقاتا : أى حدًّا تنتهى عنده الدنيا ، والصور فى الأصل : البوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يُهرعوا إليه ويجتمعوا عند النافخ ، والأفواج : واحدها فوج وهو الجماعة ، وفتحت السماء : أى انشقت وتصدعت ، وسيرت الجبال : أى زالت من أماكنها وتفتتت صخورها ، سرابا : أى كالسراب ، فهى بعد تفتتها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غبارا متراكما ، المرصاد : موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها ، للطاغين : أى للذين طغوا فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره ، والمآب : المرجع ، لابثين : أى مقيمين ، أحقابا ، واحدها حُقُب ، وواحد الحقب حِقْبَة : وهى مدة مبهمة من الزمان . قال متمّم ابن نُوَيرة :

وكنا كندمانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبةً ... من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
فلما تفرّقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

والبرد: برد الهواء ، وقد يراد به النوم، ومن أمثالهم «منع البردُ البردَ» أى أصابه من شدة البرد مامنعه النوم ، ولا شرابا : أى شرابا يسكن عطشهم ويزيل الحرْقة عن بواطنهم ، والحميم : الماء الحار المُغْلَى ، غساقا : أى قيحا وصديدا وعرقا دائم السيلان من أجسادهم ، وفاقا : أى وفق أعمالهم السيئة ، لايرجون : أى لايتوقعون ،

حسابا : أى محاسبة على أعمالهم ، أوثواب حساب ، كذّابا : أى تكذيبا ، وقرئ بالتخفيف بمعنى كذبا ، وعليه قول الأعشى :

فصدَقْتُها وكذَبْتُها والمرء ينفعه كِذابهْ

كتابا : أى إحصاء بالكتابة .

المعنى الجملى

بعد أن نبه عباده إلى هذه الظواهر الباهرة ، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة ، أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا فى إمكان حصوله وهو يوم الفصل ، ويذكر لهم بعض ما يكون فيه تخويفا لهم من الاستمرار على التكذيب بعد ما وضحت الأدلة واستبان الحق ، ثم أبان لهم أن هذا يوم شأنه عظيم ، وأمر الكائنات فيه على غير ماتمهدون ، ثم ذكر منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها هزوا ، وأن جهنم مرجعهم الذى ينتهون إليه ، وأنهم سيقيمون فيها أحقابا طوالا لا يجدون شيئا من النعيم والراحة ، ولا يذوقون فيها رَوْحا ينفّس عنهم حر النار ، ولا يذوقون من الشراب إلا الماء الحارّ والصديد الذى يسيل من أجسادهم ، جزاء سيئ أعمالهم ، إذ هم كانوا لاينتظرون يوم الحساب ، ومن ثم اقترفوا السيئات ، وارتكبوا مختلف المعاصى ، وكذبوا الدلائل التى أقامها الله على صدق رسوله أشد التكذيب ، وقد أحصى الله كل شىء فى كتاب علمه ، فلم يغب عنه شىء صدر منهم ، وسيوفيهم جزاء ماصنعوا ، وستكون له كلمة الفصل ، فيقول لهم : « ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا » .

الإيضاح

(إن يوم الفصل كان ميقاتا) أى إن يوم القيامة وقت وميعاد للأولين والآخرين يثابون فيه أو يعاقبون ، ويتمايزون فيه ويكونون مراتب ودرجات بحسب أعمالهم كما قال : « وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » .

وقد جعله الله حدا تنتهى عنده الدنيا ، وتجتمع فيه الخلائق ، ليرى كل امرئ ماقدمت يداه ، فيجازى المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .

ثم بين هذا اليوم وزاد فى تفخيمه وتهويله فقال :

(يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) أى يوم ينفخ فى الصور فتحيون وتبعثون من قبوركم وتأتون إلى الموقف من غير تلبث ، وإمام كل أمة رسولها كما قال سبحانه « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ » .

(وفتحت السماء فكانت أبوابا) أى وانشقت السماء وتصدعت ، وقد جاء نحو هذا فى آيات كثيرة كقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » ، وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ » وقوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » .

ذلك أنه يحصل اضطراب فى نظام الكواكب ، فيذهب التماسك بينها ، ولا يكون فيما يسمى سماء إلا مسالك وأبواب ، لايلتقى فيها شيء بشيء ، وذلك هو خراب العالم العلوى ، كما يخرب الكون السفلى .

(وسيرت الجبال فكانت سرابا) أى إن الجبال لاتكون فى ذلك اليوم على ثباتها المعروف ، بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعد ، فإذا قربت منه لم تجد شيئا ، لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها .

والخلاصة — إنه سبحانه ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، فذكر أول أحوالها وهو الاندكاك بقوله : « وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » ثم ذكر أنها تصير كالعهن المنفوش كما قال : « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » ثم ذكر أنها تصير هباء كما قال: « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » ثم ذكر أنها تنسف وتحملها الرياح كما جاء فى قوله : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » ، ثم ذكر أنها تصير سرابا ، أى لا شيء كما فى هذه الآية .

وبعد أن عدّد وجوه إحسانه، ودلائل قدرته على إرساله رسوله، وذكر أن يوم الفصل بين الرسول ومعانديه سيكون يوم القيامة، وبيّن أهوال هذا اليوم، وامتياز شئونه وأحواله عن شئون أيام الدنيا وأحوالها — ذكر وعيد المكذبين وبيان مايلاقونه فقال:

(إن جهنم كانت مرصادا) أى إن دار العذاب وهى جهنم مكان يرتقب فيه خزنتُها من يستحقها بسوء أعماله، وخبث عقيدته وفعاله.

وروى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال: لايدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتَبَس.

(للطاغين مآبا) أى إنها مرجع للذين طغوا وتكبروا ولم يستمعوا إلى الداعى الذى جاءهم بالهدى ونور الحق.

وبعد أن ذكر أن جهنم مستقرهم بيّن مدة ذلك فقال:

(لابثين فيها أحقابا) أى إنهم سيمكثون فيها دهوراً متلاحقة يتبع بعضها بعضا فكلما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر كما قال: «يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ».

ثم بين أحوالهم فيها فقال:

(لايذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا) أى لا يذوقون فى جهنم بردا يبرد حر السعير عنهم إلا الغساق، ولا شرابا يرويهم من شدة العطش إلا الحميم، فهم لايذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أوظل يمنع من نار، ولا يجدون شرابا فيسكن عطشهم، ويزيل الحرقة من بواطنهم، ولكن يجدون الماء الحار المُغلَى، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق، وسائر الرطوبات المستقذرة.

والخلاصة — إنهم لايذوقون فيها شرابا إلا الحميم البالغ الغاية فى السخونة، أو الصديد المنتن، ولا برداً إلا الماء الحار المغلَى.

(جزاء وفاقا) أى إنه تعالى ينزل بهم شديد عقابه من جَراء أنهم أتوا بفظيع المعاصى ، فيكون العقاب وَفْق الذنب ومقــداره كما قال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعِكْرِمة : كانت أعمالهم سيئة فآتاهم الله ما يسوءهم .

وبعد أن بين على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أعد لهم كان وَفْقَ جُرْمهم — فصل أنواع جرائمهم فذكر أنها نوعان فقال :

(١) (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) أى إنهم فعلوا من القبائح ما فعلوا ، واجترحوا من السيئات ماشاءت لهم أهواؤهم ، لأنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب ولا يتوقعونه .

ورغبة المرء فى فعل الخيرات ، وترك المحظورات ، إنما تكون غالبا لاعتقاده أنه ينتفع بذلك فى الآخرة ، فمن كان منكرا لها لا يقدم على شيء مما يحسن عمله ، ولا يحجم عن أمر مما يقبح .

(٢) (وكذبوا بآياتنا كذابا) أى وكذبوا بجميع البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد وبجميع ماجاء فى القرآن .

والخلاصة — إنهم أقدموا على جميع المنكرات ، ولم يرعووا عن فعل السيئات وأنكروا بقلوبهم الحق واتبعوا الباطل .

وبعد أن بين فساد أحوالهم العملية والاعتقادية — أرشد إلى أنها فى مقدارها وكيفيتها معلومة له تعالى لا يغيب عنه شىء منها فقال :

(وكل شىء أحصيناه كتابا) أى إنا علمنا جميع ماعملوا علما ثابتا لا يعتريه تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئا مما كانوا يصنعون فى الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأنا قد أحصينا مافعلوه إحصاء لا يزول منه شىء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ » .

وإنما قيل (كتابا) دون أن يقال (إحصاء) لأن الكتابة هى النهاية فى قوة العلم بالشىء ، فإن من يريد أن يحصى كلام متكلم حتى لا يغيب منه شىء عمد إلى كتابته ، فكأنه تعالى يقول : « وكل شىء أحصيناه إحصاء يساوى فى ثباته وضبطه ما يكتب » .

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات — رتب عليه هذا الجزاء فقال :

(فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) أي فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال : « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .

روى قتادة عن عبد الله بن عمرو أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

ذاك أن فيها تقريعا وتوبيخا لهم فى يوم الفصل ، وغضبا من أرحم الراحمين ، وتيئيسا لهم من الغفران .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) .

شرح المفردات

مفازا : أى فوزا بالنعيم والثواب ، حدائق : أى بساتين فيها أنواع الثمر والشجر وأعنابا : واحدها عنب ، وكواعب : واحدها كاعب ، وهى التى نهد ثدياها وتكعبا ، والأتراب : واحدهنّ ترب ، وهى التى سنها من سن صاحبتها ، والكأس : إناء من بلور للشراب ، دهاقا : أى ممتلئة ؛ يقال أدهق الحوض : أى ملأه . قال خداش ابن زهير :

أتانا عامر يبغى قِرانا فأترَعْنا له كأسا دهاقا

واللغو: الباطل من الكلام ، والكذّاب : التكذيب ، عطاء : أى تفضلا منه وإحسانا ، حسابا : أى كافيا لهم ، تقول أعطانى فلان حتى أحسبنى : أى حتى كفانى بعطائه . قال :

فلما حللتُ به ضمّنى فأولى جميلا وأعطى حسابا

أى أعطى ما كفى .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال المكذبين ، أردفه مايفوز به المتقون من الجنات التى وصفها ووصف مافيها ، وذكر أنها عطاء من الله تعالى ، وفى هذا استنهاض لعوالى الهمم ، بدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير ، وازديادهم من القربات والطاعات ، كما أن فيها إيلاما لأنفس الضالين المكذبين .

الإيضاح

(إن للمتقين مفازاً) أى إن لمن اتقى محارم الله وخاف عقابه فوزاً بالكرامة والثواب العظيم ، فى جنات النعيم .

ثم فسر هذا الفوز وفصله فقال :

(حدائق وأعنابا) أى بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار ، لها أسوار محيطة بها ، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم ، مما تشتهيها النفوس ، وتقرّ به العيون .

وقد أفردت بالذكر وهى مما يكون فى الحدائق عناية بأمرها كما جاء فى قوله : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

ثم وصف مافى الحدائق والجنات فقال :

(وكواعب أترابا) أى وحوراً كواعب لم تتدلّ ثُديُّهن ، وهنّ أبكار عُرُب أتراب .

والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء فى الدنيا على نحو من اللذة ، وإن كنا لا نعلم كنهه فى الآخرة ، وعلينا أن نؤمن به ، وأنه تمتع يفوق ماهو مثله من لذات هذه الحياة ، وأنه يشاكل أحوال العالَم الأخروى .

(وكأسا دهاقا) أى وكأساً من الخمر مترعة ملأى متتابعة على شاربها .

(لايسمعون فيها لغوا ولا كِذّابا) أى لايجرى بينهم حين يشربون — لغو الكلام ولا يكذب بعضهم بعضا ، كما يجرى بين الشَّرْب فى الدنيا ، لأنهم إذا شربوا لم تفتر أعصابهم ، ولم تتغير عقولهم كما قال تعالى : « لاَيُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ » ، واللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين المخلصين .

ولما ذكر أنواع النعيم بيّن أن هـذا جزاء لهم على ماعملوا ، وتفضلٌ منه سبحانه فقال :

(جزاء من ربك عطاء حسابا) أى جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله وإحسانه عطاء كافياً وافيا .

رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لاَيَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَيَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَاباً (٤٠) .

شرح المفردات

الخطاب : المخاطبة والمكالمة ، الروح : جبريل عليه الصلاة والسلام ، والمآب : المرجع ، والإنذار : الإخبار بالمكروه قبل وقوعه ، والمرء : الإنسان ذكراً كان أو أنثى ، ماقدمت يداه : أى ماصنعه فى حياته الأولى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن يوم القيامة موعد للفصل بين الخلائق ، وتنتهى به أيام الدنيا ، وأن دار العذاب معدة للكافرين ، وأن الفوز بالنعيم للمتقين ؛ أعقب ذلك بأن هذا يوم يقوم فيه جبريل والملائكة صفًّا صفا لايتكلمون إلا إذا أذن لهم ربهم وقالوا قولا صحيحا .

ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لاريب فيه ، وأن الناس فيه فريقان : فريق بعيد من الله ومرجعه إلى النار ، وفريق مآبه القرب من الله ومنازل الكرامة ؛ فمن كانت له مشيئة صادقة ، فليتخذ مآباً إلى ربه ، وليعمل عملا صالحا يقرّبه منه ، ويحلّه محل كرامته .

ثم عاد إلى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم ، وأنهم سيعلمون غدا ماقدمته أيديهم ويرونه حاضرا لديهم ، وحينئذ يندمون، ولات ساعة مندم ، ويبلغ من أمرهم أن يقولوا : ليتنا كنا ترابا لم نصب حظا من الحياة .

الإيضاح

(رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا) أى إنه سبحانه المالك لشئونهما ، المدبر لأمورهما ، ولايملك أحد من أهلهما مخاطبته تعالى بالشفاعة إلا بإذنه .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

(يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) أى إن الملائكة على جلالة أقدارهم ، ورفيع درجاتهم لايستطيعون أن يتكلموا فى هذا اليوم ، إجلالاً لربهم ، ووقوفا عند أقدارهم ، إلا إذا أذن لهم ربهم ، وقالوا قولا صدقا وصوابا .

وفى الآية دلالة على أنهم مع قربهم من ربهم لايستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو يطلب منحة إلا بعد أن يأذن له ربه ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب ، لأنه يقول الصواب ، وإنما يكون الكلام ضربا من التكريم لمن يأذن له ويختص به ، ولا أثر له فيما أراده البتة .

والملائكة مخلوقات غيَّبها الله عنا ، ولم يجعل لنا قدرة على رؤيتها ، فعلينا أن نؤمن بها وإن لم نرها ، ونصدّق بما جاء فى كتابه من أوصافها غير باحثين عن حقيقتها .

وبعد أن ذكر أحوال المكلفين فى درجات الثواب والعقاب ، وبيّن عظمة يوم القيامة — أردف ذلك بيان أن هذا اليوم حق لاريب فيه فقال :

(ذلك اليوم الحق) أى ذلك اليوم متحقق لاريب فيه ولا مفر منه ، وأنه يوم تبلى فيه السرائر ، وتنكشف فيه الضمائر ، أما أيام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتوبة ، وضمائرهم غير معلومة .

(فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) أى فمن شاء عمل صالحا يقربه من ربه ، ويدنيه من كرامته وثوابه ، ويباعد بينه وبين عقابه .

ثم زاد فى تخويف الكفار وإنذارهم فقال :

(إنا أنذرناكم عذابا قريبا) أى إنا نحذركم عذاب يوم القيامة وهو قريب ، لأن كل ماهو آتٍ قريب كما قال : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

وإنهم ليجدون مقدماته إذا فارقت الروح البدن ، فإنه يتكشف لهم ما كان ينتظرهم ، ولا يزالون منه فى ألم إلى أن يلاقوا ربهم .

(يوم ينظر المرء ماقدمت يداه) أى هذا العذاب القريب يوم ينظر المرء ماصنعه فى حياته الأولى من الأعمال ، فإن كان قد آمن بربه وعمل عمل الأبرار فطوبى له وحسن مآب ، وإن كان قد كذب به وبرسوله فله الويل وأليم العذاب .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا » .

(ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) أى ويقول الكافر من شدة ما يلقى ومن هول مايرى: ليتنى كنت ترابا ، يريد: ليتنى لم أكن من المكلفين ، بل كنت حجرا أو ترابا لايجرى عليه تكليف حتى لايعاقب هذا العقاب .

وفى الآية إيماء إلى ما يكون عليه المؤمنون من الاستبشار والسرور بما رأوه .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ما اشتملت عليه هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على الموضوعات الآتية :

(١) سؤال المشركين عن البعث ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

(٢) تهديد المشركين على إنكارهم إياه .

(٣) إقامة الأدلة على إمكان حصوله .

(٤) أحداث يوم القيامة .

(٥) مايلاقيه المكذبون من العذاب .

(٦) فوز المتقين بجنات النعيم .

(٧) إن هذا اليوم حق لاريب فيه .

(٨) إنذار الكافرين بالعذاب الأليم وتمنيهم فى ذلك اليوم أن لو كانوا ترابا .

سورة النازعات

هى مكية ، وآيها ست وأربعون ، نزلت بعد سورة النبأ .

ووجه اتصالها بما قبلها أنه هناك أنذر بالعذاب يوم القيامة - وهنا أقسم على أن البعث حق لاريب فيه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ: أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) .

شرح المفردات

والنازعات : أى الكواكب الجاريات على نظام معين فى سيرها كالشمس والقمر ، يقال نزعت الخيل: إذا جرت ، غرقا : أى مجدّة مسرعة فى جريها ، لتقطع مسافة فلكها حتى تصل إلى أقصى المغرب ، والناشطات نشطا : أى الخارجات من برج إلى برج ، من قولهم : نشط الثور إذا خرج ، والسابحات سبحا : أى السائرات فى أفلاكها سيرا هادئا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وقد جعل مرورها فى جوانبها كالسبح فى الماء كما جاء فى قوله : « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » والسابقات سبقا :

أى المسرعات عن غيرها فى سبحها ، فتتم دورتها حول ما تدور عليه فى مدة أسرع مما يتم غيرها كالقمر فإنه يتم دورته فى شهر قمرى ، والأرض تتم دورتها فى سنة شمسية ، وهكذا غيرها من السيارات السريعة ، ومنها ما لا يتم دورته إلا فى سنين ، فالمدبرات أمرا : أى فالكواكب التى تدبر بعض الأمور الكونية فى عالمنا الأرضى بظهور بعض آثارها ، فسبق القمر علمنا حساب شهوره ، وله الأثر العظيم فى السحاب والمطر وفى البحر من المدّ والجزر ، ولضيائه حين امتلائه فوائد فى تصريف منافع الناس والحيوان ، وسبق الشمس فى أبراجها علّمنا حساب الشهور ، وسبقها إلى تتميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين ، وخالف بين فصول السنة ، واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان ، وقد نسب إليها التدبير ، لأنها أسباب ما نستفيده منها ، والمدبر الحكيم : هو الله تعالى جل شأنه .

وترجف : أى تضطرب وتتحرك ، والراجفة : الأرض بمن عليها ، والرادفة : السماء وما فيها تردفها وتتبعها ، فإنها تنشق وتنتثر كواكبها ، الواجفة : أى الشديدة الاضطراب ، خاشعة : أى ذليلة ، الحافرة : الحياة الأولى ، أى الحياة بعد الموت وقد ظنوها حياتهم الأولى ، يقال رجع فى حافرته : أى فى طريقه التى جاء فيها ، والنخرة : البالية الجوفاء التى تمر فيها الرياح ، والكرّة : الرجعة ، من الكرّ ، وهو الرجوع ، والخاسرة : هى التى يخسر أصحابها ولا يربحون ، والزجرة : الصيحة ، والمراد بها النفخة الثانية يبعث بها الأموات ، والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، لأن السراب يجرى فيها ، وسميت بذلك لأن شدة الخوف التى تعترى من عليها تُطير النومَ من أعينهم فلا يذوقون نوما ، فهى ساهرة : أى ساهر من عليها .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه هذه السورة بالحلف بأصناف من مخلوقاته — إن ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم من أمر البعث وعرض الخلائق على ربهم ، لينال كل عامل

جزاء عمله - حق لاريب فيه في يوم تعظم فيه الأهوال ، وتضطرب القلوب ، وتخشع الأبصار ، ويعجب المبعوثون من عودتهم إلى حياتهم الأولى بعد أن كانوا عظاما نخرة تمر فيها الرياح ، ويتحققون أن صفقتهم كانت خاسرة ، إذ أنهم أنكروا في الدنيا معادهم ، ويجابون على تعجبهم بألا يحسبوا أن الإحياء صعب على الله ، فما الأمر عنده إلا صيحة واحدة ، فإذا الناس جميعا ظاهرون في أرض المعاد .

لو تدبرنا أمر القَسَم ببعض المخلوقات في الكتاب الكريم لوجدناه يرجع إلى أحد أمرين :

(١) أن تكون هذه المخلوقات قد عظمت في أعين بعض الناس ، وقوى سلطانها في نفوسهم ، حتى عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله كالشمس والقمر في نحو قوله : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا » وقد ذكر سبحانه بجانب ذلك بعض صفاتها الدالة على أنها مخلوقة له كتغيرها من حال إلى حال ، وما يطرأ عليها من الأفول والزوال ، مما لايكون من شأن الآلهة المستحقة للعبادة .

(٢) أن تكون مما احتقره الناس لغفلتهم عن فائدته ، وذهولهم عن موضع العبرة فيه ، ولو أنهم تدبروا فيما هو عليه من جليل الصنعة ، وبديع الحكمة لاهتدوا إلى معرفة خالقه ، ونعتوه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

فأقسم سبحانه على التوحيد في قوله : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا . إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » .

وأقسم على أن الرسول حق بقوله : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وأقسم إن القرآن حق في قوله : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » .

وحلف إن الجزاء حق ، وإن الناس سيبعثون إلى ربهم ، وإن كلا منهم سيلاقى جزاء عمله كما قال : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا . إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » .

الإيضاح

(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) افتتح سبحانه هذه السورة بالقسم بالكواكب والنجوم والشموس والأقمار ، إظهارا لعظم شأنها ، وإتقان نظامها ، وغزارة فوائدها ، وأنها مسخرة لبارئها ، خاضعة لأمره — لتبعثن بعد الموت ، ويدل على هذا ما حكاه عنهم بعد من قولهم : «أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ؟ » أى أنبعث إذا صرنا كذلك ؟ .

(يوم ترجف الراجفة) أى حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال ، فيسمع لها صوت شديد .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ » .

(تتبعها الرادفة) أى تتلوها السماء بما فيها من كواكب ، إذ تنشق وتنثر كواكبها إثر اضطراب الأرض وَمَيَدانها .

عن أبىّ بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » أخرجه أحمد والترمذى وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن أبى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها ، وهى التى يقول الله فيها — يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » .

(قلوب يومئذ واجفة) أى قلوب يومئذ مضطربة قلقة خائفة ، والمراد بها

قلوب الكفار ، ذاك أنهم بعد أن عاينوا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكره لهم ويشاهدونه فى دنياهم ولم يؤمنوا به ، تضطرب نفوسهم ، مخافة أن يحل بهم ما أنذروا به ، كما هى حال من تهدده بعقوبة إن لم يُقْلِع عن جرائره — يهلع قلبه إن شاهد بوادر التنفيذ .

(أبصارها خاشعة) أى أبصار أصحابها خاشعة تظهر فيها الذلة والخوف .

وقد حكى الله عنهم أقوالا ثلاثة استبعدوا بها أمر البعث ، واستهزءوا فيها بالرسول والمؤمنين :

(١) (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ؟) أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركى قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت : أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات ، فراجعون أحياء كما كنا قبل مماتنا ؟

وتقول العرب لكل من كان فى أمر ثم خرج منه ثم عاد إليه : قد رجع إلى حافرته : أى إلى أمره الذى كان فيه أولا .

(٢) (أئذا كنا عظاما نخرة ؟) أى أنردّ إلى الحياة بعد أن نصير عظاما بالية لو لمست لتفتّتْ ؟

(٣) و (قالوا تلك إذا كرة خاسرة) أى إن صح ما قلتم من البعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاما نخرة ، فنحن إذا خاسرون ، لأنا كذبنا به ولم نأخذ العُدّة له ، فياويلنا فى هذا اليوم ! .

وهذا منهم استهزاء وتهكم ، اعتقادا منهم أن ذلك لن يكون .

وقد ردّ الله عليهم مقالتهم بقوله :

(فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) أى لا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيرا شاقًّا علينا ، فإنما هى صيحة واحدة ، وهى النفخة الثانية التى يبعث الله بها الموتى فإذا الناس كلهم على سطح الأرض أحياء .

ونحو الآية قوله : « وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ » .

وخلاصة هذا — لاتحسبوا أن هذه الرجفة عسيرة شاقة علينا ، فما إعادتكم التى ظننتموها صعبة إلا أن نأمر ملكا من ملائكتنا أن يصيح صيحة واحدة ، فإذا أنتم جميعا لدينا محضرون ، لايتخلف منكم أحد ، ولا يستطيع التخلف إن أراد .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) .

شرح المفردات

المقدس : أى المبارك المطهر ، والوادى المقدس : هو وادٍ بأسفل جبل طور سينا من برّية الشام ، طوى : وادٍ بين أَيْلَة ومصر ، طغى : أى تجاوز الحد فتكبر على الله وكفر به ، هل لك إلى كذا : أى هل ترغب فيه ، وتزكى : أى تتزكى وتتطهر من العيوب ، وأهديك : أى أدلّك ، فتخشى : أى فتخاف ، والآية الكبرى : أى العلامة الدالة على صدقه فى دعواه النبوة ، وهى انقلاب العصا حية ، أدبر : أى ترك

موسى ، يسعى : أى فى مكايدته ، فحشر : أى فجمع السحرة الذين فى بلاده ، والنكال : العذاب ، والآخرة : يوم القيامة ، والأولى : الدنيا .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن كفار مكة إصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى العتوّ والطغيان ، واستهزاءهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك يشق عليه ، ويصعب على نفسه ــ ذكر له قصص موسى مع فرعون طاغية مصر ، وبين له أنه قد بلغ فى الجبروت حدًّا لم يبلغه قومك ، فقد ادعى الألوهية وألّب قومه على موسى ، وكان موسى مع هذا كله يحتمل المشاقّ العظام فى دعوته إلى الإيمان ــ ليكون ذلك تسلية لرسوله عما يلاقيه من قومه من شديد العناد وعظيم الإعراض ، يرشد إلى ذلك قوله : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » .

وفى ذلك عبرة أخرى لقومه ــ وهى أن فرعون مع أنه كان أقوى منهم شكيمة وأشد شوكة وأعظم سلطانا ، لما تمرد على موسى وعصا أمر ربه أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجعله لمن خلفه آية ، فأنتم أيها القوم مهما عظمت حالكم وقوى سلطانكم لم تبلغوا مبلغ فرعون ، فأخذكم أهون على الله منه .

وفى هذا تهديد لهم و إنذار بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله ، فسيصيبهم مثل ما أصاب فرعون وقومه كما قال فى آية أخرى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » .

الإيضاح

(هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى) أى ألم يبلغك حديث موسى مع فرعون وقومه ، وقد أمره الله بالتلطف فى القول ، واللين فى الدعوة إلى الحق ، إقامة للحجة ، والوصول من أقرب محجة ، كما جاء فى سورة طه « فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

فاتبع نهجه، واسلك سبيله ، يكن ذلك أقرب للفوز ببغيتك، و بلوغ مطلبك كما فاز موسى وانتصر .

وكان ذلك حين ناداه ربه بالوادى المطهر المبارك من طور سيناء من برّية الشام بعد مضى وقت من الليل .

ثم فصل هذه المناجاة بقوله :

(اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى اذهب له وعظه ، فإنه تجاوز الحد وتكبر على الله وكفر به ، وتجبّر على بنى إسرائيل ، واستعبدهم حتى بلغ من أمره أن ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم .

ثم طلب إلى موسى أن يُلين له القول ليكون ذلك أنجع فى الدعوة فقال :

(فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى) أى فقل له : هل يرغب أن تطهّر نفسك من الآثام التى انغمست فيها ، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير ، وتبعد عما أنت فيه من اجتراح السيئات ، وتخشى عاقبة مخالفة أمر ربك ، حتى تأمَن مِن عقابه ، إذا أديت ما ألزمك به من فرائضه ، واجتنبت مانهاك عنه من معاصيه .

ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان ، ولم يقنع بما أدلى إليه موسى من حجة ، فاضطر إلى أن يظهر له دليلا يراه و يشاهده فقال :

(فأراه الآية الكبرى) أى فلما لم يقنع بالدليل القولى أظهر له آية ودليلا يراه بعينه ، وهو انقلاب العصا حية ، ومع ذلك كذب الداعى ، وعصى سلطان البرهان ، وأظهر تمرده عليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى) أى فكذب موسى ثم ولىّ معرضا عما دعاه إليه من طاعة ربه وخشيته، وطفق يخبّ فى المعاصى ويضع، غير متدبر فى عاقبة أمره، ولا مفكر فى غده.

(فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى) أى فجمع السحرة الذين هم تحت إمرته وسلطانه كما جاء فى قوله: «وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ» فقام فيهم يقول: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» فلا سلطان يعلو سلطانى، ولم يزل فى عتوّه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر (بحر القُلْزُم) عند خروجهم من مصر فأغرق فيه هو وجنوده، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله:

(فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) أى فنكل الله به ولم يكن ذلك النكال مقصورا على ماعذب به فى الدنيا من الغرق فى البحر، بل عذبه فى الآخرة أيضا فى جهنم وبئس القرار.

(إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) أى إن فيما ذكر لموعظة لمن له عقل يتدبر به فى عواقب الأمور ومصايرها، فينظر فى حوادث الماضين، ويقيس بها أحوال الحاضرين ليتعظ بها.

ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣).

شرح المفردات

أشد خلقا: أى أصعب إنشاء، والبناء: ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بِنية واحدة، والسمك: قامة كل شىء،

فسواها : أي جعل كل جزء موضوع فى موضعه ، أغطش ليلها : أى أظلمه ، ضحاها : أى نورها وضياء شمسها ، دحاها : أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى، قال زيد بن عمرو ابن نُفَيل :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدها بأيد وأرسى عليها الجبالا

مرعاها : أى نباتها ، متاعا لكم : أى متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .

المعنى الجملى

بعد أن قص على المشركين قصص موسى عليه السلام مع فرعون وأومأ بهذا القصص إلى أنهم لايُعجزون الذى أخذ فرعونَ ونكل به وجعله عبرة للباقين ، وسلى به رسوله حتى لايحزن لتكذيب قومه له ، وعدم إيمانهم بما جاءهم به ، أخذ يخاطب منكرى البعث ، وينبههم إلى أنه لاينبغى لهم أن يجحدوه ، فإن بعثهم هين إذا أضيف إلى خلق السموات التى تدل بحسن نظامها وجلالها ، على حكمة مبدعها وعظيم قدرته ، وواسع حكمته ، وإلى خلق الأرض التى دحاها بعدها وجعلها معدة للسكنى ، وهيأ فيها وسائل المعيشة للإنسان والحيوان ، فأخرج منها الماء الذى به حياة كل شىء وأنبت فيها النبات الذى به قِوام الإنسان والحيوان .

المعنى الجملى

(ءأنتم أشد خلقا أم السماء ؟) أى أأنتم أيها الناس وقد خلقتم من ماء مهين ضعافا عاجزين لاتملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة — أصعب إبداعا وإنشاء أم هذه السماء التى ترون خلقها ، وبديع تركيبها وعظمة شأنها ؟ .

إنكم لاتنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها ، فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم ، يرشد إلى ذلك قوله : « لَخَلْقُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ » .

وفى هذا من التقريع والتوبيخ مالا يخفى .

وبعد أن أشار إلى عظم خلق السموات إجمالا شرع يبين ذلك تفصيلا فقال :

(بناها . رفع سمكها فسوّاها) أى ضم أجزاءها المتفرقة وربطها بما يمسكها حتى حصل عن جميعها بِنْية واحدة ، فقد أبدع فى خلق الكواكب وجعل كل كوكب منها على نسبة من الآخر، وجعل لكل منها مايمسكه فى مداره حتى كان من مجموعها مايشبه البناء وهو مانسميه بالسماء .

وقد جعلها ذاهبة فى العلوّ صُعُدا ، وعدّلها فوضع كل جزء منها فى موضعه الذى يستحقه ويحسن أن يكون فيه .

(وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) أى وجعل ليلها مظلما بمغيب كواكبها ، وأبرز نهارها ، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وفيه من انتعاش الأرواح ماليس فى سائرها .

وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهيئ الأرض لسكنى ومن ثم قال :

(والأرض بعد ذلك دحاها) أى ومهد الأرض بعد ذلك وبسطها للسكنى ، وسير الناس والأنعام عليها ، وقد كانت مخلوقة غير مدحوّة قبل ذلك ، فلا تخالف هذه الآية ما جاء فى سورة السجدة من قوله : « أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

فإن هذه الآية تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض ، والآية التى نحن بصددها تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدها لسكنى الناس بعد أن خلق السماء .

فالآيتان ترشدان إلى أن الله تعالى خلق الأرض أوّلا ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدها ودحاها ، فآية السجدة حكاية للخلق الأول ومبدئه وهذه الآية حكاية للإصلاح الذى كان بعد الخلق .

ثم فسر التمهيد بما لابد منه فى تأتى سكناها من أمر المآ كل والمشارب و إمكان القرار عليها فقال :

(أخرج منها ماءها ومرعاها) أى فَجَّرَ منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والثمر ، أم قوتا للأنعام والماشية كالعُشب والحشيش .

(والجبال أرساها) أى وثبّت الجبال فى أماكنها وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

ثم بين الحكمة فى ذلك فقال :

(متاعاً لكم ولأنعامكم) أى إنما جعلنا ذلك كله ، ليتمتع به الناس والأنعام من الإبل والغنم والبقر .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » .

أفلا يكون خالقكم وواهبكم مابه تحيْون ، ورافع السماء فوقكم ، وممهد الأرض تحتكم ـ قادراً على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم ، ووفّر لكم هذا الخير الكثير ؟

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَاسَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) .

شرح المفردات

الطامة الكبرى : أى الداهية العظمى التى تطمّ على الدواهى أى تغلب وتعلو، وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث قاله ابن عباس ، وبُرِّزت الجحيم : أى كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان ، طغى : أى تكبر وتجاوز الحد ، آثر : أى قدّم وفضل ، المأوى : المستقر ، مقام ربه : أى جلاله وعظمته ، ونهى النفس عن الهوى : أى زجرها وكفها عن هواها المردى لها بميلها إلى الشهوات .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن أنه تعالى قادر على نشر الأموات كما قدر على خلق الأكوان ، بين صدق ما أوحى به إلى نبيه من أن ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين ، كائن لابد منه ، فإذا جاءت طامته الكبرى التى تفوق كل طامة حين تعرض الأعمال على العاملين ، فيتذكر كل امرئ ماعمل ، ويظهر الله الجحيم وهى دار العذاب للعيان فيراها كل ذى بصر ، فى ذلك اليوم يوزع الجزاء على العاملين ؛ فأما من جاوز الحدود التى حدها الله فى شرائعه ، وفضل لذائذ الدنيا على ثواب الآخرة فدار العذاب مستقره ومأواه ؛ وأما من خاف مقامه بين يدى ربه فى ذلك اليوم ،

وزجر نفسه عن هواها ، فلم تجر وراء شهواتها فالجنة منزله ومأواه ، جزاء ماقدمت يداه .

الإيضاح

(فإذا جاءت الطامة الكبرى) أى فإذا حل ذلك اليوم الذى تشيب من هوله الولدان ، وتشاهد فيه النار ، فينسى المرء كل هول دونها — فصل الله بين الخلائق ، فأدخل الطائعين الأبرار الجنة ، وأدخل المتمردين العصاة النار .

وقد وصف هذا اليوم بوصفين :

(١) (يوم يتذكر الإنسان ماسعى) أى حين يرى الإنسان أعماله مدوّنة فى كتابه وكان قد نسيها فتعاوده الذكرى ، كما قال سبحانه : «أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ» .

(٢) (وبرزت الجحيم لمن يرى) أى وأظهرت النار حتى يراها كل ذى عينين سواء منهم المؤمن والكافر ، سوى أنها تكون مقرّا للكافرين ، وينجى الله المؤمنين .

والخلاصة — إذا جاء ذلك اليوم فصل الله بين الخلائق كما فصّله بعدُ بقوله :

(فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى) أى فأما من تكبر وتجاوز الحد وآثر لذات الحياة الدنيا ، وشهواتها على ثواب الآخرة ، فالنار مثواه ومستقره .

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى) أى وأما من حذر وقوفه بين يدى ربه يوم القيامة ، وأدرك مقدار عظمته وقهره ، وغلبة جبروته وسطوته ، وجنب نفسه الوقوع فى محارمه ، فالجنة مثواه وقراره .

وقد ذكر سبحانه من أوصاف السعداء شيئين يضادان أوصاف الأشقياء :

(١) فقوله : « خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » يقابل قوله : « طَغَى » وقوله : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » يضاد قوله : « وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » وقد مدح الحكماء

مخالفة الهوى فقالوا : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه . وقيل لايسلم من الهوى إلا الأنبياء و بعض الصدّيقين . وقيل:

خالف هواها واعصها إن من يطع هوى نفســـه تنزع به كل منزع
ومن يطع النفس اللجوجة تُرْدِه وترْم به فى مصرع أىّ مصرع

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) .

شرح المفردات

الساعة : هى ساعة يبعث الله الخلائق من قبورهم ، وهى يوم القيامة ، أيان : أى متى، مرساها : أى إرساؤها ، و إقامتها: أى حصولها، فيم أنت من ذكراها : أى فى أىّ شىء أنت من أن تذكر لهم وقت حصولها ، وتبين لهم الزمان المعين لوقوعها ، إلى ربك منتهاها : أى إن منتهى علم حصولها عند ربك لم يؤته أحدا من خلقه ، واللبث : الإقامة ، والعشية : طرف النهار من آخره ، والضحى : طرفه من أوله .

المعنى الجملى

كان المشركون يسألون الرسول عنادا واستهزاء عن الساعة ، ويطلبون إليه أن يعجل بها كما يرشد إلى ذلك قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » وربما سألوه عن تحديد وقتها ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يردد فى نفسه مايقولون ، ويتمنى لو أمكن أن يجيب عما يسألون ، كما هو شأن الحريص على الهداية ، الجدّ فى الإقناع — فنهاه الله عن تمنى ما لا يرجى ، وأبان له أنه لاحاجة لك إلى ذلك ،

فإن علمها عند ربك، وإنما شأنك أن تنذر من يخافها فتنبهه من غفلته، حتى يستعد لما يلقاه حينئذ؛ أما هؤلاء المعاندون فدعهم فى غوايتهم، ولا تشغل نفسك بالجواب عما يسألون، فإذا جاء هذا اليوم خيّل إليهم أنهم لم يلبثوا من يوم خلقوا إلى يوم البعث إلا طرفا من نهار أوله أو آخره، ولم يلبثوا نهارا كاملا لمفاجأتها لهم على غير استعداد لوقوعها.

الإيضاح

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟) أى يسألك أيها الرسول هؤلاء المكذبون بالبعث عن الساعة التى تبعث فيها الموتى من قبورهم، متى قيامها وظهورها؟

(فيم أنت من ذكراها؟) أى ماهذه الذكرى الدائمة لها، وما هذا الاهتمام الذى جعلك لاتألو جهدا فى السؤال عنها؟.

روى عن عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يذكر الساعة ويُسأل عنها حتى نزلت هذه الآية».

وتلخيص المعنى — لاتشغل نفسك بهذا الأمر، ولا تكلفها عناء البحث عنه، واستكناه أسراره، ومعرفة ماحجبه الله عن خلقه من شأنه.

(إلى ربك منتهاها) أى إلى ربك ينتهى علم الساعة، فلا يعلم وقت قيامها غيره، ولم يعطه لملَك مكرم، ولا لنبى مرسل.

(إنما أنت منذر من يخشاها) أى إنما أنت رسول مبعوث للإنذار والتخويف، وتحذير الناس من المعاصى والقبائح، ولم تكلف علم وقتها؛ فدع علم مالم تكلف به، واعمل ما أمرت به من إنذار من أمرت بإنذاره.

ونحو الآية قوله: «إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ» وقوله: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» ثم قرر مادل عليه الإنذار من سرعة مجىء المنذر به، فقال:

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) أى إن هذا اليوم الذى لجوا فى إنكاره سيقع البتة ، ويرونه بأعينهم ، فإذا عاينوه حسبوا أنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ثم انقضت .

والخلاصة — إنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا عشية يوم أو ضحى تلك العشية ، وتقول العرب : آتيك العشية أو غداتها ، وآتيك الغداة أو عشيتها ؛ والمراد أنهم يستقصرون مدة لبثهم، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

موضوعات السورة الكريمة :

(١) إثبات البعث .
(٢) مقالة المشركين فى إنكاره والردّ عليهم .
(٣) قصص موسى مع فرعون، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم .
(٤) إقامة البرهان على إثبات البعث .
(٥) أهوال يوم القيامة .
(٦) الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء بحسب أعمالهم فى الدنيا .
(٧) سؤال المشركين عن الساعة وميقاتها .
(٨) نهى الرسول عن البحث عنها واشتغاله بأمرها .
(٩) ذهول المشركين من شدة الهول عن مقدار مالبثوا فى الدنيا .

سورة عبس

هى مكية ، وآياتها ثنتان وأربعون ، نزلت بعد سورة النجم .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هناك أنه منذر من يخشاها — وذكر هنا من ينفعه الإنذار .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣)
أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩)
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) .

شرح المفردات

عبس : أى قطب وجهه من ضيق الصدر ، وتولى : أى أعرض ، أن جاءه الأعمى : أى لأجل أن جاءه ، ومايدريك : أى أىّ شىء يعرّفك حال هذا الأعمى؟ يزكى : أى يتطهر بما يلقن من الشرائع ، يذّكر : أى يتعظ ، استغنى : أى بماله وقوته عن سماع القرآن ، تصدى : أى تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه ، يسعى : أى يسرع ، يخشى : أى يخاف من الغواية ، تلهى : أى تتلهى وتتغافل .

المعنى الجملى

نزلت هذه السورة فى ابن أم مكتوم عمرو بن قيس ابن خال خديجة، وكان أعمى وهو من المهاجرين الأولين . استخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يصلى بالناس مرارا ، وكان يؤذن بعد بلال .

وكان من حديثه أن أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعه صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة، يدعوهم للاسلام ، ويذكّرهم بأيام الله ، ويحذرهم بطشه وجبروته ، ويعدهم أحسن المثوبة إن أسلموا ، وهو شديد الحرص على أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ؛ لأنه يعلم أن سيُسلم بإسلامهم خلق كثير ، إذ بيدهم مقادة العرب .

فقال ابن أم مكتوم : يارسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله ، وكرر ذلك وهو لايعلم تشاغله بالقوم ، فكره الرسول قطعه لكلامه ، وظهرت فى وجهه الكراهة ، فعبس وأعرض عنه .

وقد عاتب الله نبيَّه بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لاينبغى أن يكون باعثاً على كراهة كلامه والإعراض عنه، لأن ذلك يورث انكسار قلوب الفقراء ، وهو مطالب بتأليف قلوبهم كما قال : « وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » وقال : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » .

ولأنه كان ذكىّ الفؤاد إذا سمع الحكمة وعاها ، فيتطهر بها من أوضار الآثام ، وتصفو بها نفسه ، أو يذكّر بها ويتعظ فتنفعه العظة فى مستأنف أيامه .

أما أولئك الأغنياء فأكثرهم جَحَدة أغبياء ، فلا ينبغى التصدى لهم ، طمعاً فى إقبالهم على الإسلام ، ليتبعهم غيرهم .

وقوة الإنسان إنما هى فى ذكاء لبّه ، وحياة قلبه ، وإذعانه للحق متى لاحت له أماراته ؛ أما المال والنشب ، والحشم والأعوان فهى عوارٍ تجىء وترتحل ، وتقرّ حينا ثم تنتقل .

والخلاصة — إنه سبحانه عاتب نبيه وأمره بأن يُقبِل على ذى العقل الذكى، ونهاه أن ينصرف عنه إلى ذى الجاه القوى، فان الأول حىّ بطبعه، والثانى غائب عن حسِّه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات يُكرِم ابن أم مكتوم ويقبل عليه ويتفقده، ويقول له إذا رآه: أهلا بمن عاتبنى فيه ربى، ويسأله هل لك حاجة؟

الإيضاح

(عبس وتولى. أن جاءه الأعمى) أى قطب الرسول صلى الله عليه وسلم وجهه وأعرض، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه.

وفى التعبير عنه بالأعمى إشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه صلى الله عليه وسلم حين تشاغله بالقوم، وقد يكون ذلك لذكر العلة التى اقتضت الإعراض عنه، والتعبيس فى وجهه؛ فكأنه قيل: إنه بسبب عماه كان يستحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك أن تخصه بالغلظة؟

وهذا كما تقول لرجل جاءه فقير فانتهره وآذاه: أتؤذى هذا المسكين الذى يستحق منك الشفقة ومزيد الحنان والعطف؟

(ومايدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنفعَه الذكرى؟) أى وأىّ شىء يعلمك حال هذا الأعمى؟ لعله يتطهر بما يسمعه منك، ويتلقاه عنك، فتزول عنه أوضار الآثام، أو يتعظ فتنفعه ذكراك وموعظتك.

والخلاصة — إنك لاتدرى ماهو مترقب منه من تزكٍّ أوتذكر، ولو دَرَيْتَ لما كان الذى كان.

وفى هذا إيماء إلى أن من تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لايرجى منهم التزكى ولا التذكر.

ثم ذكر أن أمره مع الحاضرين مجلسه انحصر فى شيئين :

(١) (أما من استغنى. فأنت له تصدى) أى أما من استغنى بماله وقوّته عن الإيمان ، وعما عندك من المعارف التى يشتمل عليها الكتاب المنزّل عليك ، فأنت تقبل عليه ، حرصا على إسلامه ، ومزيد الرغبة فى إيمانه .

(وماعليك ألا يزكى ؟) أى وأىّ عيب عليك فى بقائه كذلك ، وألا يتطهر من وسخ الجهالة ؟ فما أنت إلا رسول مبلغ عن الله ، وقد أديت مايجب عليك ، فما بالك يشتد بك الحرص على إسلامه .

وقصارى ذلك — لايبلغنّ بك الحرص على إسلامهم ، والاشتغال بدعوتهم ، أن تعرض عن الذين سبقت لهم منا الحسنى .

(٢) (وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى) أى وأما من جاءك مسرعا فى طلب الهداية والقرب من ربه ، وهو يخشاه ويحذر الوقوع فى الغواية ، فأنت تتلهى عنه ، وتتغافل عن إجابته إلى مطلبه .

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَآءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِى سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

شرح المفردات

كلا : كلمة يقصد بها زجر المخاطب عن الأمر الذى يعاتب عليه ، لئلا يعاوده ، وهنا هو التصدى للمستغنى والتلهى عن المستهدى ، تذكرة : أى موعظة ، ذكره : أى اتعظ به ، فى صحف مكرمة : أى مودعة فى صحف شريفة ، مرفوعة : أى عالية القدر ، مطهرة : أى من النقص لاتشوبها الضلالات ، سفرة : واحدهم سافر ؛ من سفر بين القوم إذا نصب نفسه وسيطا ليصلح من أمورهم مافسد .

قال شاعرهم :

فما أدع السفارة بين قومى ولا أمشى بغشّ إن مشيت

والمراد هنا الملائكة والأنبياء ، لأنهم وسائط بين الله وخلقه فى البيان عما يريد ، كرام : واحدهم كريم ، بررة : واحدهم بارّ ، والمراد أنهم كرام على الله ، أطهار لايقارفون ذنبا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حادث ابن أم مكتوم وعَتْبَه على رسوله فيما كان منه معه ، أردف ذلك ببيان أن الهداية التى يسوقها الله إلى البشر على ألسنة رسله ، ليست من الأمور التى يُحتال لتقريرها فى النفوس وتثبيتها فى القلوب ، وإنما هى تذكرة يقصد بها تنبيهُ الغافل إلى ماجبل الخلق عليه من معرفة توحيده ؛ فمن أعرض عن ذلك فإنه معاند يقاوم مايدعوه إليه حسه ، وتنازعه إليه نفسه .

فما عليك إلا أن تبلغ ماعرفت عن ربك ، لتذكر به الناس ، وتنبه الغافل ، أما أن تحابى القوىّ المعاند، ظنا منك أن مداجاته ترده عن عناده ، فذلك ليس من شأنك ، «فذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى» .

وهذه الهداية أودعها سبحانه فى الصحف الإلهية الشريفة القدر ، المطهرة من النقائص والعيوب ، وأنزلها على الناس بوساطة ملائكته الكرام البررة .

الإيضاح

(كلا إنها تذكرة) أى ما الأمر كما تفعل أيها الرسول ، بأن تعبس فى وجه من جاءك يسعى وهو يخشى ، وتُقبل على من استغنى ، بل الهداية المودعة فى الكتب الإلهية وأجلها القرآن ، تذكير ووعظ وتنبيه لمن غفل عن آيات ربه .

وقد وصف سبحانه تلك التذكرة بأوصاف تدل على مالها من عظيم الشأن فقال :

(١) (فمن شاء ذكره) أى إن هذه التذكرة بينة ظاهرة، فلو أن إنسانا أراد أن يتدبرها، ويتفهم معناها، ويتعظ بها، ويعمل بموجبها — لقدر على ذلك واستطاعه، ولا يمنعه عن الاهتداء بها إلا عدم المشيئة عنادا واستكبارا.

(٢) (فى صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة. بأيدى سفرة. كرام بررة) أى وقد أودعت هذه التذكرة فى الكتب الإلهية ذات الشرف والرفعة، المطهرة من النقائص ولا تشوبها شوائب الضلالات، تنزّل بوساطة الملائكة على الأنبياء، وهم يبلغونها للناس.

وكل من الملَك والنبى سفير، وكل منهما رسول، والملائكة كرام على الله كما قال: « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » وأبرار أطهار لايقارفون ذنبا، ولا يجترحون إثما، كما قال سبحانه: « لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ».

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ؟ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣).

شرح المفردات

قدره: أى أنشأه فى أطوار وأحوال مختلفة، طورا بعد طور، وحالا بعد حال، والسبيل: الطريق، يسره: أى سهل له سلوك سبل الخير والشر، فأقبره: أى جعل له قبرا يُوارَى فيه، أنشره: أى بعثه بعد الموت، كلا: زجر له عن ترفعه وتكبره.

المعنى الجملى

بعد أن بين حال القرآن وذكر أنه كتاب الذكرى والموعظة، وأن فى استطاعة كل أحد أن ينتفع بعظاته لو أراد — أردف هذا ببيان أنه لايسوغ للإنسان مهما

كثر ماله ، ونبهُ شأنه ، أن يتكبر ويتعاظم ويعطى نفسه ما تهواه ، ولا يفكر فى منتهاه ، ولا فيمن أنعم عليه بنعمة الخلق والإيجاد ، وصوّره فى أحسن الصور ، فى أطوار مختلفة ، وأشكال متعددة ، ثم لايلبث إلا قليلا على ظهر البسيطة حتى يعود إلى التراب كما كان ، ويوضع فى لحده ، إلى أمد قدره الله فى علمه ، ثم يبعثه من قبره ، ويحاسبه على ما عمل فى الدار الأولى ، ويستوفى جزاءه إن خيرا وإن شرا ، لكنه ما أكفره بنعمة ربه ، وما أبعده عن اتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ! .

الإيضاح

(قتل الإنسان) هذا دعاء عليه بأشنع الدعوات على ما هو المعروف فى لسانهم ، يقولون إذا تعجبوا من إنسان : قاتله الله ما أحسنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ! والمراد بيان قبح حاله وأنه بلغ حدا من العتوّ والكبر لا يستحق معه أن يبقى حيا .

(ما أكفره) أى ما أشد كفرانه للنعم التى يتقلب فيها ، وأكثر ذهوله عن مُسْديها ، وعمن غمره بها من حين إيجاده ، إلى ساعة معاده ! .

ثم شرع يفصل ما أجمله ، ويبين ما أفاض عليه من النعم فى مراتب ثلاث ، المبدأ والوسط والمنتهى ، وأشار إلى الأولى بقوله :

(من أىّ شئ خلقه ؟) أى من شئ حقير ، فلا ينبغى له التجبر ولا التكبر.

وقد أجاب عن هذا الاستفهام بقوله :

(من نطفة خلقه فقدره) أى خلقه من ماء مهين ، وقدره أطوارا وأحوالا ، طورا بعد طور وحالا بعد حال ، وأتم خلقه بأعضاء تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خلقت لأجله ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود بحسب ما يقتضيه كمال نوعه .

وقد أثر عن بعضهم : كيف يتكبر الإنسان ، وأوله نطفة مَذِرة ، وآخره جيفة قَذِرة ، وهو فيما بين الوقتين حمّال عَذِرة .

وروى عن علىّ كرم الله وجهه قوله : كيف يفخر الإنسان وقد خرج من موضع البول مرتين .

وأشار إلى المرتبة الوسطى بقوله :

(ثم السبيل يسره) أى ثم جعله متمكنا من سلوك سبيلى الخير والشر ، فآتاه قدرة العمل ، ووهبه العقل الذى يميز به بين الأعمال ، وعرّفه عاقبة كل عمل ونتيجته كما قال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » وبعث إليه الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب المشتملة على الحكم والمواعظ والدعوة إلى أنواع البر ، والتحذير من الشر ، والحاوية لما فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم .

وأشار إلى المرتبة الأخيرة بقوله :

(ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره) أى ثم قبض روحه ولم يتركه مطروحا على الأرض جزَرا للسباع ، بل تفضل عليه وجعل فى غريزة نوعه أن يوارى ميته تكرِمةً له ، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب والجزاء فى الوقت الذى قدره فى علمه .

وفى قوله : « إذا شاء » إشعار بأن وقت الساعة لايعلمه إلا هو ، فهو الذى استأثر بعلمه ، وهو القادر على تقديمه وتأخيره ، وهو القاهر فوق عباده وذو السلطان عليهم فى إحيائهم وإماتتهم ، وبعثهم وحشرهم ، وحسابهم على ما قدموا من عمل ، خيرا كان أو شرا .

ثم أكد كفرانه بالنعم فقال :

(كلا لما يقض ما أمره) أى حقا إن حال الإنسان لتدعو إلى العجب ، فإنه بعد أن رأى فى نفسه مما عددناه من عظيم الآيات ، وشاهد من جلائل الآثار ،

ما يحرك الأنظار ، ويسير بها إلى صواب الآراء ، وصحيح الأفكار - لم يقض ما أمره به من التأمل فى دلائل قدرته ، والتدبر فى معالم هذا الكون المنبئة بوحدانية خالقه ، الناطقة بأن لها موجدا يستحق أن يقصده وحده دون سواه ، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلى ما يأمره به .

والخلاصة — إن الإنسان قد بلغ فى جحده آيات خالقه مبلغا لا ينتهى منه العجب ، إذ قد رأى فى نفسه وفى السموات والأرض وسائر ما يحيط به من العوالم ، الآيات الناطقة بوحدانية الخالق ، الدالة على عظيم قدرته ، ثم هو لا يزال مستمرا فى نكران نعمته عليه ، فإذا ذُكّر لا يتذكر ، وإذا أُرشد إلى الهدى لم يسلك سبيله الأقوم ، ولا يزال يرتكب ما نهى عنه ، ويترك ما أمر به .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) .

شرح المفردات

القضب : الرطبة وهى ما يؤكل من النبات غضا طريا ؛ وسمى قضبا لأنه يقضب أى يقطع مرة بعد أخرى ، غلبا : واحدها غلباء أى ضخمة عظيمة ، والأبّ : المرعى لأنه يُؤَب : أى يُؤَم وينتجع ، متاعا لكم ولأنعامكم : أى أنبتناه لكم لتتمتعوا به وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الدلائل على قدرته تعالى وهى كامنة فى نفسه ، يراها فى يومه بعد أمسه ـ أردفها ذكر الآيات المنبثة فى الآفاق الناطقة ببديع صنعه ، وباهر حكمته .

الإيضاح

(فلينظر الإنسان إلى طعامه) أى فليتدبر الإنسان شأن نفسه ، وليفكر فى أمر طعامه وتدبيره وتهيئته حتى يكون غذاء صالحا تقوم به بِنْيَتُه ، ويجد فى تناوله لذة تدفعه إليه ، ليحفظ بذلك قوّته مدى الحياة التى قدرت له .

وقد فصل ذلك بقوله :

(أنا صببنا الماء صبا) أى أنزلناه من المزن إنزالا بعد أن بقى حينا فى جو السماء مع ثقله .

(ثم شققنا الأرض شقا) أى ثم شققنا الأرض شقا مشاهدا مرئيا لمن نظر إليها بعد أن كانت متماسكة الأجزاء .

وقد اقتضت حكمته ذلك ، ليدخل الهواء والضياء فى جوفها ، ويهيئانها لتغذية النبات .

ثم ذكر سبحانه ثمانية أنواع من النبات :

(١) (فأنبتنا فيها حبا) كالحنطة والشعير والارْز وهو الأصل فى الغذاء .

(٢) (وعنبا) وهو من وجه غذاء ، وفاكهة من وجه آخر .

(٣) (وقضبا) وهو كما قال ابن عباس والضحاك ومقاتل واختاره الفراء وأبو عبيدة والأصمعى ـ الرطبة : هى ما يؤكل من النبات غضًّا طريا .

(٤ ، ٥) (وزيتونا ونخلا) وقد تقدم بيان منافعهما ، وسيأتى أيضا .

(٦) (وحدائق غلبا) أى و بساتين ذات أشجار ضخمة مثمرة ذات حوائط تحيط بها ، وعظم الحدائق إما بالتفاف أشجارها وكثرتها ، وإما بعظم كل شجرة وغلظها وكبرها .

وفى ذكرها بهذا الوصف إيماء إلى أن النعمة فى الأشجار بجملتها ، وليست فى ثمرها خاصة ، فمن خُشُبها يتخذ أرقى أنواع الأثاث وأدوات العمل وآلاته لمختلف الحرف والصناعات ، وكذا الوقود لتدبير الطعام والخبز على ضروب شتى ، وتستعمل فى صهر الحديد وأنواع المعادن المختلفة .

(٧) (وفاكهة) يتمتع بلذتها الإنسان خاصة كالتين والتفاح والخوخ وغيرها .

(٨) (وأبا) أى مرعى للحيوان خاصة .

ثم ذكر الحكمة فى خلق هذه الأشياء فقال :

(متاعا لكم ولأنعامكم) أى أنبتنا ذلك ، لتتمتعوا به وتنتفعوا به أنتم وأنعامكم ، منه ما ينتفع به الإنسان ، ومنه ما يأكله الحيوان .

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) .

شرح المفردات

الصخّ : الضرب بالحديد على الحديد ، وبالعصا الصُّلبة على شئ مصمت ، فيسمع إذ ذاك صوت شديد ؛ والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة فى سورتها ،

وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثَمَّ سميت صاخة وقارعة ، شأن : أى شغل ، يغنيه : أى يصرفه ويصده عن مساعدة ذوى قرابته ، قال شاعرهم :

سيغنيكَ حربُ بنى مالك عن الفُحْش والجهل فى المحْفِل

مسفرة : أى مضيئة مشرقة؛ يقال: أسفر الصبح إذا أضاء ، مستبشرة : أى فرحة بما نالت ، والغبرة : ما يصيب الإنسان من الغبار ، ترهقها : أى تغشاها ، والقترة : سواد كالدخان ، والفجرة: واحدهم فاجر، وهو الخارج عن حدود الله المنتهك لحرماته .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه آلاءه على عباده ، وذكّرهم بإحسانه إليهم فى هذه الحياة ، وبين أنه لا ينبغى للعاقل بعد كل ما رأى أن يتمرد عن طاعة صاحب هذه النعم الجسام — أعقب هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها التى توجب الفزع والخوف منه ، ليدعوه ذلك إلى التأمل فيما مضى من الدلائل التى ترشد إلى وحدانيته وقدرته ، وصحة البعث وأخبار يوم القيامة التى جاءت على ألسنة رسله ، ويتزوّد بصالح الأعمال التى تكون نبراسا يضىء أمامه فى ظلمات هذا اليوم .

وذكر أن الناس حينئذ فريقان : فريق ضاحك مستبشر، فَرِحٌ فَرَحَ المحب يلقى حبيبه ؛ وهو من كان يعتقد الحق ويعمل للحق ، وفريق تعلو وجهه الغبَرَة ، وترهقه القَتَرَة ، وهو الذى تمرد على الله ورسوله ، وأعرض عن قبول ما جاءه من الحقّ ، ولم يعمل بما أمر به من صالح الأعمال .

الإيضاح

(فإذا جاءت الصاخة) أى فإذا جاء يوم القيامة حين يحدث ذلك الصوت الهائل الذى يصخّ الأسماع ويصكها بشدته — فما أعظم أسف الكافرين ، وما أشد ندمهم .

ثم فصل بعض أهوال هذا اليوم فقال :

(يوم يفرّ المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته و بنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) أى يوم يشغل كلّ امرئ ما يصيبه من الأهوال ، فيفر ممن يتوهم أنه يتعلق به ، و يطلب معونته ، على ما هو فيه ، فيتوارى من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من زوجه التى هى ألصق الناس به ، وقد كان فى الدنيا يبذل النفس والنفيس فى الدفاع عنها ، بل من بنيه وهم فِلْذاتُ كبده ، وقد كان فى الحياة الأولى يفديهم بماله وروحه ، وهم ريحانة الدنيا ونور الحياة أمام عينيه .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا » .

وإنما كان الأمر كذلك ، لأن لكل امرئ منهم من الرهَب ، وما يُرْهِب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب ـ شأنا يغنيه ، ويصدّه عن ذوى قرابته ، فليس لديه فضل فكر ولا قوة يُمِدّ بها غيره .

وقد يكون المعنى — يغنيه ذلك الهم الذى ركبه بسبب نفسه ، وشغله حتى ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهمّ آخر .

وبعد أن ذكر الأهوال التى تعرض للناس فى ذلك اليوم ، وأنها لا تسعف أحدا بمواساة أحد ولا الالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه واتصاله به ـ أردفه بيان أن الناس فى ذلك اليوم سعداء وأشقياء ، وأشار إلى الأولين بقوله :

(وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة) أى وجوه يومئذ متهللة ضاحكة فرحة بما تجد من برد اليقين بأنها ستوفَّى ما وُعدت به جزاء إيمانها وما قدمت من عمل صالح ، و بشكرها لنعم ربها وآلائه ، و إيثارها ما أمرها به على ما تهواه .

وأشار إلى الآخرين بقوله :

(ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة) أى ووجوه يعلوها غبار الذل وسواد الغم والحزن ، وهى وجوه الكفار الذين لم يؤمنوا

بالله ، وبما جاء به أنبياؤه ، وخرجوا عن حدود شرائعه ، واجترحوا السيئات ، واقترفوا المعاصى .

وقصارى ما سلف — إن الناس إذ ذاك فريقان :

(١) فريق كان فى دنياه يطلب الحق وينظر فى الحجة ، ويعمل ما استقام عليه الدليل ، لايثنيه عن الأخذ به قلة الآخذين ، ولا قوة المعاندين ، وهؤلاء سيطمئنون إلى ما أدركوا ، ويفرحون بما نالوا ، وتظهر على أسارير وجوههم علامات البشر والسرور .

(٢) فريق احتقر عقله ، وأهمل النظر فى نعم الله عليه ، وارتضى الجهل ، وانصرف عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد ، وظل يخُبّ ويضع فى أهوائه الباطلة ، وعقائده الزائفة — وهؤلاء سيجدون كل شىء على غير ما كانوا يعرفون ، فتظهر عليهم آثار الخيبة والفشل ، وتعلو وجوههم الغبرة ، وترهقها القترة ، لأنهم كانوا فى حياتهم الدنيا كفرة فجرة .

اللهم احشرنا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة ، وصلّ ربنا على نبيك وآله وصحبه .

ما جاء فى هذه السورة الكريمة من مقاصد

(١) عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمى .

(٢) أن القرآن ذكرى وموعظة لمن عقل وتدبّر .

(٣) إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق الإنسان والنظر فى طعامه وشرابه .

(٤) أهوال يوم القيامة .

(٥) الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء ، وذكر حال كل منهما حينئذ .

سورة التكوير

هى مكية ، وآيها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة المسد .

ومناسبتها لما قبلها — أن كلتيهما تشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها . أخرج الإمام أحمد والترمذى والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَ - إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ . وَ - إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤) .

شرح المفردات

تكوير الشمس : لفها كتكوير العمامة ؛ والمراد منه اختفاؤها عن الأعين وذهاب ضوئها ، وانكدار النجوم : انتثارها وتساقطها حتى تذهب ويمحى ضوؤها ، وتسيير الجبال يكون حين الرجفة التى تزلزل الأرض ، فتقطّع أوصالها ، وتفصل منها أجبالها ، وتقذفها فى الفضاء ، والعشار : واحدها عشراء (بضم العين

وفتح الشين) وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهى أكرم مال لدى المخاطبين وقت التنزيل ، قال الأعشى فى المدح :

هو الواهب المائة المصطفا ة إما مخاضا وإما عشارا

وتعطيلها : إهمالها وذهابها حيث تشاء ، لعظم الهول وشدة الكرب ، حشرت : أى ماتت وهلكت ، وتسجير البحار : تفجير الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحرا واحدا ، زُوِّجت : أى قرنت الأرواح بأجسادها ، الموءودة : هى التى دفنت وهى صغيرة ، وقد كان ذلك عادة فاشية فيهم فى الجاهلية ، وكان ذوو الشرف منهم يمنعون من هذا حتى افتخر بذلك الفرزدق فقال :

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم توءد

يريد جدّه صَعْصَعة ، وكان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة ، والمراد بالصحف صحف الأعمال التى تنشر على العباد حين يقفون للحساب، كشطت : أى كشفت وأزيلت عما فوقها كما يكشط جلد الذبيحة عنها ، سعرت : أى أوقدت إيقادا شديدا ، أزلفت: أى أدنيت من أهلها وقربت منهم، ما أحضرت: أى ما أعدّ لها من خير أو شر .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه هذه السورة الكريمة بذكر يوم القيامة ، وما يكون فيه من حوادث عظام ، ليفخّم شأنه ، وبين أنه حين تقع هذه الأحداث تعلم كل نفس ما قدمت من عمل خير أو شر ، ووجدت ذلك أمامها ماثلا ، ورأت ما أُعدّ لها من جزاء وتمنت إن كانت من أهل الخير أن لو كانت زادت منه ، وإن كانت من أهل الشر أن لو لم تكن فعلته ، واستبان لها أن الوعيد الذى جاء على ألسنة الرسل كان وعيدا صادقا ، لا تهويل فيه ولا تضليل .

الإيضاح

(إذا الشمس كورت) أى إذا كورت الشمس وامحى ضوؤها وسقطت حين خراب العالم الذى يعيش فيه الحىّ فى حياته الدنيا ، ولا يبقى فى عالمه الآخر الذى ينقلب إليه شىء من هذه الأجرام .

(وإذا النجوم انكدرت) أى وإذا النجوم تناثرت وذهب لألاؤها كما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » .

(وإذا الجبال سيرت) أى وإذا الجبال قلعت عن الأرض وسيرت فى الهواء حين زلزلة الأرض ، فتقطع أوصالها وتقذف فى الفضاء ، وتمر على الرءوس مرّ السحاب ونحو الآية قوله : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » وقوله : « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » .

(وإذا العشار عطلت) أى وإذا النوق العشار وهى أكرم الأموال لديهم ، وأعزها عندهم — أهملت ولم يُعْنَ بشأنها لاشتداد الخطب ، وفداحة الهول .

وهذا على وجه المثل ، لأن يوم القيامة لاتكون فيه ناقة عشراء ، ولكن مثّل هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشَراء لعطلها واشتغل بنفسه قاله القرطبى .

(وإذا الوحوش حشرت) أى ماتت وهلكت ، تقول العرب إذا أضرّت السنة بالناس وأصابتهم بالقحط والجدب ، حشرتهم السنة : أى أهلكتهم ، وهلا كها يكون من هول ذلك الحادث العظيم .

(وإذا البحار سجرت) أى فجر الزلزال مابينها حتى اختلطت وعادت بحراً واحداً ، وهذا على نحو ما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » .

وقد يكون المراد من تسجيرها إضرامها نارا ، فإن مافى باطن الأرض من النار يظهر بتشققها وتمزّق طبقاتها العليا ، وحينئذ يصير الماء بخارا ، ولا يبقى إلا النار .

وقد أثبت البحث العلمى غليان البراكين ، وهى جبال النار التى فى باطن الأرض، وتشهد لذلك الزلازل الشديدة التى تشق الأرض والجبال فى بعض الأطراف كما حدث فى مسّينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩م ، وحدث فى اليابان بعد ذلك .

وجاء فى بعض الأخبار « إن البحر غطاء جهنم » .

و بعد أن عدد ما يحدث من مقدمات الفناء و بطلان الحياة فى الأرض وامتناع المعيشة فيها ـ أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور فقال :

(و إذا النفوس زوّجت) أى و إذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة، قاله عكرمة والضحاك والشعبى .

وفى هذا إيماء إلى أن النفوس كانت باقية من حين الموت إلى حين المعاد ، فبعد أن كانت منفردة عن البدن تعود إليه .

(و إذا الموءودة سئلت. بأىّ ذنب قتلت ؟) أى و إذا سئلت الموءودة بين يدى وائدها عن السبب الذى لأجله قتلت ، ليكون جوابها أشد وقعا على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته .

وقد افتنّ العرب فى الوأد ، فنهم من كان إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها ، أمسكها مهانة إلى أن تقدر على الرعى ، ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى إبله ، و إن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء حتى إذا بلغها قال لها انظرى فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تسوى البئر بالأرض ، ومنهم من كان يفعل ما هو أنكى وأقسى من ذلك .

فيا لله ، ما أعظم هـذه القسوة بقتل البريئات بغير جُرم سوى خوف الفقر أو العار ، وكيف استبدلت الرحمة بالفظاظة ، والرأفة بالغلظة ، بعد أن خالط الإسلام قلوبهم ، ومحا وصمة هذا الخزى عنهم .

(وإذا الصحف نشرت) أى وإذا صحف الأعمال ظهرت للعاملين فى موقف الحساب حتى لايرتابوا فيها ، ولا ينبغى أن نبحث عن تلك الصحف ، لنعلم أهى على مثال الأوراق التى نكتب فيها فى الدنيا ، أم تشبه الألواح أو نحو ذلك مما جرى استعماله فى الكتابة ، فإن ذلك مما لايصل إليه علمنا ، ولم يجئ نص قاطع عن المعصوم صلى الله عليه وسلم يفسر ذلك .

(وإذا السماء كشطت) فلم يبق غطاء ولا سماء ، ولم يوجد مايطلق عليه اسم الأعلى والأسفل .

(وإذا الجحيم سعرت) أى وإذا جهنم التى يعاقب فيها أهل الكفر والطغيان أوقدت إيقاداً شديداً ، فيكون ألم من يدخل فيها من أشد الآلام التى تحدث عن مس النيران للأجسام الحية ، وقد جاء فى سورة البقرة : « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

(وإذا الجنة أزلفت) أى وإذا الجنة أدنيت من أهلها : أى أعدت لنزولهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ » .

(علمت نفس ما أحضرت) أى إذا حصل كل ماتقدم من الأحداث السالفة ، تعلم كل نفس ما كان من عملها متقبلا وما كان منه مردودا عليها ، فكثير من الناس كانوا فى الحياة الدنيا مغرورين بما تزينه لهم الشياطين ، وسيجدون أعمالهم يوم القيامة غير مقبولة ولا مرضى عنها ، بل هى مبعدة من الله مستحقة لغضبه ؛ فالذين يعملون أعمالهم رئاء الناس ليس لهم من عملهم إلا الجهد والمشقة ، ولا تكون متقبلة عند ربهم ، فعلينا أن ننظر إلى الأعمال بمنظار الشرع ، ونزنها بميزانه الصحيح .

والله لايتقبل من الأعمال إلا ماصدر عن قلب ملىء بالإيمان ، عامر بحبه والرغبة فى رضاه ، والحرص على أداء واجباته التى فرضها عليه .

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخفى ؛ يقال خنس فلان بين القوم إذا انقبض واختفى ، والكنّس : واحدها كانس أو كانسة من قولهم: كنس الظبى إذا دخل كناسه وهو بيته الذى يتخذه من أغصان الشجر ؛ والمراد بالخنس الجوار الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها : غيبوبتها عن البصر نهاراً ، وكنوسها : ظهورها للبصر ليلا ، فهى تظهر فى أفلاكها ، كما تظهر الظباء فى كنسها، وعسعس : أى أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر نوره ، قال علقمة بن قُرْط :

حتى إذا الصبح لها تنفّسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

والرسول : هو جبريل عليه السلام ، وكريم : أى عزيز على الله ، ذى قوة : أى فى حفظه ، مكين : أى ذى مكانة وجاه عند ربه يعطيه ماسأله؛ يقال مكُن فلان لدى فلان إذا كانت له عنده حُظوة ومنزلة ، ثَمَّ (بفتح الثاء) أى هناك ، أمين : أى على وحيه ورسالاته ، صاحبكم : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، بالأفق المبين :

أى بالأفق الواضح ، وضنين : أى بخيل ، رجيم : أى مرجوم مطرود من رحمة الله ، فأين تذهبون : أى أىّ مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة ، أن يستقيم : أى على الطريق الواضح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر من أحوال يوم القيامة وأهوالها ماذكر ، وبيّن أن الناس حينئذ يقفون على حقائق أعمالهم فى النشأة الأولى ، ويستبين لهم ماهو مقبول منها وما هو مردود عليهم — أردف ذلك بيان أن مايحدّثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن الذى أنزل عليه وهو آيات بينات من الهدى ، وأن مارميتموه به من المعايب كقولكم: إنه ساحر أو مجنون ، أو كذاب ، أو شاعر ماهو إلا محض افتراء ، وأن لجاجكم فى عداوته وتألبكم عليه ماهو إلا عناد واستكبار ، وأنكم فى قرارة نفوسكم عالمون حقيقة أمره ، ودخيلة دعوته .

الإيضاح

(فلا أقسم) تقدم أن قلنا إن هذه عبارة للعرب فى القسم تريد بها تأكيد الخبر كأنه فى ثبوته وظهوره لايحتاج إلى قسم ، وكأنه يقول : أنا لا أقسم بكذا وكذا على إثبات ما أذكره ، ولا على وجوده فهو واضح جلىّ ليس فى حاجة إلى الحلف؛ والمراد به القسم المؤكد .

(بالخنّس . الجوار الكنس) أى بالكواكب جميعها ، وهى تخنس بالنهار فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل : أى تطلع فى أماكنها كالوحش فى كنسها ؛ وقد أقسم بها سبحانه ، لما فى حركاتها وظهورها طوراً واختفائها طوراً آخر من الدلائل على قدرة مصرّفها ، وبديع صنعه ، وإحكام نظامه .

ويرى بعض العلماء أن المراد بها الدرارىّ الخمسة وهى : عُطارد ، والزُّهَرة ، والمرّيخ ، والمشترى ، وزُحل ، لأنها تجرى مع الشمس ، ثم ترى راجعة حتى تختفى فى ضوئها ؛ فرجوعها فى رأى العين هو خنوسها ، واختفاؤها هو كنوسها .

(والليل إذا عسعس) أى والليل إذا أدبر وولى ، وفى إدباره زوال الغُمّة التى تغمر الأحياء ، بانسدال الظلمة وانحسارها .

(والصبح إذا تنفس) أى والصبح إذا أسفر وظهر نوره ، وفى ذلك بشرى للأنفس بحياة جديدة فى نهار جديد ، إذ تنطلق الإرادات ، لتحصيل الرغبات ، وسدّ الحاجات ، واستدراك مافات ، والاستعداد لما هو آت .

ثم ذكر المحلوف عليه فقال :

(إنه لقول رسول) أى إن ما أخبركم به محمد صلى الله عليه وسلم من أمر الساعة ليس بكهانة ولا اختلاق ، بل هو قول نزل به جبريل وحياً من ربه ، وإنما كان قوله لأنه هو الذى حمله إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقد وصف هذا الرسول بخمسة أوصاف :

(١) (كريم) أى عزيز على ربه ، إذ أعطاه أفضل العطايا ، وهى الهداية والإرشاد ، وأمره أن يوصلها إلى أنبيائه ليبلغوها لعباده .

(٢) (ذى قوة) فى الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ ، وقد جاء فى آية أخرى : « عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى » .

(٣) (عند ذى العرش مكين) أى ذى جاهٍ ومنزلة عند ربه يعطيه ماسأل .

(٤) (مطاع ثَمَّ) أى هو مطاع عند الله فى ملائكته المقربين ، فهم يصدرون عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه .

(٥) (أمين) على وحى ربه ورسالاته ، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به ، وجنّبه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .

وبعد أن وصف الرسول وصف المرسل إليه فقال :

(وماصاحبكم بمجنون) أى وليس محمد صلى الله عليه وسلم بالمجنون كما كانت ترميه قريش بذلك حين كانت تسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر مما لم يكن معروفا لهم كما حكى عنهم فى قوله : « أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ » وقوله : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَابِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ » وقوله : « قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَابِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

وفى التعبير (بصاحبكم) استدلال عليهم ، وإقامة للحجة على كذبهم فى دعواهم ، فإنه إذا كان صاحبهم ، وكانوا قد خالطوه وعاشروه ، وعرفوا عنه مالم يعرفه سواهم من استقامة ، وصدق لهجة ، وكمال عقل ، ووفور حلم ، وتفوّق على جميع الأنداد والأتراب فى صفات الخير — لم يكن ادّعاؤهم عليه مايناقض ذلك إلا باطلا من القول وزوراً .

(ولقد رآه بالأفق المبين) أى وإن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق الأعلى ، وقد تمثل له جبريل فى مثال يظهر ويُبصر ، فتجلى لعينيه ، وأُعلم أنه جبريل فعرفه .

وقد ذكرت هذه الرؤية فى سورة النجم فى قوله : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَايَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » .

(وماهو على الغيب بضنين) أى وليس محمد بالمتهم على القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام ، بل هو ثقة أمين لايأتى به من عند نفسه ، ولا يبدل منه حرفا بحرف ، ولا معنى بمعنى ، إذ لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متّهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل وسماع الشرائع منه .

ثم نفى عنه فرية أخرى كانوا يتقوّلونها عليه فقال :

(وما هو بقول شيطان رجيم) أى وما هذا الذى يتكلم به محمد بقول ألقاه

الشيطان على لسانه حين خالط عقله كما تزعمون ، فإنه قد عرف بصحة العقل ، وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدّث به من خبر الآخرة والجنة والنار من قول الشياطين .

وقد حكى الله سبحانه عن الأمم جميعاً أنهم رموا أنبياءهم بالجنون فقال : (كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » .

ثم ذكر أنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر ، وجهلوا سبيل الحكمة فقال :

(فأين تذهبون) أى فأىَّ سبيل تسلكونها وقد سُدَّت عليكم السبل ، وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ، وبطلت مفترياتكم ، فلم يبق لكم سبيل تستطيعون الهرب منها .

ثم بيَّن حقيقة القرآن فقال :

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى وماهذا القرآن إلا عظة للخلق كافة يتذكرون بها ماغُرِز فى طباعهم من حب الخير ، وإنما أنساهم ذكره ماطرأ عليهم بمقتضى الإلف والعادة من ملكات السوء التى تحدثها أمراض البيئة والمجتمع ،والقدوة السيئة .

ثم بيّن أنه لاينتفع بهذه النظم كل العالمين فقال :

(لمن شاء منكم أن يستقيم) أى إنه ذكْر يتذكر به من وجَّه إرادته ، للاستقامة على جادّة الحق والصواب ؛ أما من انحرف عن ذلك فلا يؤثر فيه هذا الذكر ولا يخرجه من غفلته .

والخلاصة — إن على مشيئة المكلف تتوقف الهداية ، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ويطلبه ، ويجدّ فى كسب الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ثم دفع توهم أن إرادة الإنسان مستقلة فى فعل مايريد ، وله الاختيار التام فيما يفعل ، وهو منقطع العلاقة فى إرادته من سلطان ربه فقال :

(وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) أى إن إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخلقها الله فيكم بقدرته ، الموافقة لإرادته ، فهو الذى يودع فيكم

إرادة فعل الخير فتنصرف هممكم إليه ، ولوشاء اسلبكم هذه الإرادة وجعلكم كالحيوانات لا إرادة لهـا .

وفى قوله : « رب العالمين » بيان لعلة هذا ، فإنه لما كان رب العالمين ، وهو الذى منحكم كل ماتتمتعون به من القوى كالإرادة وغيرها ، وهو صاحب السلطان عليكم — كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، وخاضعة لسلطانه ، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ماوجهت له توجهت ، ولو شاء أن يمحوها محيت ، فله الأمر وله الحكم وهو على كل شئ قدير .

موضوعات هذه السورة الكريمة

(١) أهوال يوم القيامة .

(٢) الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح إن القرآن منزل من عند الله بوساطة ملائكته .

(٣) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٤) بيان أن القرآن عظة وذكرى لمن أراد الهداية ، وتوجهت نفسه إلى فعل الخير .

(٥) مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب سبحانه ، وليس لها استقلال بالعمل .

سورة الانفطار

هى مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة النازعات .
وهى كسابقتها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) .

شرح المفردات

انفطرت : أى انشقت ، انتثرت : أى تساقطت متفرقة ، فُجِّرت : أى فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز واختلط عذبها بملحها ، بُعثرت : أى قلب ترابها الذى حثى على موتاها ، وأزيل وأخرج من دفن فيها ، ما قدمت : أى من أعمال الخير ، وما أخرت : أى منها بالكسل والتسويف .

المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين خراب هذا العالم ، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ، منها أمران علويان هما : انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأمران سفليان هما تفجير البحار و بعثرة القبور ، ثم أبان أنه فى ذلك اليوم تتجلى للنفوس أعمالها على حقيقتها، فلا ترى خيرا فى صورة شر ، ولا تتخيل شرا فى مثال خير ، كما يقع فى الدنيا لأغلب

النفوس ، فيعرف أهل الخير أنهم وإن نجوا مقصرون ، فيأسفون على ماتركوا ويستبشرون بما عملوا ، ويعضّ أهل السوء بنان الندم ، ويوقنون بسوء المنقلب ، ويتمنون أن لو كانوا ترابا .

الإيضاح

(إذا السماء انفطرت) أى إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، عند خراب هذا العالم بأسره .

وجاء نحو الآية قوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » وقوله : « فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » وقوله : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » .

(وإذا الكواكب انتثرت) أى سقطت وتفرقت ، وهذا يجىء تاليا لما قبله ، إذ متى انشقت السماء وانتقض تركيبها ، واختل نظامها ـ انتثرت كواكبها .

(وإذا البحار فجرت) أى أزيل ما بينها من حواجز ، فاختلط عذبها بملحها ، وفاضت على سطح الأرض حينا من الدهر كما قال : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » أى ملئت وفاض ماؤها ، لاضطراب الأرض وزلزالها الشديد ، ووقوع الخلل فى جميع أجزائها .

والخلاصة — إن هذا العالَم تزول صفاته ، وتتبدل أحواله ، فتكون الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء كما قال : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ » .

(وإذا القبور بعثرت) أى أثيرت وقلب أسفلها أعلاها ، وباطنها ظاهرها ، ليخرج من فيها من الموتى أحياء .

(علمت نفس ما أحضرت) أى علم كل أحد ما قدم لنفسه من عمل ولم يقصر فيه ، وعلم ما أخره وتكاسل عن أدائه .

وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن المعصية .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ؟(٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)

شرح المفردات

ما غرك : أى أىّ شىء خدعك وجرّأك على العصيان ؟ الكريم : أى العلى العظيم ، فسواك : أى جعل أعضاءك سوية سليمة معدّة لمنافعها ، فعدلك : أى جعلك معتدلا متناسب الخلق ، فى أى صورة ما شاء ركبك : أى ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأحكمها ، وكلمة (ما) جاءت زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه ، وهى طريقة متبعة فى كلامهم عند إرادة التهويل ، وسلوك سبيل التعظيم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى صدر السورة أنه فى يوم القيامة يبدّل نظام هذا العالم ، ويسأل الخلائق عما قدمت أيديهم ، ويحاسبهم على ما اقترفوا من آثام ، ويقرّعهم على تكاسلهم فى أداء ما أمروا به ، ويجزيهم أحسن الجزاء على ما قدموا من عمل صالح - أردف هذا بخطاب الإنسان واستفساره عما دعاه إلى مخالفة خالقه، وتماديه فى فجوره وطغيانه ، واسترساله مع دواعى النفس الأمارة بالسوء ، مع أنه لو تدبر فى نفسه وفى خلقه لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو جدير بشكرانه ، ومداومته على

طاعته ، وهو الذى خلقه فسواه وجعله على أحسن صورة ، وكمله بالعقل والفهم والتدبر فى عواقب الأمور ومصايرها .

الإيضاح

(يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك) أى أيها الإنسان العاقل الذى أوتى من قوة الفكر ، وبسطة القدرة ما أوتى ، حتى صار بذلك أفضل المخلوقات - أىّ شىء خدعك وجرأك على عصيان ربك الكريم الذى أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر ، ولا تزال أياديه تتوالى عليك ، ونعمه تترى لديك ؟ ألا تشكر من برأك وصورك فأحسن صورتك ، وجعلك معتدل القامة ، تامّ الخلق ؟

ووصف نفسه بالكريم دون القهار ، إيذانا بأن ذلك مما لا يصلح أن يكون مدارا لاغتراره ، وإغواء الشيطان له بنحو قوله : افعل ماشئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك فى الدنيا وسيفعل مثل ذلك فى الآخرة ، بل هذا يصلح للمبالغة فى الإقبال على الإيمان والطاعة .

والخلاصة - كأنه قيل ما حملك على عصيان ربك الذى من صفاته الكرم ، الزاجر لك عن عصيانه ومخالفة أمره ؟

قال عمر بن الخطاب وقد تلا الآية: غرّه جهله وقرأ: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا». وقال قتادة : غرّه عدوه المسلّط عليه .

ثم أجمل ما فصله أوّلا بقوله :

(فى أىّ صورة ما شاء ركبك) أى ركبك فى صورة هى من أبهى الصور وأجملها ، وأدلّها على بقائك الأبدى فى نشأة أخرى بعد هذه النشأة ، فإن الكريم يوفّى كل مرتبة من الوجود حقها ، فمن خص بهذه المنزلة الرفيعة لاينبغى أن يعيش

كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذرّ ، وإنما الذى يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لاحد لها ، ولا فناء بعدها ، يوفّى فيها كل ذى حق حقه ، وكل عامل جزاء عمله .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ؟ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

شرح المفردات

كلا : كلمة تفيد نفى شىء قد تقدم وتحقيق غيره ، والدين : الجزاء ، حافظين أى يحصون أعمالكم خيرا كانت أو شرا ، والأبرار : واحدهم برّ ؛ وهو من يفعل البرّ (بكسر الباء) ويتقى الله فى كل أفعاله ، والفجار : واحدهم فاجر ؛ وهو التارك لما شرعه الله وحدّه لعباده ، يصلونها : أى يقاسون حرها ، يوم الدين: أى يوم الجزاء ، ما أدراك : أى ما أعلمك وعرفك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن من دلائل نعمه على الإنسان خلقه على أحسن صورة ، وأن ذلك يدل على أن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يجازى بما عمل من خير أو شر — أعقب هذا بيان أنه لاشىء يمنعه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد

والتكذيب ؛ فالشعور النفسى يوحى به ، والدليل النقلى الذى أتى به الرسول يصدقه ، والله لم يترك عملا لعباده إلا أحصاه وحفظه ، ليوفى كل عامل أجره ؛ فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغرض والنسيان بكتابته وضبطه .

ثم ذكر أن الناس فى هذا اليوم فريقان ، بررة مطيعون لربهم فيما به أمر وعنه نهى ، وهؤلاء يتقلبون فى النعيم ، وفجرة يتركون أوامر الدين ، وأولئك يكونون فى دار العذاب والهوان يقاسون حر النار ، وأنه فى هذا اليوم لايجد المرء مايعوّل عليه سوى ماقدمت يداه ، فيجفوه الأولياء ، ويخذله الشفعاء ، ويتبرأ منه الأقرباء ، فلاشفيع ولا نصير ، ولا وزير ولا مشير ، والحكم لله وحده ، وهو المهيمن على عباده ، وبيده تصريف أمورهم ، وهو الصادق فى وعده ، العدل الحكيم فى وعيده ؛ فلامهرب لعامل مما أُعدّ له من الجزاء على عمله .

الإيضاح

(كلا بل تكذبون بالدين) أى ارتدعوا عن الاغترار بكرمى لكم ، فإنكم لاتستقيمون على ماتوجبه نعمى عليكم ، ويدعوه إرشادى لكم ، بل تجترئون على ماهو أعظم منه ، فتكذبون بيوم الجزاء والحساب على القليل والكثير ، يوم تبعثون للفصل بينكم ، فتجازى كل نفس بما عملت ، وما قدمت وأخرت .

ثم حذرهم من تماديهم فى غيهم ببيان أن أعمالهم محصاة عليهم فقال :

(وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون) أى إن أعمالكم محصاة عليكم ، فقد وُكل بكم ملائكة حفظة ، كرام كاتبون ، يحصون كل ما تعملون من خير وشر .

وقد ذكر ذلك فى غير موضع من الكتاب الكريم كقوله : « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وقوله : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » .

وليس علينا أن نبحث عن كنه هؤلاء الحفظة ، ولا أن نعرف من أى شىء خلقوا ، وما عملهم ، وكيف يحفظون الأعمال ، وهل عندهم أوراق وأقلام ، أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال ، أو هم أرواح تتجلى فيها تلك الأعمال ، فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس ـ كل ذلك لم نكلّفِ العلم به ، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر ، وتفويض الأمر فى حقيقته إلى الله .

ثم ذكر نتيجة الحفظ والكتابة من الثواب والعقاب ، وبين أن العاملين فى ذلك اليوم فريقان ، وبين مآل كل منهما فقال :

(إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين) أى وإن أهل الثواب وهم الأبرار يكونون فى دار النعيم ، وإن أهل العقاب وهم الفجار يكونون فى دار الجحيم ، دار العذاب الأليم يقاسون أهوالها .

ثم بين أن هذا العذاب حتم لامنجاة لهم منه ولا مهرب فقال :

(وما هم عنها بغائبين) أى إنهم لايغيبون عن الجحيم ، ولا ينفكون عن عذابها ، بل هم ملازمون لها .

ثم عاد إلى تفخيم ذلك اليوم وتهويل أمره فقال :

(وما أدراك ما يوم الدين) أى إن أمرك أيها الإنسان لعجيب ، فأنت لاهٍ عن هذا اليوم غير مبال به ، وقد كنت خليقا أن تتعرف حقيقة حاله ، لتأخذ لنفسك الحيْطة ، وتتدبر أمرك ، ولا تركن إلى عفو ربك وكرمه وصفحه ، فإنك لاتدرى ما قدّر لك .

ثم زاده توكيدا وتعظيما فقال :

(ثم ما أدراك ما يوم الدين؟) أى ثم عجيب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم ، كأنك قد أدركت كنهه ، وعرفت وجه الخلاص مما يلقاك فيه من الأهوال ، ولوعرفته حق معرفته للانت قناتك ، ورجعت إلى ربك تائبا ، وعدت إليه مستغفرا، طالبا الصفح عما قدمت يداك .

ثم بين حقيقة أمره فقال :

(يوم لاتملك نفس لنفس شيئا) أى يوم لاتستطيع دفعا عنها ولا نفعا لها بوجه ولا أمر إلا لله وحده ، فكل امرئ مشغول بما هو فيه ، كما قال : « وَاتَّقُوا يَوْماً لَاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً » وقال : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(والأمر يومئذ لله) وحده ، فلا أحد يحمى أحدا ، ولا يغنى أحد عن أحد شيئا ، وقد استأثر الله بالأمر كله ، فبيده تصريفه ، وإليه المرجع والمآب ..

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لاتخلف الميعاد .

مافى هذه السورة من مقاصد

(١) وصف بعض أهوال يوم القيامة .

(٢) تقصير الإنسان فى مقابلة الإحسان بالشكران .

(٣) بيان أن أعمال الإنسان موكل بها كرام كاتبون .

(٤) بيان أن الناس فى هذا اليوم : إما بررة منعمون ، وإما فجرة معذبون .

سورة المطففين

آياتها ست وثلاثون ، نزلت بعد سورة العنكبوت ، وهى آخر سورة نزلت بمكة .

ومناسبتها لما قبلها . أنه قال هناك : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وذكر هنا ما يكتبه الحافظون : « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » يجعل فى عليين أو فى سجّين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) .

شرح المفردات

ويل : أى هلاك عظيم، والتطفيف : البخس فى الكيل والوزن؛ وسمى بذلك لأن ما يبخس شىء حقير طفيف ، اكتالوا على الناس : أى اكتالوا من الناس حقوقهم ، يستوفون : أى يأخذونها وافية كاملة ، كالوهم : أى كالوا لهم ، يخسرون: أى ينقصون الكيل والميزان ، يقوم الناس لرب العالمين : أى يقف الناس للعرض على خالقهم ، ويطول بهم الموقف إجلالاً لعظمة ربهم .

المعنى الجملى

فصل سبحانه فى هذه السورة ما أجمله فى سابقتها ، فذكر فيها نوعا من أنواع الفجور وهو التطفيف فى المكيال والميزان ، ثم نوعا آخر وهو التكذيب بيوم الدين ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب وتوبيخهم عليه .

الإيضاح

(ويل للمطففين) أى عذاب وخزى شديد يوم القيامة لمن يطفف فى المكيال والميزان .

وقد خص سبحانه المطففين بهذا الوعيد ، من قِبَل أنه كان فاشيا منتشرا بمكة والمدينة ، فكانوا يطففون المكيال و يبخسونه ولا يوفون حق المشترى .

روى أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة له كيلان أحدهما كبير والثانى صغير ، فكان إذا أراد أن يشترى من أصحاب الزروع والحبوب والثمار اشترى بالكيل الكبير ، و إذا باع للناس كال المشترى بالكيل الصغير .

هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع، واستولى على نفوسهم الجشع — هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد ، وهم الذين توعّدهم النبى صلى الله عليه وسلم وتهددهم بقوله : « خمس بخمس : ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طفّفوا الكيل إلا مُنعوا النبات ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِس عنهم المطر » .

وقد بين سبحانه عمل المطففين الذى استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله :

(الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أى إذا كان لهم عند الناس حق فى شىء من المكيلات لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وافيا كاملا ، و إذا كان لأحد عندهم شىء وأرادوا أن يؤدوه له أعطوه ناقصا غير واف .

واقتصر النظم على الاكتيال حين الاستيفاء ، وذكر الكيل والميزان فيه حين الإخسار ، لأن التطفيف فى الكيل يكون بشىء قليل لايعبأ به فى الأغلب ، دون التطفيف فى الوزن ، فإن أدنى حيلة فيه يفضى إلى شىء كثير ، ولأن ما يوزن أكثر

قيمة فى كثير من الأحوال مما يكال ، فإذا أخبرت الآية بأنهم لايبقون على الناس ما هو قليل مهين من حقوقهم ، علم أنهم لايبقون عليهم والكثير الذى لايتسامح فيه إلا نادرا بالطريق الأولى .

وكما يكون التطفيف فى الكيل والميزان يكون فى أشياء أخرى ، فمن استأجر عاملا ووقف أمامه يراقبه ويطالبه بتجويد عمله ، ثم إذا كان هو عاملا أجيرا لم يراقب ربه فى العمل ولم يقم به على الوجه الذى ينبغى أن يقوم به - يكون واقعا تحت طائلة هذا الوعيد ، مستوجبا لأليم العذاب ، مهما يكن عمله ، جلّ أو حقر ؛ وإذا كان هذا الإنذار للمطففين الراضين بالقليل من السحت ؛ فما ظنك بأولئك الذين يأكلون أموال الناس بلا كيل ولا وزن ، بل يسلبونهم ما بأيديهم ، ويغلبونهم على ثمار أعمالهم ، فيحرمونهم التمتع بها ، اعتمادا على قوة الملك أو نفوذ السلطان أو باستعمال الحيل المختلفة .

لاجرم أن هؤلاء لايحسبون إلا فى عداد الجاحدين المنكرين ليوم الدين ، وإن زعموا بألسنتهم أنهم من المؤمنين المخبتين .

ثم هوّل فى شأن هذا العمل فقال :

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم) أى إن تطفيف الكيل والميزان واختلاس أموال الناس بهذه الوسيلة - لايصدر إلا عن شخص لايظن أنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله ، إذ لو ظن ذلك لما طفف الكيل ولا بخس الميزان .

والخلاصة — إنه لايجسر على فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوم يحاسب الله فيه عباده على أعمالهم ، فما بالك بمن يستيقن ذلك .

ثم وصف هذا اليوم فقال :

(يوم يقوم الناس لرب العالمين) أى هذا اليوم هو اليوم الذى يقف فيه الناس للعرض والحساب ، ويطول بهم الموقف إعظاما لجلاله تعالى .

ولا يخفى ما فى الوصف برب العالمين من الدلالة على عظم الذنب وتفاقم الإثم فى التطفيف ، إذ أن الميزان هو قانون العدل الذى قامت به السموات والأرض .

وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول : اتق الله تعالى وأوف الكيل ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن ، حتى إن العرق ليلجمهم .

وعن عِكرمة أنه قال : أشهد أن كل كيال ووزان فى النار ، فقيل له : إن ابنك كيال ، فقال : أشهد إنه فى النار ، وكأنه أراد المبالغة و بيان أن الغالب فيهم التطفيف .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَاسِجِّينٌ؟(٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) .

شرح المفردات

سجين : اسم للكتاب الذى دوّنت فيه أعمال الفجرة من الثقلين ، مرقوم: من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقما ، معتد : أى متجاوز منهج الحق ، أثيم : أى يكثر من ارتكاب الآثام : وهى المعاصى ، أساطير الأولين : أى أخبار الأولين أخذها محمد عن بعض السابقين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لايقيم على التطفيف إلا من ينكر ما أوعد الله به من العرض والحساب وعذاب الكفار والعصاة ـ أمرهم بالكف عما هم فيه ، وذكر أن الفجار

قد أُعِدّ لهم كتاب أحصيت فيه جميع أعمالهم ليحاسبوا بها ، فويل للمكذبين بيوم الجزاء ، وما يكذب به إلا كل من تجاوز حدود الدين وانتهك حرماته ، وإذا تليت عليهم آيات القرآن قالوا ما هى إلا أقاصيص الأولين نقلها محمد عن السابقين ، وليست وحيا يوحى كما يدعى .

الإيضاح

(كلا) أى ازدجروا عما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن الحساب .

ثم علل هذا بقوله :

(إن كتاب الفجار لفى سجين) أى كفوا عما أنتم عليه ، فإن الفجار سيحاسبون على أعمالهم ، وقد أعد الله لهم كتابا أحصى فيه أعمالهم يسمى (سجّينا) .

(وما أدراك ما سجين ؟) أى ليس ذلك مما تعلمه أنت ولا قومك .

ثم فسره له فقال :

(كتاب مرقوم) أى كتاب قد جعلت له علامة بها يعرف من رآه أنه لا خير فيه .

وقصارى ما سلف — إن للشر سجلا دونت فيه أعمال الفجار وهو كتاب مسطور بيّن الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ، كما تقول : إن كتاب حساب قرية كذا فى السجل الفلانى المشتمل على حسابها وحساب غيرها من القرى .

فلكل فاجر من الفجار صحيفة ، وهذه الصحائف فى السجل العظيم المسمى بسجين .

(ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين) أى شدة وعذاب لمن يكذب بيوم الجزاء ، سواء كان بجحد أخباره أو بعدم المبالاة بما يكون فيه من عقاب وعذاب .

وأعظم دليل على عدم المبالاة هو الإصرار على الجرائم ، والمداومة على اقتراف السيئات .

ثم بين أوصاف من يكذب بهذا اليوم فقال :

(وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) أى وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى على الحق ، وعمى عن الإنصاف ، واعتاد ارتكاب الجرائم ، إذ يصعب عليه الإذعان بأخبار الآخرة ، لأنه يأبى النظر فى أدلتها ، وتدبر البينات المرشدة إلى صدقها ، إلى أنه يعلل نفسه بالإنكار ، ويهوّن عليها الأمر بالتغافل ، أو التعلق بالأمانى من نصرة الأولياء ، أو توسط الشفعاء .

أما من كان ميالا إلى العدل ، واقفا عند ما حدّ الله لعباده فى شرائعه وسننه فى نظام الكون ، فأيسر شىء عليه التصديق باليوم الآخر ، وهو أعون له على ما تميل إليه نفسه .

(إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أى وإذا قرئ عليه القرآن أنكر كونه منزلا من عند الله ، وزعم أنه أخبار الأولين ، أخذها محمد من غيره من السابقين .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

وقد يكون المعنى — إنها أباطيل ألقيت على آبائهم الأولين فكذبوها ولم تجز عليهم ، فلسنا أول من يكذب بها حتى تزعمون أن تكذيبنا بها يعتبر عجلة منا ، فإنا إنما تأسّينا فى تكذيبنا بها بآبائنا الأولين الذين سبقونا .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) .

شرح المفردات

ران على قلبه : أى غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق . وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، قال الفراء : كثرت منهم المعاصى والذنوب ، فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها ، لمحجوبون : أى لمطرودون عن أبواب الكرامة ، لصالوا الجحيم : أى لداخلو النار وملازموها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم قالوا : إن القرآن أساطير الأولين وليس وحيا من عند الله ـ أردف ذلك بيان أن الذى جرأهم على ذلك هى أفعالهم القبيحة التى مرنوا عليها ، فعمِّيت عليهم وجوه الآراء حتى صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة .

ثم ردّ عليهم فرية كانوا يقولونها ، ويكثرون من تردادها ـ وهى ، إن كان ما يحدّث به محمد صحيحا فنحن سنكون فى منزلة الكرامة عند ربنا ، فأبان لهم أنهم كاذبون ، فإنهم سيطردون من رحمته ولا ينالون رضاه ، ثم يؤمر بهم إلى النار فيدخلونها ويصلون سعيرها ، ويقال لهم هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون مما أوعدكم به الرسول .

الإيضاح

(كلا) زجر لكل معتد أثيم يقول الزور ويزعم أن القرآن أساطير الأولين .

ثم بين السبب الذى حملهم على ذلك فقال :

(بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أى ليس الأمر كما يقولون من أنه أساطير الأولين ، بل الذى جرأهم على ذلك هو أفعالهم التى دربوا عليها واعتادوها فصارت سببا لحصول الرين على قلوبهم ، فالتبست عليهم الأمور ولم يدركوا الفرق بين الكذب الفاضح ، والصدق الواضح ، والدليل اللائح .

وبعد أن بين منزلة الفجار والمكذبين بيوم الدين ـ دحض ما كانوا يقولون من أن لهم الكرامة والمنزلة الرفيعة يوم القيامة فقال :

(كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أى ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون مقربين إلى الله ، فإنكم ستطردون من رحمته ولا تنالون رضاه ، ولا تدركون ما زعمتم من القرب والزلفى عنده كما قال : «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ » .

ثم ذكر ما يكون لهم فوق ذلك فقال :

(ثم إنهم لصالوا الجحيم) أى وبعد أن يحجبوا فى عرصات القيامة عن الدنو من ربهم ، وإدراك أمانيهم التى كانوا يتمنونها ـ يقذف بهم فى النار ويصلون سعيرها ويقاسون حرها .

ثم أرشد إلى أنهم حينئذ يبكتون ويوبخون فوق ما بهم من الآلام فقال :

(ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) أى هذا الذى عوقبتم به ـ هو جزاء ما كنتم تكذبون به من أخبار الرسول الصادق ، كزعمكم أنكم لن تبعثوا ، وأن القرآن أساطير الأولين ، وأن محمدا ساحر أو كذاب ، إلى نحو ذلك من مقالاتكم ؛ والآن قد تبين لكم حقيقة أمركم ، وعاينتم بأنفسكم أن ما كان يقوله نبيكم هو الحق الذى لاشك فيه .

وما أشد على الإنسان إذا أصابه مكروه أن يُذَكَّر وهو يتألم، بأن وسائل نجاته من مصابه كانت فى متناول يديه وقد أهملها وألقى بها وراءه ظِهْرِيّا .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

عليين : أى فى مكان عال وقد تقدم أن سجينا مكان فى نهاية السفل ، فهما مكانان أودع فيهما أعمال الناجين وأعمال الخاسرين ، وليس علينا أن نعرف ماهما ؟ أمن أوراق أو أخشاب أو معادن أخرى ، والأرائك : هى الأسرّة فى الحجال (والحجال واحدها حجلة وهى مثل القبة) وحجلة العروس بيت : أى خيمة تزين بالثياب والأسرّة والستور ، ونضرة النعيم : بهجته ورونقه ، ورحيق : أى شراب خالص لاغش فيه ، مختوم : أى ختمت أوانيه وسدت ، ختامه مسك : أى مايختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين ، وأصل التنافس : التشاجر على الشىء والتنازع فيه بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه ، والمراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس، ليلحقوا بالعاملين ، والمِزاج والمَزْج: الشىء الذى يمزج بغيره ، والمَزْج : خلط أحد الشيئين بالآخر ، والتسنيم : عين من ماء تجرى من أعلى

إلى أسفل ، وهو أشرف شراب فى الجنة ، و يكون صرفا للمقرّبين ممزوجا لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة ، والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكرهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال الفجار وحال المطففين ، و بين منزلتهم عند الله يوم القيامة ــ أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا بربهم وصدّقوا رسولهم فيما جاء به عن خالقهم ، وعملوا الخير فى الحياة الدنيا ، فذكر أن الله قد أحصى أعمالهم فى كتاب مرقوم اسمهُ عليون يشهده المقربون من الملائكة .

و بعدئذ عدّد ما ينالون من الجزاء على البر والإحسان .

وفى ذلك ترغيب فى الطاعة ، وحفز لعزائم المحسنين ، ليزدادوا إحسانا ، ويدَعوا الطرق المشتبهة الملتبسة و يقيموا على الطريق المستقيم .

الإيضاح

(كلا) أى ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ، ومن أن كتاب الله أساطير الأولين .

(إن كتاب الأبرار لفى عليين) أى إن كتاب أعمال الأبرار مودع فى أعلى الأمكنة ، بحيث يشهده المقربون من الملائكة ، تشريفا لهم وتعظيما لشأنهم .

كما أن الغرض من وضع كتاب الفجار فى أسفل سافلين ــ إذلالهم وتحقير شأنهم ، و بيان أنه لايؤبه بهم ولا يُعْنَى بأمرهم .

ثم عظم شأن عليين وفخم أمره فقال :

(وما أدراك ما عليون) أى وما أعلمك أى شىء هو ؟ .

ثم فسره و بين المراد منه فقال :

(كتاب مرقوم . يشهده المقربون) أى إن كتابهم فى هذا السجل الكبير الذى يشهده المقربون من الملائكة ، فكما وكّل سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم ، وكل إليهم حفظ كتاب الأبرار .

وقد يكون المراد — إنهم ينقلون ما فى تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذى وكلوا بحفظه ، ويصير عليهم شهادة لهؤلاء الأبرار .

وبعد أن بين منزلة كتاب الأبرار - أخذ يفصل حال الأبرار فقال :

(إن الأبرار لفى نعيم) أى إن البررة المطيعين لربهم ، الذين يؤمنون بالبعث والحساب ، ويصدقون بما جاء على لسان رسوله - لفى لذة ، وخفض عيش ، وراحة بال ، واطمئنان نفس .

ثم ذكر أوصاف هذا النعيم وفخم شأنه فقال :

(على الأرائك ينظرون) أى على الأسرّة فى حجالها ينظرون إلى أنواع نعيمهم فى الجنة من الحور العين والولدان وأنواع الأطعمة والأشربة والمراكب الفارهة إلى نحو ذلك .

ثم بين أثر هذا النعيم على أهل الجنة فقال :

(تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أى إنك إذا نظرت إليهم أدركت أنهم أهل نعمة ، لما ترى فى وجوههم من الأمارات الدالة على ذلك ؛ فمن ضحك ، إلى هدوء بال ، إلى استبشار كما قال : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ » .

(يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك) أى يسقون خمرا لا غش فيها ، ولا يصيب شاربها خُمَارٌ ولا يناله منها أذى كما قال تعالى : « لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » .

وقد ختمت أوانيها بختام من مسك بدل الطين ، تكريما وصونا لها عن الابتذال على ما جرت به العادة من ختم الإنسان على ما يكرَّم ويصان .

وهذا النوع من الخمر غير النوع الآخر الذى يجرى فى الأنهار الذى أشار إليه سبحانه بقوله : « وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ » .

ثم رغب فى العمل لذلك النعيم فقال :

(وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) أى وفى ذلك النعيم فليتسابق المتسابقون ، وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه .

وفى هذا إيماء إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا فى النعيم الذى يشوبه الكدر وهو سريع الفناء .

(ومزاجه من تسنيم) أى ومزاج هذا الرحيق ينصبّ عليهم من الأعالى ، وقد سئل ابن عباس عن هذا فقال : هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

ثم بين هذا التسنيم فقال :

(عيناً يشرب بها المقربون) أى أمدح عيناً يشرب منها الأبرار الرحيق مزاجا إذا أرادوا ، وقد وصفهم الله بالمقربين تكريما لهم وزيادة فى مدحهم .

وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه ، فبين لهم أنهم فى الآخرة يشربون رحيقا قد وصف بما يجعل النفوس تتشوق إليه ، وأنهم يمزجونه بماء تجيئهم به العين العالية القدر ، إذا شاءوا أن يمزجوه .

وقصارى ماسلف — أنه سبحانه وصف النعيم الذى أعده للأبرار فى دار كرامته بما تتطلع إليه النفوس ، وبما يشوّقها إليه ، ليكون حضا للذين يعملون الصالحات على الاستزادة من العمل والاستدامة عليه ، وحثا لهمم المقصرين ، واستنهاضا لعزائمهم أن يحرصوا على التزوّد منه ليكون لهم مثل ما لأولئك .

إلى مافيه من تحزين العصاة المصرّين على عصيانهم ، وبلوغ الغاية فى إيلامهم ، فإن العدو يسوءه أن يرى عدوه فى نعمة ، أو يسمع أن النعمة تنتظره .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) .

شرح المفردات

الغمز : الإشارة بالجفن والحاجب استهزاء وسخرية ، وقد يراد به العيب فيقال غمز فلان فلانا إذا عابه وذكره بسوء ، ويقال فلان لامغمز فيه : أى ليس فيه مايعاب به ، فكهين : أى معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان ، حافظين : أى رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم ، والتثويب والإثابة : المجازاة ؛ يقال ثوّبه وأثابه إذا جازاه كما قال :

سأجْزِيكِ أو يجزيكِ عنى مُثَوِّبُ وحسبُكِ أن يُثنى عليكِ وتحْمَدِى

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه النعيم الذى هيأه للذين آمنوا به وبرسوله ، وعملوا بما كلفهم به من أعمال البر ، وأرشد إلى ما أعده للفجار جزاء ما اجترحوا من السيئات ـ أخذ يبين ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى الحياة الدنيا، وما سيقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة ، كفاء ماصنعوا معهم فى الحياة الأولى .

روى أن صناديد قريش كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السّهمى وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف وأضرابهم ، كانوا يؤذون رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويستهزئون بهم ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم . وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » .

وروى أن عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه جاء فى نفر من المسلمين فرآه بعض هؤلاء الكفار فسخروا منه وممن معه وضحكوا منهم وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه .

الإيضاح

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) أى إن المعتدين الآثمة الذين ضَرِيت نفوسهم على الشر ، وصُمّت آذانهم عن سماع دعوة الحق — كانوا فى الدنيا يضحكون من الذين آمنوا .

ذاك أنه حين رحم الله العالم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهماء من عبادة الأوثان والأصنام ، وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يلبّى دعوته من الضعفاء ، فيُسِرّ بها إلى من يرجو الخير فيه ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه .

ومن شأن القوى المعتزّ بقوته وكثرة ماله وعزة نفره أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ويدعوه إلى غير مايعرف ، كما كان ذلك شأن جماعة من قريش كأبى جهل وشيعته ، وأمثالهُم كثيرون فى كل زمان ومكان ، متى عمت البدع وخفى طريق الحق ، وتحكمت الشهوات ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل ، وإذا صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدرى السامعون منهم بالداعى إليه .

(وإذا مروا بهم يتغامزون) أى وإذا مر المؤمنون بهم يعيبونهم ويذكرونهم بالسوء ، ويشيرون إليهم مستهزئين .

(وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) أى وإذا رجعوا إلى ذوى قرابتهم وبنى جلدتهم وأشياعهم من أهل الشرك والضلالة — رجعوا معجبين بما فعلوا من العيب على أهل الإيمان ورميهم بالسُّخف وقلة العقل ، ويقولون : عجبا لهم، إذ يقولون لاتدعوا إلا إلهاً واحداً ، ولا تتوجهوا بالطلب إلا إليه ، فأين الأولياء والشفعاء ، فكم ضرّوا وكم نفعوا — إلى نحو ذلك مما يتندرون به ويعدونه فكاهة ويتلذذون بحكايته .

(وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) أى وإذا رأوا المؤمنين قالوا إن هؤلاء لضالون ، إذ نبذوا ماعليه الكافة ، وذهبوا يعيبون العقائد الموروثة والمناسك التى نقلها الخلف عن السلف ، كابرا عن كابر ، وجيلا بعد جيل .

فرد سبحانه على هؤلاء الكفار فقال :

(وما أرسلوا عليهم حافظين) أى إن الله لم يرسل الكفار رقباء على المؤمنين ، ولم يؤتهم سلطة محاسبتهم على أفعالهم ، وتعريف باطلها من صحيحها ، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم مايعتقدونه ضلالا بعقولهم الفاسدة ، وإنما كلفهم أن ينظروا شئون أنفسهم ، فيعدّلوا منها ما اعوجّ ، فإذا فعلوا ذلك قاموا بما يجب عليهم فى هذه الحياة.

ثم شرع يذكر معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة ، تسلية لهم على ماينالهم منهم من أذى وتقوية لقلوبهم ، وشدّا لعزائمهم على التذرع بالصبر فقال :

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) أى إنهم فى يوم الدين يضحك المؤمنون ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسرّ به، وينكشف لهم ما كانوا يرجون من إكرام الله لهم وخذلان أعدائهم، فضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم وفساد أقوالهم .

(على الأرائك ينظرون) إلى ماصنع الله بأعدائهم، وتنكيله بمن كانوا يفخرون عليهم ويهزءون بهم .

ثم ذكر ماينظرون إليه ليستيقنوا من حصوله فقال :

(هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون) أى إنهم ينظرون ليتحققوا : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلون بهم فى الدنيا .

وإنما سمى الجزاء على العمل ثوابا ، لأنه يُرجع إلى صاحبه نظير ماعمله من خير أو شر .

ولله الحمد على إنعامه ، والشكر على إحسانه وإفضاله .

مقاصد هذه السورة

(١) وعيد المطففين .

(٢) بيان أن صحائف أعمال الفجار فى أسفل سافلين .

(٣) الإرشاد إلى أن صحائف أعمال الأبرار فى أعلى عليين .

(٤) وصف نعيم الأبرار فى مآكلهم ومشاربهم ومساكنهم .

(٥) استهزاء المجرمين بالمؤمنين فى الدنيا وتغامزهم بهم وحكمهم عليهم بالضلال .

(٦) تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة .

(٧) نظر المؤمنين إلى المجرمين وهم يلقون جزاءهم وما أعدَّ لهم من النكال .

ســـورة الانشقاق

هى مكية ، وآياتها خمس وعشرون ، نزلت بعد سورة الانفطار .

ومناسبتها لما قبلها — أنه فى السابقة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفى هذه ذكر عرضها يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) .

شرح المفردات

انشقت : أى تشققت بالغمام كما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ »

وأذنت لربها : أى استمعت له كما قال :

صُمٌّ إذا سمعوا خيرا ذُكِرْتُ به ... وإن ذُكِرْتُ بشرٍّ عندهم أَذِنُوا

وحقّت : أى وحق لها أن تمتثل ذلك أى يجد ربها أن تكون كذلك ، قال كُثَيِّر :

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحباً وحقّت لها العُتبى لدينا وقلّتِ

مدت : أى بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، وألقت مافيها : أى ألقت مافى جوفها من الموتى والكنوز، وتخلت : أى خلت مما فيها فلم يبق فيها شيء ، كادح : أى جاهد مجدّ . قال شاعرهم :

ومضت بشاشةُ كلّ عيشٍ وبقيتُ أكدح للحياة وأنصبُ

فملاقيه : أى فملاق له عقب ذلك ، ينقلب : أى يرجع ، أهله : أى عشيرته المؤمنين ، وراء ظهره : أى يؤتاه بشماله من وراء ظهره ، والثبور : الهلاك أى ينادى ويقول : واثبوراه أقبل فهذا أوانك ، ويصلى : أى يقاسى ، وسعيراً : أى ناراً مستعرة ، مسروراً : أى فرحا ، يحور : أى يرجع قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذْ هو ساطعُ

والمراد أنه لن يرجع إلى الله ، بلى : أى بلى يحور ويرجع .

المعنى الجملى

بين سبحانه فى أوائل هذه السورة أهوال يوم القيامة ، فذكر أنه حين انشقاق السماء واختلال نظام العالم ، وانبساط الأرض بنسف مافيها من جبال ، وتخليها عما فى جوفها — يلاقى المرء ربه فيوفيه حسابه ، وينقسم الناس حينئذ فريقين :

(١) فريق الصالحين البررة ، وهؤلاء يحاسبون حسابا يسيرا ويرجعون مسرورين إلى أهلهم .

(٢) فريق الكفرة والعصاة ، وهؤلاء يؤتون كتبهم وراء ظهورهم ، ثم يصلون حر النار لأنهم كانوا فرحين بما يتمتعون به من اللذات والجرى وراء الشهوات ، إذ كانوا يظنون أن لا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

الإيضاح

(إذا السماء انشقت) لفساد تركيبها واختلال نظامها ، حينما يريد الله خراب هذا العالم بحدث من الأحداث ، كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من كوكب آخر، فيتجاذبان ويتصادمان ، فيضطرب نظام العالم العلوى بأسره ، ويحدث من ذلك غمام يظهر فى مواضع متفرقة من هذا الفضاء الواسع .

(وأذنت لربها) أى استمعت وانقادت لتأثير قدرته ، وفعلت فعل المطواع الذى إذا أُمر أنصت وأذعن وامتثل ما أمر به ، وفى الحديث : « ما أذن الله لشىء إذنه لنبىّ يتغنى بالقرآن » .

(وحقت) أى وحق لها أن تمتثل لأنها مخلوقة من مخلوقاته وهى فى قبضته ، فإن أراد تبديد نظامها فعل ولم يكن لها أن تعصى إرادته .

(وإذا الأرض مدت) أى وإذا اضطربت الأرض ودكت جبالها ، وتقطعت أوصالها ، وفقدت مابينها من التماسك ، فليس لها هذا الاندماج المشاهد الآن بل تمدّ مدّ الأديم العُكاظىّ كما روى عن ابن عباس (والأديم : الجلد ، والعكاظىّ : المدبوغ فى عكاظ) والمراد أنه لا انشقاق فيها ولا اعوجاج .

(وألقت مافيها) أى رمت مافى جوفها من الناس والمعادن ، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها .

ونحو هذا قوله : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » وقوله : « وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » وقوله : « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ » .

(وتخلت) أى خلت من جميع مافى جوفها ، وربما قذفته الحركة العنيفة إلى مايبعد عن سطحها ، فيخلو منه باطن الأرض وظاهرها ، وهى فى ذلك خاضعة لأوامر ربها ، منقادة لمشيئته .

(وأذنت لربها وحقت) أى واستمعت وأطاعت أوامره ، لأنها فى قبضة القدرة الإلهية تصرِّفها فى الفناء ، كما صرفتها فى الابتداء .

وجواب إذا الذى صدّرت به السورة محذوف لإرادة التهويل على المخاطبين ، فكأنه قيل : إذا كان الأمر كذا وكذا مما تقدم ذكره — ترون ماعملتم من خير أو شر ، فاكدحوا لذلك اليوم ، تفوزوا بالنعيم .

وقصارى ذلك — وصف أحوال العالم يوم القيامة « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وأنه يكون على غير حاله التى هو عليها فى هذه الحياة ، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات ، ويبرز الناس للحساب على ماقدموا فى حياتهم من عمل فيجازيهم على الإحسان إحسانا ، وعلى الإساءة السوءى ، وعلينا أن نؤمن بذلك كله ، ونكل علم حقيقته ، ومعرفة كنهه إلى الله تعالى الذى لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

(يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) أى أيها الإنسان ، إنك عامل فى هذه الحياة ومجدّ فى عملك ، ومبالغ فى إدراك الغاية إلى أن تنتهى حياتك ، وإن كنت لاتشعر بجدك ، أو تشعر به وتلهو عنه ، وكل خُطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خُطوة إلى أجلك ، وهناك لقاء الله ، فالموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة ويجلو لها وجه الحق ، فتعرف من الله ما كانت تنكره ، ويوم البعث يرتفع الالتباس ، ويعرف كل عامل ماجرّ إليه عمله .

والناس حينئذ صنفان :

(١) (فأمامن أوتى كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حسابايسيرا. وينقلب إلى أهله مسروراً) أى فأما من عرض عليه سجلّ أعماله وتناوله بيمينه ، فإنه يحاسب أيسر الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فيعرّف بطاعته وبمعاصيه ، ثم يثاب على ما كان منها طاعة ، ويتجاوز له عما كان منها معصية .

وقد روى عن عائشة أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا ، قلت وما الحساب اليسير؟ قال: يُنظر فى كتابه و يتجاوز عن سيئاته ، فأما من نوقش الحساب فقد هلك » .

ومن حوسب هذا الحساب اليسير رجع إلى أهله المؤمنين مسرورا مبتهجا قائلا : « هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ » .

(٢) (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره . فسوف يدعو ثبوراً . و يصلى سعيراً) أى وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم ، واجتراح المعاصى ، فيؤتون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم ، ومدُّ اليسار إلى الكتاب دليل الكراهة ، وأظهر فى الدلالة على الكراهة والنفور أن يستدبره و يعرض عنه فيكون من وراء ظهره .

وقصارى ماسلف — إن من عرض عليه كتابه وقدم إليه ليأخذه ، فاندفع إليه بعزيمة صادقة ، لشعوره بأنه مستودع الصالحات ، وسجلّ البر والكرامات ، فشأنه كذا وكذا .

ومن قُدّم إليه كتابه وعرض عليه عمله ، نخزيت نفسه وخارت عزيمته ، فمدّ إليه يساره أو أعرض عنه فولاه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات ، وسجّين المخازى فأمره كيت وكيت .

يرشد إلى ذلك ماورد من التفصيل فى سورة الحاقة « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » ودعوة الناس إلى القراءة علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة .

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ » ولا شك أن هذا قول المخذول الكاره لما عرض عليه .

والخلاصة — إن إيتاء الكتاب باليمين ، أو باليسار أو من وراء الظهر تصوير لحال المطلع على أعماله فى ذلك اليوم ؛ فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وتناول كتابه بيمينه ، ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس و بسر وأعرض عنها وأدبر ، وتمنى لو لم تكشف له ، وتناولها باليسار أو من وراء الظهر ، وحينئذ يدعو واثبوراه ، أى ياهلاك أقبل فإنى لا أريد أن أبقى حيا ، علما منه بأن ذلك داع إلى طول العذاب ، وأنه سيدخل النار و يقاسى سعيرها .

ثم ذكر سبحانه سببين فى استحقاقه للعذاب فى الآخرة فقال :

(١) (إنه كان فى أهله مسرورا) أى لأنه كان فى حياته الدنيا فرحا بطرا لايفكر فى أمور الآخرة ، و يقدم على المعاصى ظنا منه أن لذاتها لاتوجب الحسرة ، ولا تورث التردّى فى نار الجحيم ، ومن ثم أبدله الله بهذا النعيم الزائل عذابا لاينقطع ، وآلاما لاتنفد .

(٢) (إنه ظن أن لن يحور) أى إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه ، وأنه لن يبعث الخلق لحسابهم على ماقدموا ، ولو علم أن الله سيبدل سروره هما ، وفرحه حزنا وغما — لأقلع عما هو فيه ، ولترك هذا السرور العاجل السريع الفناء ، وطلب من السرور مايبقى مابقيت الجنة التى لايفنى نعيمها ، ولا يزول سرور أهلها .

وفى الآية إيماء إلى أن المسخرين لشهواتهم، الساعين وراء لذاتهم ليسوا بظانين فضلا عن أن يكونوا مستيقنين بأنهم يرجعون إلى ربهم ليحاسبهم ، بل الراجح عندهم أنهم لايحاسبون ، وأن الله مخلف وعده ، وهذا هو الذى ينسيهم ذكره عند كل جرم يُجْرمونه ، فهم و إن كانوا يزعمون الإيمان بالله و بوعده ووعيده ، فهم يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم .

ثم رد عليه ظنه الخاطئ فقال :

(بلى إن ربه كان به بصيرا) أى بلى ليحورَنّ وليرجعنّ إلى ربه ، وليحاسبنه على عمله ، فيجزى على الخير خيرا وعلى الشر شرًّا ، فإن الذى يخلق الإنسان مستعدًّا

لما لا يتناهى من الـكمال، بما وهبه من العقل، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية سائر الحيوان ، بل تقضى حكمته أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة يثمّر فيها أعماله ، ويوافى فيها كماله .

فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَيَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) .

شرح المفردات

الشفق : هو الحمرة التى تشاهد فى الأفق الغربى بعد الغروب، وأصله رقة الشىء؛ يقال ثوب شفق : أى لا يتماسك لرقته ، ومنه أشفق عليه : أى رق له قلبه قال :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم نزّال على الحُرَم

وسق : أى ضم وجمع؛ يقال وسقه فاتسق واستوسق : أى جمعه فاجتمع ، وإبل مستوسقة : أى مجتمعة قال :

إن لنا قلائصـــا حقائقا ... مستوسقاتٍ لم يجدْن سـائقا

واتسق : أى اجتمع نوره وصار بدرا ، لتركبنّ : أى لتلاقُنّ ، والطبق : الحال المطابقة لغيرها ، قال الأقرع بن حابس :

إنى امرؤٌ حلبت الدهرَ أشطُره ... وساقنى طبق منه إلى طبق

والمراد لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض

وهى الموت وما بعده ، لايسجدون : أى لايخضعون ولا يستكينون ، يوعون : أى يجمعون فى صدورهم من الإعراض والجحود والحسد والبغى ، والبشارة : الإخبار بما يسر ؛ واستعملت فى العذاب تهكما ، وممنون : أى مقطوع من قولهم منّ فلان الحبل إذا قطعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الإنسان راجع إلى ربه فملاقيه ومحاسبه ، إما حسابا يسيرا إن كان قد عمل الصالحات ، أو حسابا عسيرا إن كان قد اجترح السيئات ، أقسم بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، إن البعث كائن لامحالة ، وإن الناس يلقون شدائد الأهوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار .

ونحو الآية قوله : « بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ » وقوله : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » فمن عجيب أمرهم أنهم لايؤمنون به ، وأعجب منه أنه إذا قرئ عليهم القرآن لايخضعون له ولا يستكينون ، لأن العناد صدهم عن الإيمان ، ومنعهم من الإذعان ، والله أعلم بما تكنه صدورهم ، وسيجازيهم بشديد العذاب ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم ثواب عند ربهم لاينقطع .

الإيضاح

(فلا أقسم) تقدم أن قلنا : إن العرب اعتادت أن تأتى بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمرا ظاهرا لايحتاج إلى التوكيد ، فكأنه سبحانه يقول : لاأقسم بهذه الأشياء على إثبات ما أذكره لكم لأن أمره ظاهر ، وثبوته غير محتاج إلى الحلف عليه .

ويرى بعض العلماء أنه إنما يستعمل حين يكون الحلف على أمر جليل القدر ، عظيم الشأن لا يكفى القسم لإثباته ، فكأنه سبحانه يقول : لاأقسم بهذه الأشياء

على إثبات ماأريد ، لأن إثباته أعظم وأجلّ من أن يقسم عليه بهذه الأمور الهينة ، والغرض على هذا الوجه تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه .

(بالشفق . والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق) أى أقسم بهذه الأشياء التى إذا تدبر الإنسان أمرها ، استدل بجلالها وعظمة شأنها على قدرة مبدعها .

(لتركبنّ طبقاً عن طبق) أى لتلاقُنّ أيها الناس أمورا بعد أمور وأحوالا بعد أحوال ، إلى أن تصيروا إلى ربكم وهناك الخلود فى جنة أو نار .

ويدخل فى هذه الأحوال جميع الأطوار التى مرت به منذ أن كان نطفة فى بطن أمه إلى أن صار شخصا ، وما مرّ به فى حياته الأولى من طفولة وشيخوخة ثم موته ثم حشره للحساب ، ثم مصيره إلى الجنة أو النار .

والخلاصة — لتركبنّ حالا بعد حال والحال الثانية تطابق الأولى، أى لتكوننّ فى حياة أخرى تماثل هذه الحياة التى أنتم فيها وتطابقها من حيث الحس والإدراك ، والألم واللذة ، وإن خالفت فى بعض شئونها الحياة الأولى .

وبعد أن ذكر الأدلة القاطعة على صحة البعث والحساب أنكر عليهم استبعادهم له فقال :

(فما لهم لايؤمنون؟) أى فأىُّ شىء حدث لهم حتى جحدوا قدرة الله وأنكروا صحة البعث ، وكل شىء أمامهم ينادى بباهر قدرته ، ويرشد إلى عظيم سلطانه ؟

وقصارى ذلك — إنه لاشبهة لهم يصح أن يستمسكوا بها على إنكار البعث والحساب .

(وإذا قرئ عليهم القرآن لايسجدون) أى وماذا حدث لهم حتى صاروا إذا قرئ عليهم القرآن لايعترفون بإعجازه ، وبلوغه الغاية التى لايمكن البشر أن يصلوا إليها فأمرهم عجب ، فهم أهل اللسان وأرباب البلاغة والبراعة ، وذا يقتضى أن يعلموا إعجازه ، ومتى علموه استكانوا وخضعوا له ، وأدركوا صحة نبوة الرسول الذى جاء به ، ووجبت عليهم طاعته .

ثم بين السبب فى عدم إيمانهم به وانقيادهم له فقال :

(بل الذين كفروا يكذبون) أى إن الدلائل الموجبة للإيمان جلية واضحة ، لكنهم قوم معاندون مصرّون على التكذيب ، إما لأنهم يحسدون الرسول صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله ، وإما لخوفهم من فوت المناصب الدينية ، والرياسات التقليدية ، وإما لأنهم يأبون أن يخالفوا ماوجدوا عليه آباءهم من عقائد زائفة ، وأفعال مستهجنة .

(والله أعلم بما يوعون) أى والله سبحانه مطلع على مافى قلوبهم من أسباب الإصرار على الشرك ودواعى العناد والاستمرار على ماهم عليه .

(فبشرهم بعذاب أليم) جزاء إعراضهم على التكذيب والجحود ، وإصرارهم على سيئ العمل ، وفاسد الاعتقاد .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى لكن الذين آمنوا بالله ورسوله وخضعوا للقرآن الكريم وعملوا بما جاء فيه ، فأولئك لهم أجر لاينقطع مدده ، ولا ينقص منّه .

وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن المعصية، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

مقاصد السورة

تشتمل هذه السورة على مقصدين :

(١) أن الإنسان يلاقى نتائج أعماله يوم القيامة ، فيأخذ كتابه بيمينه أو من وراء ظهره .

(٢) أن الناس فى الدنيا يتنقلون فى أحوالهم طبقة بعد طبقة إما فى نعيم مقيم ، وإما فى عذاب أليم .

سورة البروج

هى مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة الشمس .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) اشتمالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والإلقاء فى حمارّة القيظ ، وذكر هنا أن هذه شِنْشِنة مَن تقدمهم من الأمم ، فقد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود .

وفى هذا عظة لقريش ، وتثبيت من يعذبون من المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) .

شرح المفردات

البروج : واحدها برج ؛ ويطلق على الحصن والقصر العالى وعلى أحد بروج السماء الاثنى عشر ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ؛ فيسير القمر فى كل برج منها

يومين وثلث يوم فذلك ثمانية وعشرون يوما ثم يستتر ليلتين ؛ وتسير الشمس فى كل برج منها شهرا ، ستة منها فى شمال خط الاستواء ، وستة فى جنوبه ؛ فالتى فى شماله هى: الحَمَل والثور والجَوْزَاء والسَّرَطان والأسد والسُّنْبُلة ، والتى فى جنوبه هى الميزان والعَقْرب والقَوْس والجَدْى والدَّلو والحُوت ؛ وتقطع الثلاثة الأولى فى ثلاثة أشهر ، أوّلها اليوم العشرون من شهر مارث ، وهذه المدة هى فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الحادى والعشرون من شهر يونيه ، وهذه المدة هى فصل الصيف ؛ وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا ، أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر ، وهذه المدة هى فصل الخريف ؛ وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هى فصل الشتاء ، واليوم الموعود : هو يوم القيامة ، لأن الله قد وعد به ، والشاهد والمشهود : جميع ما خلق الله تعالى فى هذا العالم ، فإن كل ما خلقه شاهد على جليل قدرته ، وعظيم حكمته .

وفى كل شئ له آية تدل على أنه واحد

وهو مشهود أيضا لكل ذى عينين ، والأخدود : الشق فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه أخاديد ، وأصحاب الأخدود: قوم كافرون ذوو بأس وقوة رأوا قوما من المؤمنين فغاظهم إيمانهم فحملوهم على الكفر فأبوا فشقوا لهم شقا فى الأرض وحشوه بالنار وألقوهم فيه ، وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد على جوانب الشق يشهدون الإحراق ، وما نقموا منهم : أى ما عابوا عليهم ، العزيز : أى الذى لاتُغْلب قوته ، الحميد : أى الذى يحمد على كل حال .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما فيه غيب وشهود ، وهو السماء ذات البروج ، فإن كواكبها مشهود نورها ، مرئىّ ضوؤها ، معروفة حركاتها فى طلوعها وغروبها ، وكذلك البروج

نشاهدها وفيها غيب لانعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما فيها من عوالم لانراها ولا ندرك حقيقتها .

وأقسم بما هو غيب صِرْفٌ ، وهو اليوم الموعود وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب .

وأقسم بما هو شهادة صرفة وهو الشاهد : أى ذو الحس ، والمشهود : وهو ما يقع عليه الحس .

أقسم سبحانه بكل ما سلف إن مَن قبلهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش أعدائهم بهم ، واشتدادهم فى إيذائهم ، حتى خدّوا لهم الأخاديد وملئوها بالنيران وقذفوهم فيها ولم تأخذهم بهم رأفة ، بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بهم ، وهم مع ذلك قد صبروا وانتقم الله من أعدائهم؛ وممن أوقع بهم، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ولئن صبرتم أيها المؤمنون على الأذى ليوفينّكم أجركم ، وليأخذنّ أعداءكم ولَيُنزِلنّ بهم ما لا قِبَل لهم به .

وقد حكى الله هذا القصص ، ليكون تثبيتا لقلوب المؤمنين ، ووعدا لعباده الصالحين ، وحملا لهم على الصبر والمجاهدة فى سبيله ، ووعيدا للكافرين وأنه سيحلّ بهم مثل ما حل بمن قبلهم : « سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ـ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً » .

الإيضاح

(والسماء ذات البروج) أى قسما بالسماء ذات الكواكب العظيمة التى لم يُستَطع لها إحصاء ولا عدّ ، منها ما لا يصل ضوؤه إلينا إلا فى ألف ألف سنة وخمسمائة ألف ، مع أن الضوء يسير فى الثانية الواحدة ثلثمائة ألف كيلو ، ويصل فى سيره إلى القمر فى قدر ثانية وثلث الثانية ، ولو جرى حول الكرة

الأرضية لدار حولها فى الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ، ولو أطلق مِدْفع فإن قنبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التى يقطعها الضوء فى ثانية واحدة .

فما أبعد الكواكب التى يصل ضوؤها إلينا بعد مليون سنة ونصف المليون ، وإلى أىّ حد هى عظيمة بالنسبة إلى شمسنا .

وقد أقسم الله بهذه الكواكب لما فيها من عجيب الصنعة ، وباهر الحكمة ، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس فى هذه الحياة تدل على أن لها صانعا حكيما مدبرا ، إلى أنه يحثنا على البحث عن هذه العوالم ، لنستدل بذلك على عظيم قدرته ، وجليل حكمته .

(واليوم الموعود) وهو يوم الفصل والجزاء الذى وعد الله به على ألسنة رسله ، وفيه يتفرد ربنا بالملك والحكم .

(وشاهد ومشهود) أى وبجميع ما خلق الله فى هذا الكون مما يشهده الناس ويرونه رأى العين ، فمنهم من يتدبر ويستفيد من النظر إليه ، ومنهم من لايستفيد من ذلك شيئا .

وقصارى ذلك — إنه سبحانه أقسم بالعوالم كلها ليلفت الناظرين إلى ما فيها من العِظَم والفخامة ، وليعتبروا بما حضر ، ويبذلوا جهدهم فى درك حقيقة ماأستتر .

(قتِل أصحاب الأخدود) أى أخذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة .

ومن حديث ذلك أنه قد وقع إلى نجران من أرض اليمن رجل ممن كانوا على دين عيسى بن مريم فدعا أهلها إلى دينه وكانوا على اليهودية ، وأعلمهم أن الله بعث عيسى بشريعة ناسخة لشريعتهم ، فآمن به قوم منهم ، وبلغ ذلك ذا نُواس ملكهم وكان يتمسك باليهودية ، فسار إليهم بجنود من حِمْير ، فلما أخذهم خيّرهم بين اليهودية والإحراق بالنار ، وحفر لهم حَفِيرةً ثم أضرم فيها النار ، وصار يُؤْتى

بالرجل منهم فيخيره ، فمن جزع من النار وخاف العذاب ورجع عن دينه ورضى اليهودية تركه ، ومن استمسك بدينه ولم يبال بالعذاب الدنيوى لثقته بأن الله يجزيه أحسن الجزاء ـ ألقاه فى النار وكان حولها يشرف على هلاكه .

ثم بيّن من هم أصحاب الأخدود فقال :

(النار ذات الوقود) أى إن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار التى لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها ، لاجرم يكون حريقها عظيما ، ولهيبها متطايرا .

(إذ هم عليها قُعود) أى قتلوا ولعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم وهم يعذبون بها ، ويحرقون فيها كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أى إن أولئك الجبابرة الذين أمروا بإحراق المؤمنين كانوا حضورا عند تعذيبهم ، يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم .

وفى هذا إيماء إلى قسوة قلوبهم ، وتمكن الكفر منهم ، إلى ما فيه من إشارة إلى قوة اصطبار المؤمنين وشدة جَلَدهم ، ورباطة جأشهم ، واستمساكهم بدينهم .

وقد يكون المعنى — يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يقصر فى التنكيل بالمؤمنين .

(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) أى إن هؤلاء الكفار يعاقبوا المؤمنين إلا على شىء لايجوز العقاب عليه ، بل ينبغى لكل أحد أن يكون عليه ، ويدعو غيره إلى التمسك به ، وهو الإيمان بالله تعالى العزيز الغالب الذى يخشى عقابه ، وتهاب صولته ، المنعم الذى يرجى ثوابه ، وترتقب نعماؤه .

ثم أكد استحقاقه للعزة والحمد بقوله :

(الذى له ملك السموات والأرض) أى لأنه مالك الأمر كله فيهما ، فلا مفرّ لأولئك الظالمين من سلطانه ، وأن ما يلاقيه المؤمنون ليس إلا امتحانا وابتلاء مما يمحص الله به أهل طاعته ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا .

ثم وبخهم على ما صنعوا بالمؤمنين وأوعدهم بأنهم سيلاقون جزاء ما فعلوا فقال:
(والله على كل شيء شهيد) فهو عليم بما يكون من خلقه ومجازيهم عليه.

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١).

شرح المفردات

فتنوا: أي ابتلوا وامتحنوا، عذاب الحريق: هو عذاب جهنم ذكر تفسيرا وبيانا له، الفوز الكبير: أي الذي تصغر الدنيا بأسرها عنده، بما فيها من رغائب لا تفنى.

المعنى الجملي

بعد أن ذكر قصة أصحاب الأخدود وبين ما فعلوه من الإيذاء والتنكيل بالمؤمنين وذيّل ذلك بما يدل على أنه لو شاء لمنع بعزته وجبروته أولئك الجبابرة عن هؤلاء المؤمنين، وأنه إن أمهل هؤلاء الفجرة عن العقاب فى الدنيا فهو لم يهملهم، بل أجّل عقابهم ليوم تشخص فيه الأبصار - ذكر ما أعد للكفار من العذاب الأليم، جزاء ما اجترحت أيديهم من السيئات التى منها إيذاء المؤمنين، وما أعد للمؤمنين من جميل الثواب، وعظيم الجزاء.

الإيضاح

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) أى إن الذين امتحنوا المؤمنين والمؤمنات بالتعذيب، ليردوهم عن دينهم،

وثبتوا على كفرهم وعنادهم ولم يتوبوا حتى أخذهم الموت ـ أعدّ الله لهم عذابا فى جهنم بالحريق .

وقد كان الضالون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إليه ، حرصا على ما ألفوا من الباطل ، وتشيعا لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين ، على غير بصيرة ، ولا استشارة للعقل السليم ، ولا يزال هذا شأنهم إلى يوم الدين .

أنظر إلى أصحاب الأخدود تجدهم قد عرضوا المؤمنين على النار وأحرقوهم بها ، وإلى كفار قريش ترهم قد فتنوا المؤمنين بالكثير من الإيذاء ، فعذبوا آل ياسر بفنون من العذاب ، وعذبوا بلالاً بما لا يحصى من ضروب الأذى ، وفعلوا مثل هذا بكثير من أكابر المؤمنين ، حتى لقد آذوا الرسول الأكرم وألحقوا به كثيرا من العنت والأذى ، فرموه بالحجارة حتى أدموه ، بل فعلوا معه أكثر من هذا فخرجوا بخيلهم ورجلهم يقاتلونه وأصحابه ، ويتمنون لو يتمكنون منه ليقتلوه ، ولكن الله منعه منهم : « وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

وفى قوله : « ثم لم يتوبوا » إيماء إلى أنهم لو تابوا قبل موتهم غفر الله لهم ما قدّموا قبل التوبة من ذنب .

وبعد أن ذكر ما أعد لأعدائه من النكال والعذاب الأليم ـ أرشد إلى ما يكون لأوليائه من النعيم المقيم ، ليكون ذلك أنكى للأعداء ، وأشد فى غيظهم ، وأبعث للأسى والحزن فى نفوسهم فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) أى إن الذين أقروا بوحدانية الله وعملوا صالح الأعمال ائتمارا بأوامره وكفوا عن نواهيه ابتغاء رضوانه ـ لهم بساتين تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، وهذا هو الظفر الكبير لهم ، كفاء ماقدموا من إيمان وطاعة لربهم .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) .

شرح المفردات

البطش : الأخذ بالعنف والشدة ، يبدئ ويعيد : أى هو الذى يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى ، ليجازيهم بما عملوا فى حياتهم الأولى ، الغفور : أى الذى يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته ، الودود : أى الذى يحب أولياءه ويتودّد إليهم بالعفو عن صغير ذنوبهم ، ذو العرش : أى صاحب الملك والسلطان والقدرة النافذة ، المجيد : أى السامى القدر المتناهى فى الجود والكرم ، تقول العرب : « فى كل شجر نار ، واستمجد المَرْخُ والعَفار » : أى تناهيا فى الاحتراق حتى يقتبس منهما .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووصف ما أعدّ لهم من الثواب كِفاء أعمالهم ـ أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته على ذلك ، ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد .

فالملك لا يعظم سلطانه وهيبته فى النفوس إلا بأمرين :

(١) الجود الشامل والإنعام الكامل ، وبذا يرجى خيره .

(٢) الجيوش الجرارة والأساطيل العظيمة التى توقع بأعدائه وتنكل بهم ، وبذلك يهاب جانبه ، وإليهما معا أشار بقوله فيما سلف : « الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وهنا زاد الأمر إيضاحا بقوله : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » الآية .

الإيضاح

(إن بطش ربك لشديد) أى إن انتقامه من الجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعقوبة - لهو الغاية فى الشدة ، والنهاية فى الأذى والألم .

وفى هذا إرهاب لقريش ومن معها ، وتعزية لرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن معه .

وقد زاد سبحانه أمر قدرته توكيدا فقال :

(إنه هو يبدئ ويعيد) أى إنه يخلق الخلق ابتداء ، ثم يعيدهم بعد أن صيّرهم ترابا ، وإذا كان قادرا على البدء والإعادة فهو قادر على شديد البطش بهم ، لأنهم تحت قبضته ، وخاضعون لسلطانه .

فكأنه سبحانه يقول : إن مرجعكم إلى ربكم ، فإذا لم يعاقبكم فى هذه الحياة على ما تعملون مع أوليائه فلا تظنوا أن ذلك إهمال منه أو تقصير فى شأنهم ، بل أخر ذلك ليوم ترجعون إليه ، وهو اليوم الذى سيكون فيه البطش والانتقام منكم .

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال فقال :

(١) (وهو الغفور) لمن يرجع إليه بالتوبة ، فيتجاوز عن سيئاته .

(٢) (الودود) لمن خلصت نفسه بالمحبة له .

(٣) (ذو العرش) أى ذو الملك والعظمة ، والسلطان والقدرة النافذة ، والأمر الذى لا يردّ .

(٤) (المجيد) أى العظيم الكرم والفضل .

(٥) (فعّال لما يريد) أى لا يريد شيئا إلا فعله وفق إرادته ، فإذا أراد هلاك الجاحدين المعاندين ونصر أهل الحق الصادقين لم يعجزه ذلك ، وأين هم ممن سبقهم ممن كانوا أضل منهم وأشد قوة ؟

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) .

شرح المفردات

الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق أخرى على الأعوان ؛ والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم ، فرعون : هو طاغية مصر ، ثمود : قبيلة بائدة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا ، محيط : أى هم فى قبضته وحوزته كمن أحيط به من ورائه فانسدت عليه المسالك ، مجيد : أى شريف ، محفوظ : أى مصون من التحريف ، والتغيير والتبديل .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أصحاب الأخدود وبيّن حالهم ، ووصف ما كان من إيذائهم للمؤمنين — أردف ذلك ببيان أن حال الكفار فى كل عصر ، وشأنهم مع كل نبىّ وشيعته جارٍ على هذا النهج ، فهم دائما يؤذون المؤمنين ويعادونهم ، ولم يرسل الله نبيا إلا لقى من قومه مثل ما لقى هؤلاء من أقوامهم .

والغرض من هذا كله تسلية النبي وصحبه ، وشد عزائمهم على التدرّع بالصبر ، وأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب الجنود : فرعون ، وثمود .

الإيضاح

(هل أتاك حديث الجنود) أى هل بلغك ما صدر من أولئك الجنود من التمادى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

والمعنى — إنه قد أتاك خبرهم وعرفت مافعلوا ، وما جازاهم ربهم به ، فذكّر قومك بأيام الله ، وأنذرهم أنه سيصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم من أهل الضلال .

ثم بيّن من هم أولئك الجنود فقال :

(فرعون وثمود) وحديث هذين مشهور متعارف بينهم ، فقد كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع كليم الله موسى من العناد والإصرار على الكفر ، وما كان من عاقبة أمره وأن الله أغرقه فى اليمّ هو وقومه ، وأذاقه الوبال فى الآخرة والأولى .

كما كانوا يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام وأنهم عقروا الناقة التى جعلها الله لهم آية ، فدمّر بلادهم وأهلكهم ولم يترك لهم من باقية ، وهم يمرّون على ديارهم فى أسفارهم و يسمعون أخبارهم .

وخلاصة ذلك — إن الكفار فى كل عصر متشابهون، وأنّ حالهم مع أنبيائهم لاتتغير ولا تتبدل ، فهم فى عنادهم واستكبارهم سواسية كأسنان المشط ، فقومك أيها الرسول ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد سبقتهم أمم قبلهم وحلّ بهم من النكال ماسيحل بقومك إن لم يؤمنوا ، « فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » .

وقد أشار إلى أن هذه شِنْشِنتهم فى كل عصر ومصر فقال :

(بل الذين كفروا فى تكذيب) أى إن الكفار فى كل عصر غارقون فى شهوة التكذيب حتى لم يدع ذلك لعقلهم مجالاً للنظر، ولا متسعا للتدبر، ولا يزالون فى غمرة حتى يؤخذوا على غرّة .

ثم سلى رسوله من وجه آخر فقال :

(والله من ورائهم محيط) أى إنه سبحانه مقتدر عليهم وهم فى قبضته لايجدون مهربا ، ولا يستطيعون الفرار ، إذا أرادوا .

فلا تجزع من تكذيبهم واستمرارهم على العناد ، فلن يفوتونى إذا أردت الانتقام منهم .

ثم رد على تماديهم فى تكذيب القرآن وادعائهم أنه أساطير الأولين فقال :

(بل هو قرآن مجيد. فى لوح محفوظ) أى إن هذا الذى كذبوا به كتاب شريف متفرد فى النظم والمعنى ، محفوظ من التحريف ، مصون من التغيير والتبديل .

واللوح المحفوظ شىء أخبرنا الله به ، وأنه أودعه كتابه ، ولكن لم يعرّفنا حقيقته ، فعلينا أن نؤمن به ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يأت به خبر من المعصوم صلوات الله عليه وسلامه .

مقاصد هذه السورة

(١) إظهار عظمة الله وجليل صفاته .

(٢) إنه يبيد الأمم الطاغية فى كل حين ، ولا سيما الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات .

سورة الطارق

هى مكية ، وآياتها سبع عشرة ، نزلت بعد سورة البلد .

مناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ابتدأ هذه بالحلف بالسماء كالسورة قبلها .

(٢) أنه ذكر فى السابقة تكذيب الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنه القول الفصل ، وفيه ردٌّ على أولئك المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ؟ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) .

شرح المفردات

السماء : كل ماعلاك فأظلك ، الطارق : هو الذى يجيئك ليلا ، النجم الثاقب : هو الذى يثقب ضوؤه الظلام كأن الظلام جلد أسود والنجم يثقبه ، حافظ : أى رقيب يراقبها فى أطوار وجودها ، وهو الله تعالى .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه فى مستهل هذه السورة بالسماء ونجومها الثاقبة ـ إن النفوس لم تُترك سدًى ولم ترسل مهملة ، بل قد تكفل بها من يحفظها ويحصى أعمالها وهو الله سبحانه.

وفى هذا وعيد للكافرين وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فكأنه يقول لهم : لاتحزنوا لإيذاء قومكم لكم ، ولا يضق صدركم لأعمالهم ، ولا تظنُنَّ أنا نهملهم ونتركهم سدى ، بل سنجازيهم على أعمالهم بما يستحقون ، لأنا نحصى عليهم أعمالهم

ونحاسبهم عليها ، يوم يعرضون علينا « فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » والعدّ إنما يكون للحساب والجزاء .

الإيضاح

(والسماء) أكثر فى القرآن الحلف بالسماء وبالشمس وبالقمر وبالليل ، لأن فى أحوالها وأشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها من عجائب وغرائب ـ دلائل لمن يتدبر ويتفكر بأن لها خالقا مدبرا يقوم بشئونها ويحصى أمرها ، لايشركه سواه فى هذا الإبداع والصنع .

(والطارق) أى الكوكب البادى ليلا .

(وما أدراك ما الطارق ؟) يقولون : وما أدراك ما كذا أى وأىّ شىء يعلمك حقيقته ؟ ، وهو أسلوب من كلامهم يراد به التفخيم والتعظيم ، كأنه فى فخامة أمره لايمكن الإحاطة به ولا إدراكه .

ثم فسر هذا الطارق بقوله :

(النجم الثاقب) أى لا أقسم بكل طارق من الكواكب ، بل أقسم بطارق معين هو النجم المضىء الذى يثقب الظلام ونهتدى به فى ظلمات البر والبحر ، ونقف به على أوقات الأمطار وغيرها من أحوال يحتاج إليها الإنسان فى معاشه ، وهو الثريا عند جمهرة العلماء ، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب لأن له ضوءا ثاقبا لامحالة .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إن كل نفس لمّا عليها حافظ) أى أحلف بالسماء وبالنجم الثاقب إن للنفوس رقيبا يحفظها ويدبر شئونها فى جميع أطوار وجودها حتى ينتهى أجلها ، وذلك الحافظ والرقيب هو ربها المدبر لشئونها ، المصرّف لأمورها فى معاشها ومعادها .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) .

شرح المفردات

دافق : أى منصبّ بدفع وسيلان وسرعة ، والصلب : الظهر ، والترائب : عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وقال الحسن وروى عن قتادة : يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما وهو الموافق لما أثبته العلم حديثا كما سيأتى ، ورجعه : أى إعادته ، تبلى : أى تختبر وتمتحن ؛ والمراد تظهر، والسرائر: مايسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وما خفى من الأعمال ، واحدها سريرة ، قال الأحوص :

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا سريرةُ ودٍّ يومَ تُبلى السرائرُ

المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه أن الإنسان لم يترك سدى ، ولم يخلق عبثا نبهه إلى الدليل الواضح على صحة معاده ، وأنه لابدأن يرجع إلى ربه ليجازيه على ماعمل ، فذكّره بنفسه ، ولفت نظره إلى كيفية خلقه ومنشئه ، وأنه خلق من الماء الدافق الذى لاتصوير فيه ، ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء وغيرها ، ثم أنشأه خلقا كاملا مملوءا بالحياة والعقل والإدراك ، قادرا على القيام بالخلافة فى الأرض .

فالذى خلقه على هذه الأوضاع قادر أن يعيده إلى الحياة فى يوم تتكشف فيه المستورات ، وتبين الخفايا ، فيكون إبداؤها زَيْناً فى وجوه بعض الناس ، وشيناً

فى وجوه بعض آخرين ، وليس للمرء حينئذ قوة يدفع بها عن نفسه مايحل به من العذاب ، ولا ناصر يعينه على الخلاص من الآلام .

الإيضاح

(فلينظر الإنسان مم خلق ؟) أى فلينظر بعقله ، وليتدبر فى مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه ، وأنه إذا قدر على إنشائه من موادّ لم تشمّ رائحة الحياة قط فهو على إعادته أقدر فليعمل بما به يُسَرّ حين الإعادة .

ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

(خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب) أى خلق من ماء مدفوق يخرج من الظهر والترائب لكل من الرجل والمرأة ، فهو إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع فى رحم المرأة .

والخلاصة — إن الولد يتكوّن من منىّ مدفوق من الرجل ، فيه جرثومة حية دقيقة لا ترى إلا بالآلة المعظمة (الميكرسكوب) ، ولا تزال تجرى حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة وهى البويضـة ، ومتى التقت الجرثومتان اتحدتا وكوّنتا جرثومة الجنين .

وقد استفتيتُ فى نظرية الحمل وكيفية تكوين الجنين النطاسى البارع عبد الحميد العرابى بك وكيل مستشفى الملك سابقا ، فأجابنى حفظه الله بما يأتى :

كيفية حصول الحمل ونموّ الجنين فى الرحم

قال الله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » وقال أيضا : « وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » .

اعلم أخى وفقك الله أن فى هاتين الآيتين وما شا كلهما من الآيات سرًّا من أسرار التنزيل ووجها من وجوه إعجازه ، إذ فيهما معرفة حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها و إثباتها ثلاثة عشر قرنا .

بيان هذا : أن صلب الإنسان هو عموده الفِقرى (سلسلة ظهره) وترائبه هى عظام صدره ، ويكاد معناها يقتصر على حافة الجدار الصدرى السفلى .

و إذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا فى منشأ خُصْية الرجل ومبيض المرأة مايفسر لنا هذه الآيات التى حيرت الألباب ، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى على قدر ما أوتى كل منهم من علم ، و إن كان بعيدا عن الفهم الصحيح والرأى السديد .

ذاك أنه فى الأسبوع السادس والسابع من حياة الجنين فى الرحم ينشأ فيه مايسمى (جسم وولف وقناة) على كل جانب من جانبى العمود الفِقرى ، ومن جزء من هذا تنشأ الكلى و بعض الجهاز البولى ، ومن جزء آخر تنشأ الُخصية فى الرجل والمبيض فى المرأة .

فكل من الُخصية والمبيض فى بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصُّلب والترائب ، أى مابين منتصف العمود الفِقرى تقريبا ومقابل أسفل الضلوع .

ومما يفسر لنا صحة هـذه النظرية أن الخصية والمبيض يعتمدان فى نموهما على الشريان الذى يمدها بالدم ، وهو يتفرع من الشريان الأوُرْطى فى مكان يقابل مستوى الكلى الذى يقع بين الصلب والترائب ، و يعتمدان على الأعصاب التى تمد كلا منهما وتتصل بالضفيرة الأورطية ثم بالعصب الصدرى العاشر ، وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادى عشر ، وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها فى الجسم فيما بين الصلب والترائب .

فإذا كانت الخصية والمبيض فى نشأتهما وفى إمدادهما بالدم الشريانى وفى ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا فى ذلك كله على مكان فى الجسم يقع بين الصلب

والترائب فقد استبان صدق مانطق به القرآن الكريم ، وجاء به رب العالمين ، ولم يكشفه العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب .

هذا ، وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ فى الهبوط إلى مكانه المعروف فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها فى الصَّفن ، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه فى الحوض بجوار بوق الرحم .

وقد يحدث فى بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه ، فتقف الخصية فى طريقها ولا تنزل إلى الصفن ، فتحتاج إلى عملية جراحية حتى تصل إلى وضعها فى الموضع الطبيعى .

هذا ، والإنسان يبدأ حياته جنينا ، والجنين يتكوّن من تلقيح بويضة تخرج من المبيض مندفقة نحو بوق الرحم بالحيوان المنوى الذى تفرزه خُصية الرجل ، ويكون التلقيح فى الغالب فى داخل أحد البوقين أو فيهما معا ، ثم تسير البويضة فى طريقها إلى الرحم حتى تستقر فى قرار مكين إلى أجل مسمى .

هذا إذا صادفها أحد الحيوانات المنوية ، أما إذا أخطأها التلقيح فتكون ضمن الإفرازات الرحمية التى تطرد فى خارج الجسم .

ومما يلاحظ أن إفراز البويضات عند المرأة هو عملية فسيولوجية شهرية لاعلاقة لها بالاجتماع الجنسى ، غير أن هذا الاجتماع ضرورى لعملية التلقيح بالحيوان المنوى الذى يسبح فى ماء الرجل .

ومما سبق تعلم أن الماء الدافق يكون من كل من الرجل والمرأة ؛ أما ماء الرجل فيتكون من الحيوانات المنوية وسوائل أخرى تفرزها الخصية والبروستاتة والحويصلات المنوية ، وهذه السوائل كلها جعلت مباءة ومستقرا للحيوان المنوى الذى بدونه لايتم التلقيح .

وهكذا الحال فى البويضات التى يفرزها مبيض المرأة ، فإنها بعد أن تكون فى المبيض على شكل حويصلة صغيرة تسمى حويصلة (جراف) تمو وتبلغ أشدها فى نحو شهر حتى تقترب من المبيض ثم تنفجر كما تنفجر الفقاعة وتندفع منها البويضات مع السائل الذى خرج من الفقاعة إلى البوق حيث يقابلها حيوان منوى يقوم بعملية التلقيح — وكلا الماءين ماء الرجل وماء المرأة دافق ، أى ينصبّ مندفعاً ، وهذا هو الحاصل فعلا .

ومن هذا يتبين بوضوح أن الإنسان خلق ونشأ من الماء الدافق (ماء الرجل وأهمّ مافيه الحيوان المنوى ؛ وماء المرأة وأهمّ مافيه البويضة) الذى ينصب مندفعاً من عضوين هما الخصية والمبيض ، ومنشؤهما وغذاؤهما وأعصابهما كلهابين الصلب والترائب .

وقد ثبت فى علم الأجنة أن البويضة ذات الخلية الواحدة تصير علقة ذات خلايا عدّة ، ثم تصير العلقة مضغة ذات خلايا أكثر عددا ، ثم تصير المضغة جنينا صغيراً وزعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة فى أول الأمر ، فإذا تمّ نموها كونت جسم الإنسان .

وإذا هدى الفكر إلى كل هذا فى مبدأ خلق الإنسان ، سهل أن نصدق بما جاء به الشرع وهو البعث فى اليوم الآخر ، لأن خلق الإنسان من أجزاء منتشرة متفرقة فى الكون ؛ فالماء متولد من الأطعمة التى يتناولها الإنسان ، فجمعها الله ، ثم جمع الأبوين ، ثم جمع ماءاهما فى مكان واحد ، ثم خلق منه الولد ، وليس فى إعادته مثل ذلك ، فهى أهون ، ومن ثم قال :

(إنه على رجعه لقادر) أى إن الذى قدر على خلق الإنسان ابتداء من هذه المادة — قادر أن يرده حيّا بعد أن يموت .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وأصرح منهما قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

ثم بيّن وقت الرجع فقال :

(يوم تبلى السرائر) أى هو قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة فى اليوم الذى تنكشف فيه السرائر، وتتضح الضمائر، ويتميز الطيب من الخبيث، فلا يبقى فى سريرة سرّ، بل تنقلب كل خفيّة إلى الجهر، ولا يكون جدال ولا حجاج، ولا يبقى لذوى الأعمال إلا انتظار الجزاء على ماقدموا، فإما حلول فى نعيم، وإما مصير إلى عذاب أليم.

(فما له من قوة ولا ناصر) أى فلا تكون لأحد قوة على الإفلات مما قدر له جزاء عمله إن كان مسيئاً، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم أن يقع عليه.

والخلاصة — إن القوة التى بها يدافع الإنسان عن نفسه، إما من ذاته وقد نفاها بقوله: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ» وإما من غيره وقد نفاها بقوله: «وَلاَ نَاصِرٍ».

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧).

شرح المفردات

الرجع: إعادة الشئ إلى حال أومكان كان فيه أوّلا، والمراد به المطر، وسمى بذلك لكونه يعاد إلى الأرض من السماء، والصدع: الشق الناشئ من تفرق بعض أجزاء الأرض وانفصال بعضها من بعض بالنبات، فصل: أى يفصل بين الحق والباطل، ويقطع الجدل والمراء، يكيدون كيدا: أى يعملون المكايد فى إبطال أمره، وإطفاء نوره، وأكيد كيداً: أى أقابلهم بكيدى فى إعلاء أمره، وانتشار نوره، رويدا: أى قريبا.

المعنى الجملى

بعد أن بين قدرته تعالى على إعادة الإنسان بعد الموت ، ولفت النظر إلى التدبر فى برهان هذه القدرة — شرع يثبت صحة رسالة رسوله الكريم إلى الناس ، وصحة ماياتيهم به من عند الله ، وأمّ ذلك القرآن الكريم الذى كانوا يقولون عنه : إنه أساطير الأولين ، فأقسم بالسماء التى تفيض بمائها ، والأرض التى تقيم أمور المعاش للناس والحيوان بنباتها ، إنه لقول حق لاريب فيه .

ثم بين أنه عليم بأن الذين يدافعون عن تلك الأباطيل التى هم عليها — قوم ماكرون لايريدون بك إلا السوء ، وسيأتيهم العذاب من حيث لايشعرون ، فلا يحزنك ماترى منهم ، ولا تستبطئْ حلول النكال بهم ، بل أمهلهم قليلا وسترى ماسيحل بهم .

ولا يخفى مافى هذا من وعيد شديد بأن ماسيصيبهم قريب ، سواء أكان فى الحياة الدنيا أوفيما بعد الموت ، ووعد للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكل داع إلى الحق بأنهم سيبلغون من النجاح مايستحقه عملهم ، وأن المناوئين لهم هم الخاسرون .

الإيضاح

(والسماء ذات الرجع) أى قسما بالسماء ذات المطر ، وهو أنفع شىء ينتظره المخاطبون من السماء ، إذ يبدّل جدبهم خصْبا ، ويعيد موات أرضهم حيّا ، ويصير به لهب صحرائهم هواء عليلا .

(والأرض ذات الصدع) أى والأرض التى تتصدع بالنبات والشجر والثمار مما به حياتهم وحياة أنعامهم ، وهم فى بلاد قفراء جدباء .

ونظير هذا قوله : « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا » الآية .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إنه لقول فصل. وماهو بالهزل) أى قسما بالسماء والأرض إن هذا القول الذى

جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول حق لامجال للريب فيه ، وهو جِدٌّ لاهزل فيه ؛ فمن حقه أن يهتدى به الغواة ، وتخضع له رقاب العُتاة .

أخرج الترمذى والدارمى عن على كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لاتزيغ فيه الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلَق على كثرة الردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن لما سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ » من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجِر ، ومن هدى به هدى إلى صراط مستقيم » .

ثم بين مايدبرونه للمؤمنين وماتحويه صدورهم من غِلٍّ لهم فقال :

(إنهم يكيدون كيدا) أى إنهم يمكرون بالناس بدعوتهم إلى مخالفة القرآن بإلقاء الشبهات كقولهم : « إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » . وقولهم : « مَنْ يُحْيِـى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ؟ » أو بالطعن فيه بكون الرسول ساحرا أو مجنونا أوشاعراً ، أو تبييتهم قتله ، كما جاء فى قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ » .

بعدئذ ذكر ماقابلهم ربهم به وما جازاهم عليه كفاء عملهم فقال :

(وأكيد كيدا) أى وأقابل كيدهم بنصر الرسول وإعلاء دينه ، وجعلِ كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقد سمى مجازاتهم كيداً منه ، للتجانس فى اللفظ كما قال : « نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » . وقال عمرو بن كلثوم :

ألاَ لا يجهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا

ثم أمر رسوله أن يتأنى عليهم ، ليرى أخذه تعالى لهم فقال :

(فمهل الكافرين) أى سر فى دعوتك ولا تستعجل عذابهم ، فإنا سنمهلهم ليزدادوا إثما ، حتى إذا أخذناهم لم يبق لهم من راحم .

ثم أكد طلب الإمهال وأقته بوقت قريب فقال :

(أمهلهم رويدا) أى إنا سنمهلهم قليلا ، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال .

وفى هذا بعث للطمأنينة إلى قلوب المؤمنين الذين كانوا يخشون صولة الكفار ويحذرون اعتداءاتهم التى لا حد لها ، وتخويف لهم من عاقبة إصرارهم على ما هم فيه من الكفر والمشاقة لله ورسوله وللمؤمنين .

ونحو الآية قوله : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

وصلِّ ربنا على محمد وآله ، وقنا عذاب الجحيم .

مقاصد السورة

(١) إن كل نفس عليها حافظ .

(٢) إقامة الأدلة على أن الله قادر على بعث الخلق كرة أخرى .

(٣) إن القرآن منزل من عند الله وأن محمداً رسول الله .

(٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالانتظار حتى يحل العقاب بالكافرين .

سورة الأعلى

هى مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة التكوير .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر فى تلك خلق الإنسان ، وأشار إلى خلق النبات بقوله : « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . وذكر هنا خلق الإنسان فى قوله : « خَلَقَ فَسَوَّى » . وخلق النبات فى قوله : «أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى» وقصة النبات هنا أوضح وبسط أكثر ، وخلق الإنسان هناك أكثر تفصيلا .

أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبوداود والترمذى عن النعمان بن بشير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى - وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً» .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

شرح المفردات

التسبيح : التنزيه ، خلق : أى خلق الكائنات ، فسوّى : أى فسواها ووضع خلقها على نظام كامل ، لاتفاوت فيه ولا اضطراب ، قدّر : أى قدّر لكل حى مايصلحه مدة بقائه ، فهدى : أى هداه وعرّفه وجه الانتفاع بما خلق له ، والمرعى : كل ماتخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع المختلفة ، والغُثاء : مايقذف به السيل إلى جانب الوادى من الحشيش والنبات ، والأحوى : الذى يضرب لونه إلى السواد . قال ذوالرمة :

لَمْيَاءُ فى شفتيها حُوَّةٌ لعَسٌ وفى اللِّثاتِ وفى أنيابها شَنَبُ

المعنى الجملى

أمر سبحانه رسوله أن ينزه اسمه عن كل ما لايليق به ، واسم الله مايعرف به، والله إنما يعرف بصفاته من نحو كونه عالما قادراً حكيما ، وهذا الاسم هو الذى يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام ، وهو المراد بالوجه فى قوله : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وهو المذكور فى قوله : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » أى علمه رسوم الأشياء وما تعرف به .

فالله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم أى تنزيهه عن أن نصفه بما لايليق به من شبه المخلوقات ، أو ظهوره فى واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكا أو ولدا له ، فلا تتجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق الكائنات وهو الذى أوجدها وسوّاها ، وأنه هو الذى أخرج المرعى ثم جعله جافًّا حتى لفظه السيل بجانب الوادى .

الإيضاح

(سبح اسم ربك الأعلى) أى نزه اسم ربك عن كل ما لايليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلا تذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولا تطلق اسمه على غيره زاعما أنه يشاركه فى صفاته .

ثم وصف ذلك الاسم الأعلى فقال :

(١) (الذى خلق فسوّى) أى الذى خلق الكائنات جميعا فسوى خلقها وجعلها منسقة محكمة ولم يأت بها متفاوتة غير ملتئمة ، دلالة على أنها صادرة عن عالم حكيم مدبّر أحسن تدبيرها ، فأحكم أسرها .

(٢) (والذى قدّر فهدى) أى والذى قدر كل واحد منها على مايستحقه ، ويكون به استقرار شأنه ، فقدر السموات وما فيها من الكواكب ، وقدر الأرض وما فيها من المعادن ، وما يظهر على وجهها من النبات ، ومايعيش عليها من الحيوان .

ثم هدى كل دابة إلى استعمال ما يصلحها ، وما هو أمسّ بحاجتها ، بما خلق فيها من الميول والإلهامات ، لتحصيل مالها من مقاصد وغايات .

(٣) (والذى أخرج المرعى) أى والذى أنبت النبات جميعه ، لترعاه الدوابّ والنَّعَم ، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان من الأجناس الحيّة .

(فجعله غثاء أحوى) أى فجعل هذا المرعى بعد أن كان أخضر هشيما باليا كالغثاء يميل لونه إلى السواد ، فهو القادر على إنبات العشب ، وعلى تبديل حاله ، لا الأصنام التى عبدها الكفرة الفجرة .

وقصارى ماسلف — إنا مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بأنه القادر العالم الحكيم الذى شهدت بصفاته آثاره فى خلقه ، وألا تُدخِل فى هذه الصفات ما لايليق به ، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء ، أو وصفوه بما به يشبه خلقه .

وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات ، ليرشدنا إلى أن مبلغ جهدنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن تتوجه إليها عقولنا إلا بما نلحظ من هذه الصفات بما يدل عليها .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) .

شرح المفردات

سنقرئك : أى نجعلك قارئا للقرآن ، فلا تنسى : أى فلا تنساه بل تحفظه ، واليسرى : أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بتسبيح اسمه ، وعلّم أمته المأمورة بأمر الله له ، كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذى تسبحه على نحو ماذكرنا ، ولا يكمل ذلك إلا بقراءة ماأنزل عليه من القرآن ، فكان هذا مدعاة إلى شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على حفظه ، ومن ثم وعده بأنه سيقرئه من كتابه مافيه تنزيهه ، وتبيين ما أوجب أن يُعرف من صفاته ، وأحكام شرائعه ، كما وعده بأنّ مايقرئه إياه لاينساه .

الإيضاح

(سنقرئك فلا تنسى) أى سننزل عليك كتابا تقرؤه ، ولا تنسى منه شيئا بعد نزوله عليك .

وقد كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر من تحريك لسانه مخافة أن ينساه ، فوُعد بأنه لاينساه .

ونحو الآية قوله : « وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ » وقوله : « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » .

وخلاصة ذلك — إنا سنشرح صدرك ، ونقوّى ذاكرتك ، حتى تحفظه بسماعه مرة واحدة ، ثم لاتنساه بعدها أبدا .

ولما كان هذا الوعد على سبيل التأبيد يوهم أن قدرته تعالى لاتسع تغييره جاء بالاستثناء فقال :

(إلا ماشاء الله) أى فإن أراد أن ينسيك شيئا لم يعجزه ذلك .

قال الفرّاء : إنه ماشاء أن ينسى محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا ، إلا أن القصد من هذا الاستثناء بيان أنه لو أراد أن يصيّره ناسيا لقدر على ذلك كما جاء فى قوله : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » .

وإنا لنقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك .

وقصارى هذا — إن فائدة هذا الاستثناء بيان أنه تعالى قادر على أن ينسيه ، وأن عدم النسيان فضل من الله وإحسان لامن قوّته .

ثم أكد هذا الوعد مع الاستثناء فقال :

(إنه يعلم الجهر وما يخفى) أى إن الذى وعدك بأنه سيقرئك ، وأنه سيجعلك حافظا لما تقرأ فلا تنساه — عالم بالجهر والسر ، فلا يفوته شىء مما فى نفسك ، وهو مالك قلبك وعقلك ، وخافى سرك وجهرك ، ففى مقدوره أن يحفظ عليك ماوهبك وإن كان من خفيات روحك ، ولو شاء لسلبه ولن تستطيع دفعه ، لأنه ليس فى قدرتك أن تخفى عنه شيئا .

ولما كان فى الوعد بالإقراء الوعد بتشريع الأحكام ، وفيها مايصعب على المخاطبين احتماله — أردف ذلك الوعد بما يزيده حلاوة فى النفوس فقال :

(ونيسرك لليسرى) أى ونوفقك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، ورحم الله البوصيرى حيث يقول :

لم يَمْتَحِنَّا بما تَعْيَا العقولُ به حرصًا علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِمِ

وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسَّر للفعل ، وليس الفعل هو الميسر للانسان ، من قِبَل أن الفعل لايحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة ، والإرادة النافذة لإيجاده ، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق التى توصل إليه ، كما جاء فى الحديث : « اعملوا ، فكل مُيَسَّرٌ لما خلق له » .

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (١٣) .

شرح المفردات

التذكر: أن يتنبه الإنسان إلى شىء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه ، ومن يخشى الله صنفان : مذعن معترف بالله وبعثه للعباد للثواب والعقاب ، ومتردد فى ذلك ، الأشقى: هو المعاند المصرّ على الجحد والإنكار، المتمكن من نفسه الكفر، يصلى النار أى يذوق حرها ، والنار الكبرى هى أسفل دركات الجحيم ، لايموت أى فيستريح ، ولا يحيا أى حياة طيبة فيسعد كما أشار إلى ذلك شاعرهم فقال :

ألا ما لنفسٍ لاتموت فينقضى   عَناها ولا تحيا حياةً لها طعْمُ

المعنى الجملى

بعد أن وعد سبحانه رسوله بذلك الفضل العظيم وهو حفظ القرآن وعدم نسيانه — أمره بتذكير عباده بما ينفعهم فى دينهم ودنياهم — وتنبيههم من غفلاتهم، وتوجيههم إلى مافيه الخير لهم ، وبين أن الذكرى لاتنجع إلا فى القلوب الخاشعة التي تخشى الله وتخاف عقابه ؛ أما القلوب الجاحدة المعاندة فلا تجدى فيها الذكرى شيئا ، فهوّن على نفسك ، ولا يحزُنْك جحدهم وعنادهم كما أشار إلى ذلك فى آية أخرى فقال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً » .

ثم ذكر أن أولئك الجحدة العصاة يكونون فى قعر جهنم لاهم يموتون ولا يسعدون بحياة طيبة .

الإيضاح

(فذكِّر إن نفعت الذكرى) أى فذكر الناس بما أوحينا به إليك ، واهدهم إلى ما فيه من بيان الأحكام الدينية ، فإن أصرّ المعاندون على عنادهم ولم يزدهم

وعظك إلا تماديا فى الجحود والإنكار « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » حرصا على إيمانهم ، وحزنا على بقائهم على كفرهم ، وادعُ من تعلم أنه يجيبك ولا يجبهك ولا يؤذيك ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(سيذكر من يخشى) أى إنما ينتفع بتذكيرك من يخشى الله و يخاف عقابه ، لأنه هو الذى يتأمل فى كل ماتذكره له ، فيتبين له وجه الصواب ، و يظهر له سبيل الحق الذى يجب المعوّل عليه .

وفى التعبير بقوله (سيذكر) إيماء إلى أن ماجاء به الرسول بلغ حدًّا من الوضوح لايحتاج معه إلا إلى التذكير فحسْبُ ، وإنما الذى يحول بينهم و بين اتباعه واقتفاء آثاره ـ تقليد الآباء والأجداد فكأنهم عرفوه واستيقنوا صحته ، ثم زالت هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آبائهم من قبل :

ثم أشار إلى عدم جدواها بالنظر للمعاندين الجاحدين فقال :

(و يتجنَّبها الأشقى. الذى يصلى النار الكبرى) أى و يبتعد عن هذه التذكرة المعاند المصرّ على الجحود عنادا واستكبارا ، وهو الذى يذوق حر النار الكبرى فى دركات جهنم كما قال : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » إذ لايليق بحكمة الحكيم المتعالى أن يسوّى بين من اجترأ عليه وتهاون بأمره وارتكب أشنع الذنوب ، ومن كان نقىّ الصحيفة ميمون النقيبة ، مطيعا لأمره ، مؤديا فرائضه ، منتهيا عن الفحشاء والمنكر .

وقصارى ماسلف — إن الناس بالنظر إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أقسام ثلاثة :

(١) عارف صحتها ، موقن بصدقها ، لايدور بخلده تردّد ولا شكّ ، وهذا هو المؤمن الكامل الذى يخشى ربه .

(٢) متردد متوقف إلى أن يقوم لديه البرهان ، فإذا هو سنح له بادر إلى التصديق بها ، وهذا أدنى من سابقه .

(٣) شقىّ معاند لا يلين قلبه للذكرى ، ولا تنال الدعوة من نفسه قبولا ، وهو شر الأقسام الثلاثة ، وأبعدها من الخير .

ثم بيّن عاقبة هذا الأشقى ومآل أمره فقال :

(ثم لا يموت فيها ولا يحيا) أى ومن شقى هذا الشقاء ، ولقى هذا العذاب بتلك النار ـ يخلد فيها ، ولا يقف عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية ، فلا هو يموت فيستريح ، ولا يحيا الحياة الطيبة فيسعد بها .

ونحو الآية قوله : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

والعرب تقول لمن هو مبتلى بمرض يقعده : لا هو حىٌّ فيرجى ، ولا ميْت فينْعَى .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) .

شرح المفردات

أفلح : أى فاز ونجا من العقاب ، وتزكى : أى تطهر من دنس الرذائل ؛ ورأسها جحد الحق وقسوة القلب ، وذكر اسم ربه : أى ذكر فى قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال ، فصلى : أى فخشع وخضعت نفسه لأوامر بارئه ، تؤثرون : أى تفضلون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر فى الدلائل التى تدل على وجود الله ووحدانيته وإرسال الرسل وعلى البعث والحساب ـ أتبعه بالوعد لمن زكى نفسه

وطهرها من أدران الشرك والتقليد للآباء والأجداد ـ بالفوز بالفلاح والظفر بالسعادة فى دنياه وآخرته .

ثم ذكر أن من طبيعة النفوس حبّ العاجلة ، وتفضيلها على الآجلة ، ولو فكروا قليلا لاستبان لهم أن الخير كل الخير فى تفضيل الثانية على الأولى ؛

ثم أرشد إلى أن أُسُسَ الدعوة الدينية فى كل الأديان واحدة ، فما فى القرآن هو ما فى صحف إبراهيم وموسى .

الإيضاح

(قد أفلح من تزكى) أى قد أدرك الفلاح ، وظفر بالبُغْية من طهر نفسه ونقاها من أوضار الكفر ، وأزال عنها أدران الشرك والآثام .

ومن هذا تعلم أن تزكية النفس إنما تكون بالإيمان بالله ونفى الشركاء ، والتصديق بكل ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم مع صالح العمل .

(وذكر اسم ربه فصلى) أى وأحضر فى قلبه صفات ربه من الجلال والكمال فخضع لجبروته وقهره ، فإن المرء متى تذكر ربه العظيم وجِل قلبه ، وخاف من سطوته وامتلأت نفسه خشية منه ، ورهبة لجلاله كما قال فى آية أخرى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » .

ثم رد سبحانه على قوم ممن قست قلوبهم ، ولم يأخذوا من العبادات إلا بصورها وظنوا أن ذلك هو غاية ما يطالب الله عباده بقوله :

(بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى) أى أنتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حسن العمل ، لأنكم لو كنتم صادقين فيما ذهبتم إليه لكنتم تفضلون الآخرة على الدنيا ، كما يرشد إلى ذلك العقل ، ويهدى إليه الشرع ؛ فمتاع الآخرة دائم ونعيمها لا يزول ، ولا تنغيص فيه ولا منّ ، ومتاع الدنيا متاع زائل تشوبه الأكدار ، وتحوط به الآلام ؛ فمن استعجل هذا النعيم ، واستحب زينة الدنيا

لايكون مصدّقا بالآخرة ونعيمها ، أو يكون إيمانه إيمانا لايجاوز طرف لسانه ، ولا يصل إلى قلبه ، فلا يجازى عليه الجزاء الذى وُعد به المؤمنون .

ثم بين أن الأصول العامة التى جاءت فى هذه الشريعة هى بعينها التى جاءت فى جميع الشرائع السماوية فقال :

(إنّ هذا لفى الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى) أى إن ما أوحى به إلى نبيه من أمر ونهى ووعد ووعيد هو بعينه ما جاء فى صحف إبراهيم وموسى ، فدين الله واحد ، وإنما تختلف صوره ، وتتعدد مظاهره ، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت إلا بما جاء فى صحفهم ، وإنما هو مذكر أو محى لما مات من شرائعهم .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » وقوله جل شأنه : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى » .

وقصارى ذلك — أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين ، وداعيا إلى وجهها الصحيح الذى أفسده كرّ الغداة ومر العشىّ ، كما طمس معالمه اتباع الأهواء ، واقتفاء سنن الآباء والأجداد .

اللهم وفقنا لسلوك دينك الحق ، واهدنا إلى صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

سورة الغاشية

هى مكية ، وآياتها ست وعشرون ، نزلت بعد سورة الذاريات .

ومناسبتها لما قبلها ـ أنه أشير فى السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالا ، و بسط الكلام فيها هنا .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لاَيُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِنْ جوعٍ (٧) .

شرح المفردات

الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها ، خاشعة : أى ذليلة : عاملة : أى وقع منها عمل فى الدنيا ، ناصبة : أى تعبة من قولهم نصب فلان بالكسر : أى تعب ، تصلى من قولهم صلى النار (بالكسر) أى قاسى حرها ، حامية : أى متناهية فى الحرّ من قولهم حميت النار إذا اشتد حرها ، والعين : ينبوع الماء ، والآنية الشديدة الحر ، والضريع : شجر ذو شوك لائط بالأرض ، فإذا كان رطبا سمى بالشِّبْرِق ، قال أبو ذؤيب الهذلى :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وصار ضريعا بان عنه النحائص

الإيضاح

(هل أتاك حديث الغاشية) أى هل بلغك نبأ يوم القيامة وعلمت قصصه ، و إننا سنعلمك شأنه الخطير .

وهذا أسلوب من الكلام لايراد منه حقيقة الاستفهام ، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد ، وتشويقه إلى استماعه ، وتوجيه فكره إلى أنه من الأحاديث التى من حقها أن تتناقلها الرواة ، ويحفظها الوعاة .

ثم فصل شأن أهل الموقف فى ذلك اليوم ، وذكر أن أهله فريقان : فريق الكفرة الفجرة . وفريق المؤمنين البررة ، وقد أشار إلى الأولين بقوله :

(١) (وجوه يومئذ خاشعة) أى وجوه يومئذ يظهر عليها الخزى والهوان مما ترى وتشاهد من الهول .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وقوله : « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » .

والخشوع والذل وإن كان فى الحقيقة لأرباب الوجوه ، نسب إلى الوجوه لما كان أثره يظهر عليها .

ثم وصف الوجوه بصفات أخرى فقال :

(عاملة ناصبة) أى إن هؤلاء الكفار كانوا فى حياتهم الدنيا يعملون ويجتهدون فى أعمالهم ، لكن لم يتقبلها ربهم ، لأنهم لم يقدموا عليها الإيمان بالله ورسوله ، وهو الدعامة الأولى فى قبول العمل عنده ، ولأنهم لم يقصدوا بها وجهه تعالى ، ولأنهم كانوا يجتهدون فى مشاقة الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا .

والخلاصة — إن هؤلاء الكفار وقع منهم فى الدنيا عمل ، وأصابهم فيه تعب ونصب ، لكنهم لم يستفيدوا منه شيئا ، فآثار الخيبة وحبوط العمل بادية على وجوههم .

ثم ذكر جزاءها فى هذا اليوم فقال :

(تصلى نارا حامية) أى هذه الوجوه تقاسى حر النار وتعذب بها ، لأن أعمالها

فى الدنيا كانت خاسرة ، غلبها الشر ، وجانبها الخير ، وهذه النار الحامية لانعرف كنهها ، ولـكن علينا أن نؤمن بها ، و بأن حلفاء الباطل يصلونها .

(تسقى من عين آنية) أى إن أهل النار إذا عطشوا فى تلك الدار وطلبوا ما يطفئ غُلَّتهم ، جيء لهم بماء من ينبوع بلغ من الحرارة غايتها ، فهو لايطفئ لهبا ، ولا ينقع غلّة .

و بعد أن ذكر شرابهم أردفه بوصف طعامهم فقال :

(ليس لهم طعام إلا من ضريع) أى إنهم إذا أحسوا بالجوع وطلبوا الطعام أُتىَ لهم بالضريع وهو ذلك المرعى السوء الذى لاتعقد عليـه السائمة شحما ولا لحما ، و إن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها ، والمراد بهذا كله أنه يؤتى لهم بردىء الطعام .

ثم وصف هذا الضريع بأنه لايجدى ولا يفيد فقال :

(لايسمن ولا يغنى من جوع) أى إن هذا الطعام لايدفع جوعا ، ولا يفيد سمنا ، فليس له فائدة الطعام التى لأجلها يؤكل فى الدنيا ، وقد سمى الله ذلك الطعام بالضريع تشبيها له به ، و إلا فذلك العالم ليس فيه نمو أبدان ولا تحلل موادّ على النحو الذى يكون فى الدنيا ، بل هو عالم خلود و بقاء ، واللذائذ فيه لذائذ سعادة ، والآلام آلام شقاء ، فكل ما فى ذلك العالم إنمـا يقع بينه و بين ما فى عالمنا نوع مشابهة ، لا اتفاق ولا مجانسة .

وقد جاء فى سورة الحاقة فى طعام الكافرين : « وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ » وفى سورة الواقعة : « ثُمَّ إِنَّـكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُـكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ » وفى سورة الدخان : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ » .

فهذا كله يدل على أن طعام النار شئ يوافق النشأة الآخرة ، عبر عنه بعبارات مختلفة ، ليصور فى أذهاننا بشاعته وخبثه ، لتنفر منه نفوسنا ، وتطلب كل وسيلة للفرار منه ، فتبتعد عن العقائد الفاسدة ، والأعمال الخاسرة .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)

شرح المفردات

ناعمة : أى ذات بهجة وحسن ، عالية : أى فى المكان ؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، واللاغية: اللغو والكذب والبهتان ، عين جارية: أى ينبوع ماء جار ، والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعا عن الأرض ، والأكواب : واحدها كوب وهو ما لا عروة له من الكيزان ، موضوعة : أى معدة ومهيأة للشراب ، والنمارق : واحدها نمرقة (بضم النون وكسرها) وهى الوسادة قال :

كهولٌ وشُبَّان حِسان وجوههم على سُرُرٍ مصفوفةٍ ونمارق

والزرابىّ : واحدها زربىّ (بكسر الزاى) وزربية وهو البساط ؛ وأصل الزرابى أنواع النبات إذا احمرت واصفرت وفيها خضرة ، ويقال أزرب النبات إذا صار كذلك ، سموا بها البسط لشبهها به ، ومبثوثة : أى مفرقة فى المجالس بحيث يرى فى كل مجلس شىء منها كما يرى فى بيوت ذوى الثراء .

الإيضاح

بعد أن وفى الكفرة الفجرة حقهم من الوصف ـ وصف أهل الإخلاص والصدق ، لتقرّ أعينهم بما سيلقون من فضله فقال :

(وجوه يومئذ ناعمة) أى ووجوه يومئذ ذات نضرة وبهجة كما قال : « تَعْرِفُ

فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » ولا تكون كذلك إلا إذا كانت منعمة فرحة بما لاقت جزاء سعيها فى الدنيا ورضى الله عنها ومن ثم قال :

(لسعيها راضية) أى إنهم جميعا يسعون فى العمل لله حين رأوا ثمرته وعاقبته الحسنى ، كالرجل يعمل العمل فيجزى عليـه الجميل ، ويظهر له منه عاقبة حميدة ، فيقول ما أحسن ما عملت ، ولقد وفقت إلى الصواب فيما فعلت .

و بعد أن وصف أهل الثواب وصف ديارهم بسبعة أوصاف فقال :

(ا) (فى جنـة عالية) أى عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض .

وقد يكون المراد منه العلوّ فى الدرجة ، لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض ؛ فالنعيم الذى يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين أعلى منزلة وأرفع قدرا مما يتمتع به الذين اتبعوهم بإحسان .

(ب) (لاتسمع فيها لاغية) أى إنها منزهة عن اللغو ، إذ أنها منزل جيران الله وأحبائه ، وقد نالوها بالجد والعمل لاباللغو ، ومنازل أهل الشرف فى الدنيا تكون مبرأة من اللغو والـكذب والبهتان ، فـكيف بأرفع المجالس فى جوار رب العالمين ، ومالك قلوب الخلق أجمعين .

(حـ) (فيها عين جارية) أى فى تلك الجنة ينبوع ماء جار ، والمياه الجارية من الينابيع تكون صافية ، وفى منظرها مسرة للنفوس ، وقرّة للعيون ، وقد افتخر بمثلها فرعون فقال : « أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى » .

(د) (فيها سرر مرفوعة) أى مرفوعة عالية إذا جلس عليها المؤمن رأى جميع ما أعطاه الله من النعيم ورأى من فى الجنة .

وفى ذلك من التشريف والتكريم ما لاخفاء فيه .

(ه) (وأكواب موضوعة) على حافات العيون كلما أرادوا الشرب وجدوها .

(و) (ونمارق مصفوفة) أى ووسائد مصفوف بعضها إلى جوانب بعض ، فإن شاءوا جلسوا عليها ، وإن أرادوا استندوا إليها ، وإن أحبوا أن يجلسوا على بعضها ويستندوا إلى بعض فعلوا .

(ز) (وزرابىّ مبثوثة) أى وبسط مبسوطة فى المجالس ، بحيث يرى فى كل مجلس من مجالسهم منها شىء ، كما يرى فى بيوت المترفين وذوى الثراء فى الدنيا .

وقد ذكر سبحانه كل ماسلف تصويرا لترف أهل الجنة تصويرا يقربه من عقولهم ، ويستطيعون به إدراكه وفهمه ، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو على الفكر ويعلو فوق متناول الإدراك ؛ فالأشياء التى عدّدها سبحانه تتشابه مع نظائرها التى فى هذه الحياة بأسمائها ، فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها ، كما أثر عن ابن عباس أنه قال : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) .

شرح المفردات

الإبل : واحدها بعير ولا واحد لها من لفظها كنساء وقوم ، ورفع السماء : إمساك ما فوقنا من شموس وأقمار ونجوم ، ونصب الجبال : إقامتها أعلاما للسائرين ، وملجأ للحائرين ، وسطح الأرض : تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها والمشى فى مناكبها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مجىء يوم القيامة ، وبين أن الناس حينئذ صنفان أشقياء وسعداء ؛ وأن الأشقياء يكونون فى غاية الذل والهوان ، وأن السعداء يكونون يومئذ مستبشرين بادية على وجوههم علائم المسرة — أعقب هذا بإقامة الحجة على الجاحدين المنكرين لذلك ، وتوجيه أنظارهم إلى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وما يقع تحت أبصارهم من سماء تُظِلّ ، وأرض تقلّ ، وإبل ينتفعون بها فى حِلّهم وترحالهم ، ويأكلون من لحومها وألبانها ويلبسون من أوبارها ؛ وجبال تهديهم فى تلك القيافى والقفار.

أخرج عبد بن حميد فى آخرين عن قتادة قال : لما نعت الله تعالى مافى الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

الإيضاح

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) أى أينكر هؤلاء المشركون ما ذكرنا من أمر البعث ومايتصل به من سعادة وشقاء ، ويستبعدون وقوعه ، ولا يتدبرون فى الإبل التى هى نُصْب أعينهم ، ويستعملونها فى كل حين ؟ ولو أنهم تدبروا فى خلقها لرأوا خَلقاً بديعاً لايشا كل خلق أكثر الحيوان ، فلها من عظم الجثة ، وشدة القوة ، وعظيم الصبر على الجوع والعطش مالا يشاركها فيه حيوان آخر — إلى أنها تحتمل المشاقّ ، وتنهض بالأوقار ، وتقطع شاسع المسافات ، حتى لقبوها: سفينة الصحراء . قال شاعرهم :

مافـــرّق الألاّ ف بعدَ الله إلا الإبلُ
وما غرابُ البَيْـــن إلا ناقةٌ أو جمل

إلى أنها تنقاد للصغير والكبير وتحمل أذاهما . قال العباس بن مرداس :

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غِـيَرٌ لديه ولا نكير

وتكتفى فى المرعى بما تيسر لها من الشوك والشجر ، إلى أنها أعجب ما عندهم وهم واقفون على أحوالها ، عالمون بطباعها .

وجاء الكلام بطريق الاستفهام ، إنكاراً عليهم ، وتوبيخاً لهم على جحد أمر البعث .

(وإلى السماء كيف رفعت) أى ألا يشاهدون السماء وقد رفعت رفعا سحيق المدى بغير عمد ؟ .

(وإلى الجبال كيف نصبت) أى وإلى الجبال كيف وضعت وضعاً ثابتا لاميَدان فيه ولا اضطراب ، فيتسنى ارتقاؤها فى كل حين ، وتجعل أمارة للسالكين فى تلك الفيافى والقفار ، وتنزل عليها المياه التى ينتفع بها فى سقى النبات ، ورِىّ الحيوان .

(وإلى الأرض كيف سطحت) ومهدت على مايقتضيه صلاح أمور ساكنيها ، وانتفاعهم بما فى ظاهرها من المنافع وما فى باطنها من المعادن .

وقصارى ماسلف — إنه لو نظر هؤلاء الجاحدون المعاندون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء وفكروا فيها ، لعلموا أنها صنعة لاتوجد إلا بموجد عظيم ، ولا تحفظ إلا بحافظ قدير ، ولأدركوا أن القادر على خلق هذه المخلوقات وسواها ، وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة — قادر على أن يُرجِع الناس فى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله ، وأن ينشئ النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريق إنشائها ، فلا ينبغى أن يكون جهلهم بكيفية يوم القيام سببا فى جحده وإنكاره .

وإنما خص هذه المخلوقات بالذكر ، لأن الناظر منهم يفكر فى أقرب الأشياء إليه ، فهو يرى بعيره الذى يمتطيه ، ثم إذا هو رفع رأسه فوقُ رأى السماء ، ثم إذا التفت يَمْنة أو يَسرة رأى ماحواليه من الجبال ؛ فإذا مدّ ناظريه أمامه أوتحته رأى الأرض ، فالعربى يرى ذلك كل يوم ، ومن ثَمّ أمره الله بالتدبر فيها .

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

شرح المفردات

فذكر : أى عظ قومك وابعثهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، بمسيطر : أى بمسلط تجبرهم على ماتريد ، إيابهم : أى رجوعهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دليل قدرته تعالى على بعث الأجساد ، ولفت أنظار الجاحدين إلى مظاهر قهره وغلبته لهذا العالم ، ثم وبخهم على إنكارهم وتماديهم فى باطلهم ، على وضوح الحجة وظهور البرهان، أردف ذلك أمره صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بهذه الأدلة وأشباهها مما لايبقى معه مجال للشك والتردد .

الإيضاح

(فذكر) بآياتى ، وعظهم بحججى ، و بلغهم رسالاتى ، وحذرهم أن يتركوا ذلك ؛ ثم بعدئذ لاتذهب نفسك عليهم حسرات إن لم يؤمنوا .

ثم علل الأمر بالتذكير فقال :

(إنما أنت مذكر) أى إنما بعثت للتذكير فحسب ؛ وليس من الواجب عليك أن يؤمنوا ؛ فما عليك إلا التبشير والتحذير ، فإن آمنوا فقد اهتدوا إلى ماتسوق إليه الفطرة ؛ و إن أعرضوا فقد تحكمت فيهم الغفلات ، وتغلبت عليهم الشهوات ؛ واستولت على عقولهم الأهواء والجهالات .

ثم أكد الإنذار وقرره بقوله :

(لست عليهم بمسيطر) أى لست عليهم بمسلط تجبرهم على ما تريد ، وتتعهد أحوالهم ، وتكتب أعمالهم ، فلم تؤتَ قوة الإكراه على الإيمان ، والإلجاء إلى ماتدعوهم إليه كما قال : « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟» وقال : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

(إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر) أى إنك وإن كنت داعياً وليس لك سلطان على مافى نفوسهم ، فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرائرهم ؛ فمن تول منهم وأعرض عن الذكرى ، وجحد الحق المعروض عليه ؛ فالله يعذبه العذاب الأكبر فى الآخرة ؛ وقد يضم إلى ذلك عذابا فى الدنيا من قتل أوسبى الذرية أوغنيمة للأموال ، إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التى ينزلها بهم .

ثم أكد تعذيب الله لمن تولى وكفر فقال :

(إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم) أى لامفرّ المعرضين ، ولاخلاص لهم من الويل الذى أوعدوا به ؛ فإنهم راجعون إلينا ، وقد حق القول منا فى عقابهم وسنحاسبهم على ما كسبت أيديهم .

وفى هذا تسلية لقلب رسوله ، وإزالة أحزانه وآلامه ، لتكذيبهم إياه ، وإصرارهم على معاندته .

وصلى الله على محمد وآله البررة الكرام .

مقاصد هذه السورة

تضمنت هذه السورة ثلاثة مقاصد :

(١) وصف أهل الجنة ووصف أهل النار .

(٢) ذكر عجائب الصنعة الإلهية .

(٣) أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتذكير بما أرسل إليه من الشرائع .

سورة الفجر

هى مكية ، وآياتها ثلاثون ، نزلت بعد سورة الليل .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ذكر فى تلك الوجوهَ الخاشعة والوجوهَ الناعمة ، وذكر فى هذه طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة .

(٢) أن القسم الذى فى أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ (٥) .

الإيضاح

(والفجر) الفجر هو الوقت الذى ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع كانتشار الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق ، وهو كقوله : « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » وقوله : « وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » .

(وليال عشر) هى عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، فيكون ضوء القمر فيها مطاردا لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حتى يسطع النهار ، ولا يزال الضوء منتشرا إلى الليل الذى بعده .

وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لايزال الليل يغالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على السكون حجبه ، وهذه الليالى العشر غير متعينة فى كل شهر ، فإن ضوء الهلال قد يظهر حتى تغلبه الظلمة فى أول ليلة من الشهر ، وقد يكون ضئيلا يغيب ضوؤه فى الشفق فلا يعدّ شيئا .

والخلاصة — إن الليالى العشر تارة تبتدئ من أول ليلة ، وأخرى من الليلة الثانية .

(والشفع والوتر) أى والزوج والفرد من هذه الليالى ؛ فهو سبحانه أقسم بالليالى جملة ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد .

و بعد أن أقسم بضروب من الضياء أقسم بالليل مرادا منه الظلمة فقال :

(والليل إذا يسر) أى والليل إذا يمضى و يذهب ، وهو كقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ » وقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ » .

ونعمة الله على عباده بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرهما بحسب الأزمنة والفصول ـ مما لايجحدها إلا مكابر ، لاجرم أقسم ربنا بهما تنبيها إلى أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم ، عالم بما فى ذلك من المصلحة لعباده .

أنظر إلى ما فى إقبال الصبح من عميم النفع ، فإنك لترى أنه يفرج كربة الليل و ينبه إلى استقبال العمل ، وكذلك تدرك ما فى الليالى المقمرة من فائدة ، فهى تستميل النفس إلى النُّقلة ، وتيسر للناس النُّجْعة ، وبخاصة فى أيام الحر الشديد فى بلاد كبلاد العرب .

وكذا نعرف ما فى الظلام من منفعة ، فإن فيه تهدأ النفوس ، وتسكن الخواطر وتستقر الجنوب فى مضاجعها ، لتستريح من عناء العمل ، وتستعين بالنوم على إعادة القوى ، وتختفى الناس من مطاردة اللصوص ، ولله در المتنبى حيث يقول :

وكم لظلام الليل عندكَ من يدٍ تُخَبِّر أنّ المانويّةَ تكذِبِ

ثم قرر فخامة الأشياء التى أقسم بها قبلُ ، وكونها أهلا لأن تعظَمَ فقال :

(هل فى ذلك قسم لذى حجر) الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) العقل ، ويقولون : فلان ذو حجر إذا كان قاهرا لنفسه ، ضابطا لها ، مضيّقا عليها .

والمراد أن من كان ذا لُبّ وعقل يفطن إلى أن فى القسم بهذه المخلوقات المشتملة على باهر الحكمة ، وعجيب الصنعة ، الدالة على وحدانية صانعها ـ مَقْنَعاً أيّما مقْنَع ، وكفايةً أعظم كفاية .

وجاء الكلام بصورة الاستفهام لتأكيد المقسم عليه وتقريره ، كما تقول لمن يحاجك فى أمر ثم تقيم له الحجة الناصعة التى تثبت ما تدّعى : هل فيما ذكرت لك كفاية ، ومرادك أنى قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها ، فلست تستطيع جحد ماقلت بعد هذا .

وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله بعد : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » الآية ، ويقدر بنحو قوله إن ناصية المكذبين بيدى ، ولئن أمهلتهم فلن أهملهم ، ولآخذنهم أخذ الأمم قبلهم ، وقد تُرِكَ لتسترسل نفس القارئ فى تأمل ما مضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما ، فيتمكن المعنى لديه فضل تمكن .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (٣٢) .

شرح المفردات

عاد : جيل من العرب البائدة يقولون إنه من ولد عوص بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام ، ويلقب أيضا بإرم ، وذات العماد : أى سكان الخيام ، وكانت منازلهم بالرمال والأحقاف إلى حضرموت .

وثمود : قبيلة من العرب البائدة كذلك وهى من ولد كاثر بن إرم بن سام ، ومنازلهم بالحِجْر بين الشام والحجاز ، جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه ، بالواد : أى الوادى الذى كانوا يسكنون فيه ، وفرعون : هو حاكم مصر الذى كان فى عهد موسى عليه السلام ، والأوتاد : المبانى العظيمة الثابتة ، والطغيان : تجاوز القدر فى الظلم والعتوّ ، وصب : أى أفرغ وألقى ، وسوط عذاب : أى أنواعا من العقوبات التى أنزلها عليهم جزاء طغيانهم . والمرصاد : هو المكان الذى يقوم فيه الرصد ، والرصد من يرصد الأمور : أى يترقبها ليقف على ما فيها من الخير والشر ، ويطلق أيضا على الحارس الذى يحرس ما يخشى عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم على مخالفة أوامره - شرع يذكر بعض قصص الأمم السالفة ممن عاندوا الله ورسوله ولجّوا فى طغيانهم فأوقع بهم شديد العذاب وأخذهم أخذ العزيز الجبار ، ليكون فى ذلك زجر لهؤلاء المكذبين ، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه ، وتطمين لقلوبهم بأن أعداءهم سيلقون ما يستحقون من الجزاء .

الإيضاح

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد ؟) أى ألم تعلم أيها الإنسان ، كيف أهلك ربك عادا الأولى الذين كانوا أشد الناس أجساما وأطولهم قامة ، وأرفعهم مكانة ، والذين لم يخلق فى البلاد كلها مدينة كمدينتهم .

(وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) أى وثمود الذين قطعوا الصخر ونحتوه وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة كما قال فى آية أخرى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ » .

وفى هذا دليل على ما أنعم الله به عليهم من القوة والعقل وحسن التدبير .

(وفرعون ذى الأوتاد) أى وفرعون ذى المبانى العظيمة التى شادها هو ومن قبله من فراعنة مصر فى قديم الأزمان كالأهرام وغيرها .

وما أجمل التعبير عما تركه المصريون من الأبنية الباقيـة بالأوتاد ، فإن شكل هياكلهم العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يبتدئ البناء عريضا وينتهى بأدق مما بدأ .

ثم وصف من سبق ذكرهم بأقبح الأوصاف فقال :

(الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد) أى هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم فى هضم حقوق الناس ، واغتروا بعَظِيم قدرتهم ، فكانوا سببا فى إفساد البلاد .

ذاك أن من اغتر بنفسه ، وتهاون بحقوق غيره واعتدى عليها ، وأخذ ماليس له ، ولم يعط الذى عليه ـ يكون قد فكك شمل الجماعة وأفسد فى البلاد ، فيختل نظام العُمران ، ويقف دولاب التعامل ، ويوجس كل امرئ خيفة من بنى جلدته ، ولا شك أن أمما هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار ، ومن ثم ذكر عاقبة أمرها فقال :

(فصبّ عليهم ربك سوط عذاب) أى فأنزل الله تعالى بهم ألوانا من البلاء ، وشديد العذاب .

وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب ، وماصبّه عليهم من ضروب الهلاك ـ بالسوط ، من قِبَل أن السوط يضرب به فى العقوبات ، والله يوقع العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط فى أوامر دينه .

ثم ذكر العلة فى تعذيبه لهم فقال :

(إن ربك لبالمرصاد) أى إن شأن ربك ألا يفوته من شئون عباده نقير

ولا قطمير ، ولايهمل أمة تعدّت فى أعمالها حدود شرائعه القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر ، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لايفرّط فيما رُصد له .

وقد أجمل الله فى هذه الآيات ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب ، وفصله فى غير موضع من كتابه الكريم ، فقال فى سورة الحاقة : « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً . فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » وقال : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً » .

والحكمة فى تكرار القصص فى القرآن الكريم ، وفى ذكر بعضها على طريق الإشارة فى بعض المواضع، وبالتفصيل فى بعض آخر ــ أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة على قدرته تعالى ، وتوحده فى ملكه ، وقهره لعباده حينا ، وترقيق قلوب المخاطبين حينا آخر ، وإنذار عباده وإعذارهم مرة ثالثة ؛ ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز لايكون لغيره .

وقد عرفت أن الغرض هنا تطييب خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الله سيمهل الكافرين ولا يهملهم ، وهو ليس بغافل عنهم ، وحينئذ تدرك أن الإشارة ــ إلى أن هذه الأمم أخذت وعذبت ولم تترك سدى ــ كافية جدَّ الكفاية لمن فكر وتدبر .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦).

شرح المفردات

ابتلاه : أى اختبره ببسط الرزق و إقتاره ، فأكرمه : أى صيره مكرما يرفل فى بحبوبة النعيم ، قدر عليه رزقه : أى صيره فقيرا مقتّرا عليه فى الرزق ، تقول قدرت عليه الشئ : أى ضيقته عليه ، وكأنك جعلته بقدر لايتجاوزه كما قال : « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه لايفوته من شأن عباده شئ ، وأنه يأخذ كل مذنب بذنبه ـ أردف ذلك ذكر شأن من شئون الإنسان ، و بين أنه لايهتم إلا بأمور الدنيا وشهواتها ، فإذا أنعم الله عليه وأوسع له فى الرزق ظن أنه قد اصطفاه ورفعه على من سواه وجنبه منازل العقوبة ، فيذهب مع هواه و يفعل ما يشتهى ، ولايبالى أكان ما يصنع خيرا أم شرا ، فيطغى و يفسد فى الأرض ، و إذا ضيق عليه الرزق (وقد يكون ذلك لتمحيص قلبه بالإخلاص أو لتظهر قوة صبره ، فإن الفقر لايزيد ذوى العزائم إلا شكرا) يقول ربى قد أهاننى ، ومن أهانه الله وصغرت قيمته لديه لم يكن له عناية بعمله ، فكيف يؤاخذه بما يصدر منه من شر ، أو يكافئه على ما يصنع من خير ، فلا شكره يكافأ بإحسان ، ولا كفره يجازى بعقوبة ، فينطلق يكسب عيشه بأى وسيلة عنّت له ، ولا تحجزه شريعة ، ولا يقف أمام قانون ، و يسلك سبيل الجبارين ، و يبخس الحقوق ، ويفسد نظم المجتمع ، ولا تزال أحوال الناس هكذا كما وصف الله ؛ فأرباب السلطان يظنون أنهم فى أمن من عقاب ربهم ولا يذكرونه إلا بألسنتهم ، ولا يُعرف له سلطان على قلوبهم ، والفقراء الأذلاء صغرت نفوسهم عند أنفسهم ، لايبالون ماذا يفعلون ؟ .

الإيضاح

(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن) أى إن الإنسان إذا أنعم الله عليه وأوسع له فى الرزق - زعم أن هذا الذى هو فيه من السعة - إكرام من الله له ، وخيّل إليه الوهم أن الله لايؤاخذه على ما يفعل ، فيطغى ويفسد فى الأرض .

(وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) أى وإن رأى أن رزقه لايأتيه إلا بقدَر ظن أن ذلك إهانة من الله له وإذلال لنفسه .

والإنسان فى الحالين مخطئ مرتكب أشنع وجوه الغفلة ، لأن إسباغ النعمة فى الدنيا على أحد لايدل على أنه مستحق لذلك ، ولو دل على هذا لما رأيت عاصيا موسعا عليه فى الرزق ، ولا شاهدت كافرا ينعم بصنوف النعم .

ولعل من حكمة الله فى بسط الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعض آخر - أن وجدان المال سبب للانغماس فى الشهوات ، وأنه قاطع عن الاتصال بالله ، وأن فقدانه وسيلة لتمحيص المرء وابتلائه ليكون من الصابرين الذين وعدوا بالجنة .

انظر إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يدعو به ربه من قوله : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » تدرك سر ذلك .

إلى أن من يمتحنهم الله بإسباغ النعمة عليهم يظنون أن الله قد اصطفاهم على عباده ورفعهم فوق سائر خلقه ، ثم لايزال بهم شيطان الغواية حتى يذهبوا مع أهوائهم كل مذهب ، ويسيروا فى طريق شهواتهم المهلكة إلى أبعد غاية ، لايرجعون إلى ربهم ، ولا يدركون أن ماعنده خير وأبقى .

كَلَّا بَلْ لَاتُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) .

شرح المفردات

ولا تحاضون : أى لايأمر بعضكم بعضا ، والتراث : الميراث ، لمًّا : أى شديدا ، جمًّا : أى كثيراً قال :

إن تغفر اللهمّ تغفر جمًّا   وأىُّ عبدٍ لك لا ألمَّا

المعنى الجملى

بعد أن بين خطأ الإنسان فيما يعتقد إذا بُسط له الرزق أو قُتِر عليه — أردف ذلك زجرهم عما يرتكبون من المنكرات ، وأبان لهم أنه لو كان غنيهم لم يُعْمه الطغيان ، وفقيرهم لم يطمس بصيرته الهوان ، وكانوا على الحال التى يرتقى إليها الإنسان — لشعرت نفوسهم بما عسى يقع فيه اليتيم من بؤس ، فعُنُوا بإكرامه فإن الذى يفقد أباه معرّض لفساد طبيعته إذا أهملت تربيته، ولم يهتم بما فيه العناية به ورفع منزلته ، ولو كانوا على ماتحدثهم به أنفسهم من الصلاح لوجدوا الشفقة تحرك قلوبهم إلى التعاون على طعام المسكين الذى لايجد مايقتات به مع العجز عن تحصيله، إلى أنهم يأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منهم ، ويشتدون فى أكله حتى يحرموا صاحب الحق حقه ، ويزداد حبهم للمال إلى غير غاية .

وصفوة القول — إن شرههم فى المال ، وقَرَمهم إلى اللذات ، وانصرافهم إلى التمتع بها ، ثم قسوة قلوبهم إلى ألا يألموا إلى ماتجر إليه الاستهانة بشئون اليتامى من فساد أخلاقهم ، وتعطيل قواهم ، وانتشار العدوى منهم إلى معاشريهم ، فينتشر

الداء فى جسم الأمة — دليل على أن مايزعمون من اعتقادهم بالله يأمرهم وينهاهم ، وأن لهم دينا يعظهم ، زعم باطل ، وإذا غشُّوا أنفسهم وادَّعَوْا أنهم يتذكرون الزواجر ، ويراعون الأوامر ، فذلك مقال تكذبه الفِعال .

الإيضاح

(كلا) أى لم أبتل الإنسان بالغنى لكرامته عندى ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علىّ ، فالكرامة والإهانة لايدوران مع المال سعة وقلة ، فقد أوسّع على الكافر لا لكرامته ، وأضيّقُ على المؤمن لا لهوانه ، وإنما أكرم المرء بطاعته ، وأهينه بمعصيته ، وقد أوسع على المرء بالمال لأختبره أيشكر أم يكفر ؟ وأضيق عليه لأختبره أيصبر أم يضجر ؟

ثم انتقل وترق من ذمهم بقبيح الأقوال إلى النعى عليهم بقبيح الأفعال فقال :

(بل لاتكرمون اليتيم) أى بل لكم أفعال وأحوال شر من أقوالكم تدل على تهالككم على المال ، فقد يكرمكم الله بالمال الكثير فلا تؤدون مايلزمكم فيه من إكرام اليتيم وبره والإحسان إليه ، وقد جاء فى الحديث الحث على ذلك ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم : « أحب البيوت بيت فيه يتيم مُكْرَم » وورد أيضا : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام .

قال مقاتل : أنزلت الآية فى قُدامة بن مظعون وكان يتيما فى حجر أمية ابن خَلَف .

(ولا تحاضون على طعام المسكين) أى ولا يحث بعضكم بعضا على إطعامه وإصلاح شأنه ، وإذا لم تكرموا اليتيم ولم يوص بعضكم بعضا باطعام المسكين فقد كذبت مزاعمكم فى أنكم قوم صالحون .

وإنما ذكر التحاضّ على الطعام ولم يكتف بالإطعام ، فيقول ولم تطعموا

المسكين — ليبين أن أفراد الأمة متكافلون ، وأنه يجب أن يوصى بعضهم بعضا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع التزام كلٍّ بفعل مايأمر به أو ينهى عنه .

ثم بين أن إهمالهم أمر اليتيم ، وخلوّ قلبهم من الرحمة بالمسكين لم يكونا زهدا فى لذائذ الحياة وتخلصا من متاعبها ، وعكوفا على شئون أنفسهم ، بل جاء من محبتهم المال فقال :

(وتأكلون التراث أكلاً لمًّا) أى إنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم أكلا شديداً ، فتحولون بينه وبين من يستحقه ، وتجمعون بين نصيبكم منه ونصيب غيركم .

(وتحبون المال حبا جما) أى وتميلون إلى جمع المال ميلا شديدا ، ميراثا كان أو غيره .

وخلاصة ذلك — أنتم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، إذ لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة ، لانصرفتم عما يترك الموتى ميراثا لأيتامهم ، ولكنكم تشاركونهم فيه ، وتأخذون شيئا لا كسب لكم فيه ، ولا مدخل لكم فى تحصيله وجمعه ، ولو كنتم ممن استحبوا الآخرة لما ضَريت نفوسكم على المال تأخذونه من حيث وجدتموه ، من حلال أو من حرام .

فهذه أدلة ترشد إلى أنكم لستم على ما ادعيتم من صلاح وإصلاح ، وأنكم على ملة إبراهيم خليل الرحمن .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ؟ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) .

شرح المفردات

الدكّ : حط المرتفع بالبسط والتسوية ؛ ومنه اندكّ سنام البعير إذا انغرس فى ظهره ، دكا دكا : أى دكا بعد دك : أى كرّر عليها الدك وتتابع حتى صارت كالصخرة الملساء ، صفا صفا : أى صفا بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم فى الفضل ، وجىء يومئذ بجهنم : أى كشفت للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، وأنى له الذكرى ؟ أى ومن أين له فائدة التذكر وقد فات الأوان ، والوثاق : الشدّ والربط بالسلاسل والأغلال .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم أقوالهم وادعاءهم أن الغنى إكرام لهم ، وأن الفقر إهانة لهم ، ونعى عليهم أفعالهم من حرصهم على الدنيا واستفراغ الجَهد فى تحصيلها ، وتكالبهم على جمعها من حلال وحرام ــ أردفه بيان أن مايزعمونه من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلائها بحب المال والميل إلى الشهوات ــ زعم لاحقيقة له ، وإنما يتذكرون ربهم فى ذلك اليوم العظيم حين يشهدون الهول ، ويُعْوِزُهم الحَوْل ، ويظهر لهم مكانهم من النكال والوبال ، ولكن هذه الذكرى قد فات أوانها ، وانتهى إِبَّانُها ، فإن الدار دار جزاء لادار أعمال ، فلا يبقى فيها لأولئك الخاسرين إلا الحسرة والندامة ، وقول قائلهم : « لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى » ويكون لهم من العذاب مالا يقدر قدره ، ومن الإهانة مايجل عن التشبيه والتمثيل .

الإيضاح

(كلا) زجر لهم وإنكار لأقوالهم وأفعالهم ؛ أى لاينبغى أن يكون هذا شأنهم فى الحرص على الدنيا من حيث تتهيأ لهم سواء كانت من حلال أو حرام ، وكأنهم يتوهمون أن لاحساب ولا جزاء ، وسيأتى يوم يندمون فيه أشد الندم ،

ولـكن لاتنفعهم الندامة ، ويتمنون لوكانوا أفنوا حياتهم فى التقرب إلى ربهم بصالح الأعمال .

ثم بين ذلك اليوم ووصفه بأوصاف ثلاثة فقال :

(١) (إذا دكت الأرض دكا دكاً) أى إذا دكت الأرض دكا بعد دك ، وتتابع عليها ذلك حتى صارت كالصخرة الملساء ، وذهب كل ماعلى وجهها من جبال وأبنية وقصور .

(٢) (وجاء ربك والملك صفّا صفّا) أى وتجلت لأهل الموقف السطوة الإلٰهية ، كما تتجلى أُبّهة المُلْك للأعين إذا جاء الملِك فى جيوشه ومواكبه ، ولله المثل الأعلى .

(٣) (وجىء يومئذ بجهنم) أى وكشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم .

ونحو الآية قوله : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى » أى أُظهرت حتى رآها الخلق وعاينوها ، وليس المراد أنها نقلت من مكانها إلى مكان آخر .

(يومئذ يتذكر الإنسان) أى حينئذ تذهب الغفلة ، ويتذكر المرء ما كان قد فرّط فيه ، وعرف أن ما كان فيه كان ضلالا ، وأنه كان يجب أن يكون على حال خير ممـا كان عليها .

ثم بين أن هذه الذكرى لافائدة منها فقال :

(وأنّى له الذكرى) أى ومن أين لهذه الذكرى فائدة ، أو ترجع إليه بعائدة ؛ وقد فات الأوان ، وحُمَّ القضاء .

والخلاصة — إنه إذا حدثت هذه الأحداث انكشفت عن الإنسان الحُجُب ، ووضح له ما كان عليه ، وذهبت عنه الغفلة ، وإذ ذاك يتمنى أن يعود ليعمل صالحا ، ولـكن أنى له ذلك ؟ .

ثم بين تذكره بقوله :

(يقول يا ليتنى قدمت لحياتى) أى يتمنى أن يكون قـد عمل صالحا ينفعه فى حياته الأخروية التى هى الحياة الحقيقية .

ثم بين مآله وعاقبة أمره فقال :

(فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) أى فيومئذ لا يصاب أحد بعذاب مثل ذلك العذاب الذى يصيب ذلك الإنسان الذى أبطره الغنى فجحد نعمة الله عليه ، أو أفسده الفقر حتى عثا فى الأرض فسادا ، ولا يوثق أحد من الخلائق وثاقا مثل هذا الوثاق الذى يوثقه ذلك الإنسان .

ولا يخفى مافى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ، ووجدان يشعر .

يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِى فِى عِبَادِى (٢٩) وَادْخُلِى جَنَّتِى (٣٠) .

شرح المفردات

المطمئنة : من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات ، إلى ربك : أى إلى ثوابه وموقف كرامته ، فى عبادى : أى فى زمرة عبادى المكرمين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال الإنسان الذى خُلِّى وطبعه ، فاستولى عليه جشعه وحرصه على رغباته وشهواته ، حتى خرجت عن سلطان الحكمة والعقل ، ثم ذكر عاقبة أمره فى الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الإنسان الذى ارتقى عن ذلك الطبع وسمت نفسه إلى مراتب الكمال ، فاطمأنّ إلى معرفة خالقه ، واستعلى برغائبه إلى المطامح الروحية ، ورغب عن اللذات الجسمانية ، فكان فى الغنى شاكرا لا يتناول إلا حقه ، وفى الفقر صابرا لا يمد يده إلى ما لغيره ، وبين أنه فى ذلك اليوم يكون بجوار ربه راضيا بعمله فى الدنيا ، مرضيا عنده ، يدخله فى زمرة الصالحين المكرمين من عباده .

الإيضاح

(يأيتها النفس المطمئنة) أى يأيتها النفس التى قد استيقنتِ الحق ، فلا يخالجها شك ، ووقفت عند حدود الشرع ، فلا تزعزعها الشهوات ، ولا تضطرب بها الرغبات .

(ارجعى إلى ربك راضية مرضية) أى ارجعى إلى محل الكرامة بجوار ربك ، راضيةً عما عملتِ فى الدنيا ، مرضيا عنك ، إذ لم تكونى ساخطة لا فى الغنى ولا فى الفقر ، ولم تتجاوزى حدود الشرع فيما لك من حق وما عليك من واجب .

ثم ذكر جميل عاقبتها فقال :

(فادخلى فى عبادى) أى فادخلى فى زمرة عبادى المكرمين ، وانتظمى فى سلكهم ، وكونى فى جملتهم ، فالنفوس القدسية كالمرايا المتقابلة ، يشرق بعضها على بعض ، وكأنها تربّى فى هذه الدنيا بالآلام وتزين بالمعارف والعلوم ، حتى إذا فارقت الأبدان جعلت فى أماكن متقاربة ، بينها صفاء ومودة ، وحسن صلة ومحبة .

(وادخلى جنتى) فتمتعى فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

اللهم اجعلنا من النفوس المطمئنة ، الراضية المرضية ، وأدخلنا فى جنتك مع المتقين ، من الأنبياء والشهداء والصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على مقاصد ستة :

(١) القسم على أن عذاب الكافرين لا محيص منه .

(٢) ضرب المثل بالأمم البائدة كعاد وثمود .

(٣) كثرة النعم على عبد ليست دليلا على إكرام الله له ، ولا البلاء دليلا على إهانته وخذلانه .

(٤) وصف يوم القيامة وما فيه من أهوال .

(٥) تمنى الأشقياء العودة إلى الدنيا .

(٦) كرامة النفوس الراضية المرضية ، وما تلقاه من النعيم بجوار ربها .

سورة البلد

هى مكية ، وآياتها عشرون ، نزلت بعد سورة ق .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ذم فى الأولى من أحب المال وأكل التراث ولم يحض على طعام المسكين ، وذكر هنا الخصال التى تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، والإطعام فى يوم المسغبة .

(٢) ذكر هناك حال النفس المطمئنة ، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) .

شرح المفردات

البلد : مكة ، حِلّ : أى حالّ مقيم فيه ، ووالد وما ولد : أى وأىّ والد وأىّ مولود من الإنسان والحيوان والنبات ، والكبد : المشقة والتعب ، قال لبيد يرثى أخاه أربد :

يا عينُ هل رأيتِ أرْبَدَ إذ قُمْنَا وقام الخصوم فى كَبَد

الإيضاح

(لا أقسم بهذا البلد) تقدّم أن قلنا إن مثل هذا التعبير قسم مؤكد فى كلام العرب ، وقد أقسم ربنا بمكة التى شرفها فجعلها حرما آمنا ، وجعل فيها البيت الحرام مثابة للناس يرجعون إليه ويعاودون زيارته كلما دعاهم إليه الشوق ، وجعل فيه الكعبة قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجه إليها فى الصلوات التى تكرر كل يوم فقال : « وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

(وأنت حلّ بهذا البلد) أى وأنت مقيم بهذا البلد حالّ فيه ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب شرف مكة وعظمتها كونه صلى الله عليه وسلم مقيما فيه ، ولا شك أن الأمكنة تشرف بشرف ساكنيها ، والنازلين بها .

وأتى بهذه الجملة ليفيد أن مكة جليلة القدر فى كل حال حتى فى الحال التى لم يراع أهلها فى معاملتك تلك الحرمة التى خصها الله بها .

وفى هذا إيقاظ وتنبيه لهم من غفلتهم ، وتقريع على حط منزلة بلدهم .

(ووالد وما ولد) أى وكل والد وكل مولود من الإنسان وغيره .

وفى القسم بهذا لفت لأنظارنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود وهو طور التوالد ، وإلى مافيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى مايعانيه كل من الوالد والمولود فى إبداء النشء ، وتبليغ الناشئ وإبلاغه حده من النمو المقدّر له .

انظر إلى البذرة فى أطوار نموها ، كم تعانى من اختلاف الأجواء ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد لأن تلد بذرة أو بذوراً أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها .

وأمر الإنسان والحيوان فى ذلك أعجب وأعظم ، والتعب والعناء الذى يلاقيه كل منهما فى سبيل حفظ نوعه ، واستبقاء جمال الكون بوجوده أشد وأكبر .

ثم ذكر المحلوف عليه فقال :

(لقد خلقنا الإنسان فى كبد) أى إنه تعالى جعل حياة الإنسان سلسلة متصلة الجهاد ، مبتدئة بالمشقة ، منتهية بها ؛ فهو لايزال يقاسى من ضروبها مايقاسى منذ نشأته فى بطن أمه إلى أن يصير رجلا ، وكلما كبر ازدادت أتعابه وآلامه ، فهو يحتاج إلى تحصيل أرزاقه وتربية أولاده ، وإلى مقارعة الخطوب والنوازل ، ومصابرة النفس على الطاعة والخضوع للواحد المعبود ، ثم بعد هذا كله يمرض ويموت ، ويلاقى فى قبره وفى آخرته من المشاقّ والمتاعب ، ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه .

والسر فى التنبيه إلى أن الإنسان قد خلق فى عناء — الرغبة فى تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحضه على عمل الخير والمثابرة عليه ، وألا يعبأ بما يلاقيه من الشدائد والمشاقّ ، وأن ذلك لايخلو منه إنسان .

إلى مافيه من تنبيه المغرورين الذين يشعرون بالقوة فى أنفسهم ، ويظنون أنهم بها يستطيعون مصارعة الأقران ؛ وكأنه يقول لهم : لاتتمادوا فى غروركم ، ولا تستمروا على صلَفِكم وكبريائكم ، فإن الإنسان لايخلو من العناء فى تصريف شئونه وشئون ذويه ، ومهما عظمت منزلته ، وقويت شكيمته ؛ فهو لايستطيع الخلاص من مشاق الحياة .

وقد جمع سبحانه بين البلد المعظم والوالد والولد ، ليشير إلى أن مكة على مابها من عمل أهلها ستلد مولوداً عظيما يكون إكليلا لمجد النوع الإنسانى وشرفه ، وهو دين الإسلام الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وأن العناء الذى يلاقيه إنما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده ، والمولود فى بلوغ الغاية فى سبيل نموه ؛ إلى ما فيه من الوعد بإتمام نوره ولو كره الكافرون .

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) .

شرح المفردات

أيحسب : أى أيظن ، أهلكت : أى أنفقت ، لبداً : أى كثيرا ، والنجد : الطريق المرتفعة ؛ والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لاينبغى للمفتونين بقوة أبدانهم ، المغرورين بواسع جاههم ، أن يتمادوا فى صلفهم وكبريائهم — شرع يوبخهم على الاغترار بقوتهم الزائلة ؛ ويذكرهم بما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة الحسية والعقلية .

روى أن قوله : « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟ » نزل فى أبى الأشد أسيد بن كلدة الجمحى ، وكان مغترا بقوته البدنية ؛ وأن قوله : « يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا » نزل فى الحرث بن نوفل وكان يقول : أهلكت مالا لبدا فى الكفارات منذ أطعت محمدا .

وسواء أكانت هذه الآيات نزلت فى هؤلاء أم فى غيرهم فان معناها عام كما علمت .

الإيضاح

(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟) أى أيظن ذلك المغترّ بقوته ، المفتون بما أنعمنا به عليه — أنه مهما عظمت حاله ، وقوى سلطانه ، يبلغ منزلة لايقدر عليه فيها

أحد ؟ ما أجهله إذا ظن ذلك ، فان فى الوجود قوة فوق جميع القوى هى المهيمنة على كل قوة ، والمسيطرة على كل قدرة ، وهى القوّة التى أبدعته ، والقدرة التى أنشأته .

ثم ذكر صنفا آخر من الأغنياء البخلاء المرائين فقال :

(يقول أهلكت مالا لبداً) أى إنهم إذا طلب إليهم أن يعملوا عملا من أعمال البر قالوا : إننا ننفق الكثير من أموالنا فى المفاخر والمكارم ، ولم يعلموا أن المكرمة ماعدّه الله مكرمة ، والبرّ ما اعتبره الله برا ، فليس من البر إنفاقهم المال فى مشاقة الله ورسوله ، ولا إنفاقهم طائل الأموال فى الصدّ عن سبيل الله ، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله .

(أيحسب أن لم يره أحد) أى أيظن ذلك المغتر بماله ، المدعى أنه أنفقه فى سبيل الخير — أن الله لم يطلع على أفعاله ؛ ولم يعلم مادعاه إلى الإنفاق ؟ إنه لاينبغى له أن يظن ذلك ، فإن البارئ له مطلع على قرارة نفسه ، عالم بخبيئات قلبه ، لايعزب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، عليم بأنه لم ينفق شيئا من ماله فى سبيل الخير المشروع والبر المحمود ، وإنما أنفق ما أنفق للرياء والسمعة ، أو لمشاقة الله ورسوله ، أوفى وجوه أخرى يظنها خيرا وهى خسران وضلال مبين .

وبعد أن أنكر على هؤلاء اغترارهم بقوتهم وكثرة أموالهم — شرع يذكر آثار قدرته الغالبة ، ليبين لهم أن هناك قوة لها من الآثار ماهم يشاهدون فقال :

(ألم نجعل له عينين) فهو إذا أبصر شيئا فانما يكون ذلك بما خلقنا له من العينين ، فهذه النعمة التى يعتز بها إنما هى من عملنا .

(ولسانا وشفتين) فاذا أبان عما فى نفسه ، فانما يبين بما وهبنا له من لدنا من تلك الجارحة التى يتكلم بها ، فإذا غرّه حديثه ، أوقوة حجته ، فليس فضل ذلك راجعا إليه ، وإنما الفضل لمن وهبه ذلك .

(وهديناه النجدين) أى وأودعنا فى فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر ، وجعلنا له من العقل والفكر ما يكون مذكرا ومنبها ، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير ؛ وأرشدناه إلى ما فى الشر من هنوات وعيوب ، ثم أقدرناه على أن يسلك أىّ الطريقين شاء ، بعد أن آتيناه قوة التمييز ، والقدرة على الاختيار والترجيح ، ليسلك الطريق التى أراد منهما .

فليكن نَجْدُ الخير أحبَّ إلى أحدكم من نجد الشر ؛ فمن نازعته نفسه واتجهت إلى نجد الشر فليقمعها بالنظر فى آيات الله ، والتدبر فى دلائله ، ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوجّ يهوى بصاحبه إلى طريق الردى ، ويوقعه فى المهالك .

وإنما سماها الله نجدين ، للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عاليين يراهما ذوو الأبصار ، وإلى أن فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها .

وفى ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير ، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تُقطع إلى النهاية ، وتوصِّل إلى الغاية .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠) .

شرح المفردات

اقتحم الشيء : دخل فيه بشدة ، والعقبة : الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها ؛ والمراد بها مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسوّل له فعل الشر من شياطين الإنس والجن ، وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه ، والمسغبة : الجوع ، يقال سغب الرجل يسغَب إذا جاع ، والمقربة : القرابة فى النسب ، تقول فلان من ذوى قرابتى ومن أهل مقربتى إذا كان قريبك نسبا ، والمتربة : الفقر ؛ تقول ترِب الرجل إذا افتقر ، وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب ، تواصوا بالصبر : أى نصح بعضهم بعضا به ، والميمنة : طريق النجاة والسعادة ، والمشأمة : طريق الشقاء ، مؤصدة : أى مطبقة عليهم من آصدت الباب ، أى أغلقته ، قال :

تحنّ إلى أجبال مكة ناقتى ومن دونها أبوابُ صنعاء مُوصدَهْ

المعنى الجملى

بعد أن وبّخ سبحانه هؤلاء المرائين الذين ينفقون أموالهم طلبا للشهرة ، وحبًّا فى حسن الأحدوثة ، وأنّبهم على افتخارهم بما صنعوا مع خلوّ بواطنهم من حسن النية ، وبين لهم أن أفضل مايتمتعون به من البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر ، والنفع والضر هو منه سبحانه ، وهو القادر على سلبه منهم — أردفه بيان أنه كان عليهم أن يشكروا تلك النعم ، ويختاروا طريق الخير ، ويرجحوا سبيل السعادة ، فيفيضوا على الناس بشيء مما أفاض به عليهم؛ وأفضل ذلك أن يعينوا على تحرير الأرقاء من البشر ، أو يواسوا الأيتام من أقاربهم حين العوز وعزة الطعام ، أو يطعموا المساكين الذين لاوسيلة لهم إلى كسب مايقيمون به أودهم لضعفهم وعجزهم ؛ ثم هم مع ذلك يكونون صحيحى الإيمان ، صبورين على أذى الناس ، وعلى مايصيبهم من المكاره فى سبيل الدعوة إلى الحق ، رحماء بعباده ، مواسين لهم حين الشدائد .

هذه هى الطريق التى كان من حق العقل أن يرشد إليها ؛ لكن الإنسان قد خدعه غروره فلم يقتحم هذه العقبة ، ولم يسلك هذه السبيل القويمة ، ولم يسر فيما يرشد إليه العقل السليم .

الإيضاح

(فلا اقتحم العقبة) أى فهلا جاهد النفس والشيطان وعمل أعمال البر ؛ وقد ضرب الله العقبة مثلا لهذا الجهاد ، لأن الإنسان يريد أن يرقى من عالم الحس عالم الأشباح إلى عالم الأنوار والأرواح ، و بينه و بين ذلك عقبات من ورائها عقبات ، وسبيل الوصول إلى غايته هذه هى فعل الخيرات .

ثم فخم شأن العقبة وعظم أمرها فقال :

(وما أدراك ما العقبة) أى وأىّ شئ أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ .

ثم أرشد إلى أن اقتحامها يكون بفعل صنوف من الخير منها :

(١) (فك رقبة) أى عتق الرقبة أوالإعانة عليها ؛ وقد ورد فى الكتاب الكريم والسنة الترغيب فى العتق والحث عليه .

روى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله دلّنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال : عتق النسَمة وفك الرقبة ، قال يارسول الله أوليسا واحدا ؟ قال لا : عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها » .

والكلام بتقدير مضاف : أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ، فك رقبة ، لأن فك الرقبة ليس هو العقبة نفسها ، وإنما هو اقتحامها لأنه سبب موصل إلى مجاوزة العقبة والوصول إلى عالم الأنوار .

(٢) (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذامقربة) أى أو إطعام يتيم من أقاربه فى أيام الجوع والعوز .

وفى هذا جمع بين حقين : حق اليتيم وحق القرابة .

(٣) (أو مسكينا ذا متربة) أى أو إطعام المسكين الذى لاوسيلة له إلى كسب المال لضعفه وعجزه .

(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) أى ثم كان مع اقتحامه العقبة من صادقى الإيمان الذين يصبرون على الأذى وما يصيبهم من المكاره فى سبيل الدفاع عن الحق ، ويرحمون عباد الله ويواسونهم ويساعدونهم حين البأساء .

وإنما اشترط الإيمان مع فعل هذه المبارّ ، لأن من فعلها دون أن يكون مؤمنا لم ينتفع بها ، ولم يكن له ثواب عليها ، إذ لاينفع مع الكفر برّ .

ثم بيّن مآل فاعلى هذه المبرات فقال :

(أولئك هم أصحاب الميمنة) أى أولئك الذين اقتحموا العقبة ففكوا الرقاب ، وأطعموا المساكين ، وواسوا ذوى القربى فى يوم المسغبة هم السعداء المتمتعون بجنات النعيم ، وهم الذين عناهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » .

ثم ذكر مقابل هؤلاء وهم الذين صدوا عن سبيل الله ، وتواصوا بالإثم وتواصوا بالعدوان ومعصية الرسول فقال :

(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) أى والذين جحدوا آياتنا الكونية وآياتنا السمعية التى جاءت على ألسنة الرسل كالقرآن وغيره من الكتب السماوية هم أصحاب المشأمة ، أى أهل الشمال الذين وصفهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَابَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » .

(عليهم نار مؤصدة) أى عليهم نار تطبق عليهم فلا يستطيعون الفكاك منها ولا الخلاص من عذابها . نجانا الله منها بمنه وكرمه ، وجعلنا من أصحاب الميمنة .

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على خمسة مقاصد :

(١) ما ابتلى به الإنسان فى الدنيا من النصب والتعب .

(٢) اغترار الإنسان بقوته .

(٣) نكران النعم التى أنعم الله بها عليه من العينين واللسان والعقل والفكر .

(٤) سبل النجاة الموصلة إلى السعادة .

(٥) كفران الآيات سبيل الشقاء .

ســـورة الشمس

هى مكية ، وآياتها خمس عشرة ، نزلت بعد سورة القدر .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه سبحانه ختم السورة السابقة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، وأعاد ذكر الفريقين فى هذه السورة بقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(٢) ختم السورة السالفة بشىء من أحوال الكفار فى الآخرة ، وختم هذه بشىء من أحوالهم فى الدنيا .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) .

شرح المفردات

ضحى الشمس : ضوؤها ، تلاها : أى تبعها؛ يقال تلا فلان فلاناً يتلوه إذا تبعه، وجلاها : أى كشف الشمس وأتم وضوحها ، يغشاها : أى يزيل ضوءها ويحجبه، والسماء : كل ما ارتفع فوق رأسك، والمراد به هذا الكون الذى فوقك وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التى تجرى فى مجاريها ، بناها : أى رفعها ، وجعل كل

كوكب من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة تحيط بك، وطحا الأرض: بسطها وجعلها فراشا ، سوّاها : أى ركب فيها القوى الظاهرة والباطنة ، وجعل لكل منها وظيفة تؤديها ، ألهمها : عرّفها ومكّنها ، والفجور : ما يكون سببا فى الخسران والهَلَكة ، والتقوى : إتيان ما يحفظ النفس من سوء العاقبة ، أفلح : أى أصاب الفلاح ؛ وهو إدراك المطلوب ، وزكاها : أى طهرها من أدناس الذنوب ، وخاب : أى خسر ، ودسّاها : أى أنقصها وأخفاها بالذنوب والمعاصى قال :

ودسَسْتُ عمْرا فى التراب فأصبحت حـــــلائله منه أراملَ ضُيَّعا

الإيضاح

(والشمس وضحاها) أقسم سبحانه بالشمس نفسها غابت أو ظهرت ، لأنها خلْق عظيم يدل على قدرة مبدعها ، وأقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة فى كل حى ، فلولاها ما أبصرتَ حيًّا ولا رأيت ناميا ، ولولاها ما وجد الضياء ولا انتشر النور ، وإذا أرسلت خيوطها الذهبية على مكان فرّ منه السقم ، وولت جيوش الأمراض هاربة ، لأنها تفتك بها فتكا ذريعا .

(والقمر إذا تلاها) أى والقمر إذا تلا الشمس فى الليالى البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة وقت امتلائه أو قربه من الامتلاء حين يضىء الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر .

وهذا قسم بالضوء فى طور آخر ، وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

وقد يكون المراد — بتلاها أى تبعها فى كل وقت ، لأن نوره مستمد من نور الشمس فهو لذلك يتبعها ، وقد قال بهذا الفرّاء قديما وأثبته علماء الفلك حديثا .

(والنهار إذا جلاها) أى والنهار إذا جلّى الشمس وأظهرها وأتمّ وضوحها ، إذ كلما كان النهار أجلى ظهورا كانت الشمس أكمل وضوحا .

وأقسم بهذه المخلوقات ، للإشارة إلى تعظيم أمر الضوء وإعظام أمر النعمة فيه ، وفيه لفت لأذهاننا إلى أنه آية من آيات ربنا الكبرى ، ونعمة من نعمه العظمى .

وفى قوله . جلاها بيان للحال التى يكشف فيها النهار تلك الحكمة البالغة ، والآية الباهرة .

وبعد أن أقسم بالضياء فى أطوار مختلفة أقسم بالليل فى حال واحدة فقال :

(والليل إذا يغشاها) أى والليل إذا يغشى الشمس فيزيل ضوءها فى الليالى الحالكة التى لا أثر لضوء الشمس فيها ، لامباشرة كما فى النهار ، ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها ، وهى قليلة فإنها ليلة أو ليلتان أو بعض ليال فى الشهر .

وفى هذا إيماء إلى أن الليل يطرأ على هذا الكوكب العظيم فيذهب ضوءه ، ويحيل نور العالم ظلاما فهو على جليل نفعه وعظيم فائدته ، لايتخذ إلها لأن الإله لايحول ولا يزول ، ولا يعتريه تغير ولا أفول .

وفيه ردع وتأنيب للمشركين على تأليهه وعبادته .

وبعد أن ذكر الأوصاف الدالة على عظمة هذه الأجرام — أردفه ذكر صفات تدل على حدوثها فقال :

(والسماء وما بناها) أى والسماء ومن قدّرها على النحو الذى اقتضته مشيئته وحكمته .

وفى ذكر البنيان إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة ، وأن لها صانعا حكيما قد أحكم وضعها وأجاد تقديرها ، فإنه شد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها حتى يتماسك .

ولما كان الخطاب موجها إلى قوم لايعرفون الله بجليل صفاته ، وكان القصد منه أن ينظروا فى هذا الكون نظرة من يطلب للأثر مؤثرا ، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى — عبر عن نفسه بلفظ (ما) التى هى الغاية فى الإبهام .

(والأرض وما طحاها) أى والأرض والذى بسطها ومهدها للسكنى ، وجعل الناس ينتفعون بما على ظهرها من نبات وحيوان ، وبما فى باطنها من مختلف المعادن.

ونحو الآية قوله : « الَّذِى جَعَلَ لَـكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » .

وقصارى ماسلف — إنه بعد أن أقسم سبحانه بالضياء والظلمة ، أقسم بالسماء وما فيها من الكواكب وبالذى بناها وجعلها مصدرا للضياء ، وبالأرض والذى جعلها لنا فراشا ومصدرا للظلمة ، فإنها هى التى يحجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن بعضها الآخر فيظهر فيه الظلام .

ثم أقسم بعد هذا بالنفس الإنسانية لما لها من شرف فى هذا الوجود فقال :

(ونفس وما سواها) أى قسما بالنفس ومن سواها وركب فيها قواها الباطنة والظاهرة ، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها ، وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى .

ثم بين أثر هذه التسوية فقال :

(فألهمها فجورها وتقواها) أى فألهم كل نفس الفجور والتقوى وعرفها حالهما ، بحيث تميز الرشد من الغىّ ، ويتبين لها الهدى من الضلال ، وجعل ذلك معروفا لأولى البصائر .

وبعد أن ذكر أنه ألهم النفوس معرفة الخير والشر ذكر ماتلقاه جزاء على كل منهما فقال :

(قد أفلح من زكاها) أى قد ربح وفاز من زكى نفسه ونمّاها حتى بلغت غاية ما هى مستعدة له من الكمال العقلى والعملى ، حتى تثمر بذلك الثمر الطيب لها ولمن حولها .

(وقدخاب من دساها) أى وخسر نفسه وأوقعها فى التهلُكة من نقصها حقها بفعل المعاصى ومجانبة البر والقربات ، فإن من سلك سبيل الشر ، وطاوع داعى

الشهوة فقد فعل ما تفعل البهائم ، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التى اختص بها الإنسان ، واندرج فى عداد الحيوان .

ولا شك أنه لا خيبة أعظم ، ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذى يجلبه الشخص لنفسه بسوء أعماله .

والمحلوف عليه الذى افتتحت به السورة – محذوف للعلم به من نظائره ، وكأنه قيل : « والشَّمْسِ وَضُحَاهَا . . . » لينزلنّ بالمكذبين منكم مثل ما نزل بثمود إذ كذبت نبيّها فأصابها العذاب ، ودليل ذلك قوله بعد : « كَذَّبَتْ ثَمُود بِطَغْوَاهَا » الآيات ، فإنها ترشد إلى أن الله يعاقب من يكذب رسله ، نحو ما سبق فى سورة البروج .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) .

شرح المفردات

الطغوى والطغيان : مجاوزة الحد المعتاد ، انبعث : أى قام بعقر الناقة ، أشقاها : أى أشقى ثمود وهو قُدَارُ بن سالف ، رسول الله : هو صالح عليه السلام ، ناقة الله : أى احذروا التعرض لناقة الله ، وسقياها : أى شِرْبها الذى اختصها به فى يومها ، فعقروها : أى فنحروها ، فدمدم : أى فأطبق عليهم العذاب ، يقال : دمدم عليه القبر : أى أطبقه عليه ، فسواها : أى فسوى القبيلة فى العقوبة فلم يفلت منها أحد ، عقباها : أى عاقبة الدمدمة وتبعتها .

المعنى الجملى

جرت عادة القرآن أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسلهم وما قابلوهم به من التكذيب والإيذاء ، ثم يذكر ما جرت به سنته سبحانه من الإيقاع بالمكذبين ، وأخذهم بظلمهم وبما عملوا مع أنبيائهم ، ليكون فى ذلك سلوة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يلق إلا ما لقى إخوانه الأنبياء ، ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوا ، وليكون فى ذلك تخويف لأولئك المكذبين الذين يعاندون رسول الله ويلحفون فى تكذيبه ، بأنهم إذا استمروا على ذلك حاق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة ونالوا من الجزاء مثل ما نالوا .

الإيضاح

(كذبت ثمود بطغواها) أى كذبت ثمود نبيّها صالحا بسبب طغيانها وبغيها .

ثم بين أمارة ذلك التكذيب فقال :

(إذ انبعث أشقاها) أى كان انطلاق الأشقى لعقر الناقة والقوم راضون عنه علامة ظاهرة على تكذيبهم لنبيهم الذى جعلها دليل نبوته ، وبرهانا على صدق رسالته ، وأوعدهم إذا هم تعرضوا لها ، وسكوتُ قومه على ما يفعل دليل رضاهم عن فعله ، فكانوا مكذبين مثله .

ثم ذكر ماتوعدهم به الرسول على فعلهم فقال :

(فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسقياها) أى فقال لهم صالح : احذروا ناقة الله التى جعلها آية نبوّتى ، واحذروا شِرْبها الذى اختُصَّتْ به فى يومها ، فلا تؤذوها ولا تتعدوا عليها فى شِرْبها ولا فى يوم شُرْبها ، وكان صالح عليه السلام قد اتفق معهم على أن للناقة شِرْب يوم ، ولهم ولمواشيهم شِرْبُ يوم ، فكانوا يجدون فى أنفسهم حرجا لذلك ويتضررون منه ، فهمّوا بقتلها فحذّرهم أن يفعلوا ذلك ،

وخوّفهم عذاب الله وعقابه الذى ينزله بهم إن هم أقدموا على هذا الفعل ، لكنهم كذبوه ولم يستمعوا النصحه كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فكذبوه فعقروها) أى إنهم لم يتورّعوا عن تكذيبه ، ولم يحجموا عن عقر الناقة ، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب .

وقد تقدم أن قلنا : إنهم لما رضوا بهذا الفعل نسب إليهم جميعا ، وكأنهم صنعوه معه .

ثم بين عاقبة عملهم وذكر ما يستحقونه من الجزاء فقال :

(فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) أى فأطبق عليهم العذاب ، وأهلكهم هلاك استئصال ولم يبق منهم ديّارا ولا نافخ نار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فسواها) أى فسوّى القبيلة فى العقوبة ولم يفلت منها أحد ، بل أخذ بها كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأنثاهم : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ » .

وقد يكون المعنى — جعل الأرض فوقهم مستوية كأن لم تُثَر ، ودمّر مساكنها على ساكنيها .

(ولا يخاف عقباها) أى إن الله أهلكهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم ، لأنه لم يظلمهم فيخيفه الحق ، وليس هو بالضعيف حتى يناله منهم مكروه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

والمراد أنه بالغ فى عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية ، فإن من يخاف العاقبة لا يبالغ فى الفعل ، أما الذى لا يخاف العاقبة ولا تبعة العمل فإنه يبالغ فيه ليصل إلى ما يريد .

وقد علمت أن القصص مسوق لتسلية رسوله بأنه سينزل بالمكذبين به مثل ما أنزل بثمود ، ولقد صدق الله وعده ، فأهلك من أهلك من أهل مكة فى وقعة

بدر بأيدى المؤمنين ، ثم لم يزل يحل بهم الخزى والعذاب بالقتل تارة و بالإبعاد أخرى حتى لم يبق فى جزيرة العرب مكذّب ، ولو سارت الدعوة إلى الإسلام سيرتها فى عهد الصحابة لما بقى فى الأرض مكذب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على مقصدين :

(١) الإقسام بالمخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز ، وأن من أغواها ونقصها حقها بجهالته وفسوقه فقد خاب .

(٢) ذكر ثمود مثلا لمن دسى نفسه فاستحق عقاب الله الذى هو له أهل .

سورة الليـــل

هى مكية ، وآياتها إحدى وعشرون ، نزلت بعد سورة الأعلى .

ومناسبتها لما قبلها ـ أنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم ، وخيبة المدسّين لها وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح وما تحصل فيه الخيبة ، فهى كالتفصيل لسابقتها .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) .

شرح المفردات

يغشى : أى يغطى كل شئ فيواريه بظلامه ، تجلى : أى ظهر وانكشف بظهوره كل شئ، وما خلق : أى والذى خلق ، وشتى : واحدها شتيت، وهو المتباعد بعضه من بعض .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما أقسم بأن سعى البشر مختلف ، فأقسم :

(١) بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مستقره ، ويسكن عن الاضطراب إذ يغشاه النوم الذى فيه راحة لبدنه وجسمه .

(٢) بالنهار الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وفيه تغدو الطير من أوكارها وتخرج الهوامّ من أجحارها .

(٣) بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى وميّز بين الجنسين مع أن المادة

التى تكوّنا منها واحدة ، والمحل الذى تكوّنا فيه واحد ، وفى ذلك دليل على تمام العلم وعظيم القدرة كما قال : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ » .

الإيضاح

(والليل إذا يغشى) أى قسما بالليل حين يغشى الأشياء ويواريها فى ظلامه ، ويكون فيه مستراح للناس من أعمالهم ، بما يشملهم من النوم والهدوء .

(والنهار إذا تجلى) بزوال ظلمة الليل ، فيتحرك الإنسان والحيوان ، طلبا لمعاشهما ، وبهذا يظهر وجه المصلحة فى اختلافهما ، إذ لو كان الدهر كله ليلا لتعذر المعاش على الناس ، ولو كان كله نهارا لبطلت المصلحة ، فكان فى تعاقبهما آية بالغة يستدل بها على علم الصانع وحكمته ، اقرأ إن شئت قوله : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً » .

(وما خلق الذكر والأنثى) أى قسما بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى من ماء واحد .

وفى هذا دليل على أنه عليم جدّ العلم بدقائق المادة وما فيها ، إذ لا يعقل أن يكون هذا التخالف بين الذكر والأنثى فى الحيوان بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ، فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة فيهما ، فحدوث هذا التخالف فى الجنين دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، حكيم فيما يصنع ويضع .

وقصارى ما سلف — إن بعض الماء يكون تارة سببا للحمل ، وأخرى يكون غير مستعدّ للتلقيح ، والأول يكون من بعضه الذكران ، ومن بعضه الإناث .

سبحانه ما أعظم قدرته ، وأجلّ حكمته ، لا إله إلا هو الفعال لما يريد .

ثم ذكر المحلوف عليه فقال :

(إن سعيكم لشتى) أي إن أعمالكم أيها الناس لمتباعدة متفرقة ، بعضها ضلال وعماية ، و بعضها هدى ونور ، و بعضها يستحق النعيم ، و بعضها يستحق العذاب الأليم كما قال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقال : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) .

شرح المفردات

أعطى : أي بذل ماله ، واتقى : أي ابتعد عن الشر وإيصال الأذى إلى الناس ، بالحسنى : أي بالخصلة الحسنى التي هي أفضل من غيرها ، لليسرى : أي للخصلة التي تؤدى إلى يسر وراحة بتمتعه بالنعيم ، استغنى أي عدّ نفسه غنيا عما عند الناس بما لديه من مال ، فلا يجد في قلبه راحة لضعفائهم ببذل المال والمعونة لهم ، بالحسنى : أي بالفضيلة و بأنها ركن من أركان الاجتماع ، للعسرى : أي الخصلة التي تؤديه إلى العسر ، و يقال تردى فلان من الجبل إذا هوى من أعلاه وسقط إلى أسفله .

المعنى الجملي

بعد أن أشار إلى اختلاف أعمال الناس في أنواعها وصفاتها ، والجزاء الذي يعود على فاعلها ــ أخذ يفصل هذا الاختلاف ، و يبين عاقبة كل عمل منها .

الإيضاح

(فأما من أعطى واتقى) أى فأما من أعطى المال وأنفقه فى وجوه الخير ، سواء كان واجبا عليه أم لا كالصدقات والنوافل كفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم ، وابتعد عن كل ما لا ينبغى ، فحمى نفسه عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وخاف من إيصال الأذى إلى الناس .

(وصدق بالحسنى) أى وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ، ونحو ذلك مما هو مركوز فى طبيعة الإنسان ، وهو مصدر الصالحات وأفعال البر والخير .

ولا يكون تصديقا حقا ، ولا ينظر الله إليه إلا إذا صدر عنه الأثر الذى لا ينفك عنه وهو بذل المال ، واتقاء مفاسد الأعمال .

وكثير من الناس يظن نفسه مصدّقا بفضل الخير على الشر ؛ ولكن هذا التصديق يكون سرابا فى النفس ، خيّله الوهم ، لأنه لا يصدر عنه ما يليق به من الأثر ، فتراه قاسى القلب ، بعيدا عن الحق ، بخيلا فى الخير ، مسرفا فى الشر .

ثم ذكر جزاءه على ذلك فقال :

(فسنيسره لليسرى) أى فسنهيئه لأيسر الخطتين وأسهلهما فى أصل الفطرة ، وهو تكميل النفس إلى أن تبلغ المقام الذى تجد فيه سعادتها ؛ فالإنسان إنما يمتاز عن غيره من الحيوان بالتفكير فى الأعمال ووزنها بنتائجها .

فإذا حصل ذلك وظهرت آثاره فيها سهل الله له ما هو مسوق إليه بأصل فطرته .

وفاعل الخير للخير يجد أريحيّة فى نفسه ، ويذوق لذة لا تعدلها لذة ، فتزيد فيه رغبته ، وتشتد لفعله عزيمته ؛ وهذا هو التيسير الإلهى الذى يوفق الله له الصالحين من عباده .

(وأما من بخل واستغنى) أى وأما من أمسك ماله أو أنفقه فى شهواته ، ولم ينفقه فيما يقرب من ربه ، وخدعته ثروته وجاهه ، فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد ولا يحس

بأنه واحد من الناس يصيبه ما أصابهم من السوء .

(وكذب بالحسنى) أى وكذب بأن الله يخلف على المنفقين فى سبيله ، فبخل بماله ولم ينفق إلا فيما يلذ له ويمتعه فى حاضره ولا يبالى بما غدا ذلك .

ويدخل فى المكذبين بالحسنى أولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم ، ولا يظهر أثرها فى أعمالهم .

(فسنيسره للعسرى) أى ومن مرنت نفسه على الشر وتعودت الخبث ، فيسهل الله له الخطة العسرى ، وهى الخطة التى يحط بها قدر نفسه ، وينزل بها إلى حضيض الآثام ويغمسها فى أوحال الخطيئة .

(وما يغنى عنه ماله إذا تردّى) أى وإذا يسرناه للعسرى فأىّ شىء يغنى عنه ماله الذى بخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة ، ولم يصحب منه شيئا إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره كما قال : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) .

شرح المفردات

تلظى : أصله تتلظى ، أى تتوقد وتلتهب ، يقال : تلظت النار تلظيا بمعنى التهبت التهابا ومنه سميت النار لظى ، يصلاها : أى يحترق بها ، كذب : أى كذب

الرسول فيما جاء به عن ربه ، وتولى : أى أعرض عن طاعة ربه ، وسيجنبها : أى يبعد عنها ويصير منها على جانب ، والأتقى : المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الشديد التحرز منهما ، يتزكى : أى يتطهر ، تُجزى : أى تجازى وتكافأ ، ابتغاء وجه ربه : أى طلب مثوبته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن سعى الخلائق مختلف فى نفسه وعاقبته ، وأرشد إلى أن المحسن فى عمله يوفقه الله إلى أعمال البر ، وأن المسىء فيه يسهل له الخذلان — أردفه أنه قد أعذر إلى عباده بتقديم البيان الذى تنكشف معه أعمال الخير والشر جميعا، ووضح السبيل أمام كل سالك ، فإن شاء سلك سبيل الخير فسلم وسعد ، وإن أراد ذهب فى طريق الشر فتردّى فى الهاوية .

روى أن الآيات نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه . وقد كان من أمره أن بلال ابن رباح عليه الرضوان ، وكان مولى لعبد الله بن جُدْعان ـ جاء إلى الأصنام وسلح عليها ، فشكا كفار مكة إلى مولاه فوهبه لهم ، ووهب لهم مائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم فجعلوا يعذبونه ويخرجونه إلى الرمضاء ، وكان يقول وهم يعذبونه : أَحَدٌ أَحَدٌ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به وهو يعذب فيقول له : ينجيك أحد أحد ، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه بما يلقى بلال فى الله ، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب وابتاعه من المشركين وأعتقه ، فقال المشركون : مافعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزل قوله :

« وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » الآيات .

الإيضاح

(إن علينا للهدى) أى إنا خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ثم بعثنا له الكَمَلَة من أفراده، وهم الأنبياء وشرعنا لهم الأحكام ،

وبينا لهم العقائد تعليما وإرشادا ، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين : سبيل الخير والفلاح ، والسبيل المعوجّ فيتردّى فى الهاوية .

وقصارى ذلك — إن الإنسان خلق نوعا ممتازا عن سائر الحيوان بما أوتيه من العقل ، وبما وضع له من الشرائع التى تهديه إلى سبيل الرشاد .

ثم زاد الأمر توكيدا فأبان عظيم قدرته فقال :

(وإن لنا للآخرة والأولى) أى وإنا لنحن المالكون لكل مافى الدنيا وكل مافى الآخرة ، فنهب مانشاء لمن نريد ، ولا يضيرنا أن يترك بعض عبادنا الاهتداء بهدينا الذى بيّناه لهم ، ولا يزيد فى ملكنا اهتداء من اهتدى منهم ، لأن نفع ذلك وضره عائد إليهم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

وإذا كان ملك الحياتين لله كان هديه هو الذى يجب اتباعه فيهما ، لأن المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيه .

ثم بين سبيل الهداية الذى أوجبه على نفسه فقال :

(فأنذرتكم نارا تلظى. لايصلاها إلا الأشقى. الذى كذّب وتولى) أى لرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصالحكم أسدينا إليكم الهدى ، فأنذرناكم نارا تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه من الآيات ، وأعرض عن اتباع شرائعه ، وانصرف عن وجهة الحق ولم يعد إليها تائبا نادما .

(وسيجنبها الأتقى) أى وسيبعد عنها المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الشديد التحرز منهما بحيث لايخطرهما له ببال .

ثم وصف الأتقى بأفضل مزاياه فقال :

(الذى يؤتى ماله يتزكى) أى إن الأتقى هو الذى ينفق أمواله فى وجوه البر ، طالبا بذلك طهارة نفسه وقربها من ربه ، لامريدا بذلك رياء ولا سمعة ولا طالبا مديح الناس له ، فإن ذلك ضرب من النفاق الذى يبطل معه العمل ، ولا يكون

لصاحبه عليه ثواب مهما أتعب نفسه وأجهدها ، فالله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه .

وقد أكد هذا بقوله :

(وما لأحد عنده من نعمة تجزى) أى إنه لايقصد بإنفاقه المال مكافأة أحد على نعمة كان قد أسلفها ، ولا جزاء معروف كان قد تقدم به إليه .

ثم أكده مرة ثانية فقال :

(إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) أى لـكنه يفعل ذلك قاصدا رضا ربه طالبا مثوبته وحده ، تقول : فعلت كذا أبتغى وجه فلان ، أى لم يحملنى على الفعل إلا إجلاله وقصد مرضاته ، وخيفة الوقوع فيما يغضبه .

ثم وعد ذلك الأتقى بالرضا عنه فقال :

(ولسوف يرضي) أى ولسوف يرضيه ربه فى الآخرة بثوابه وعظيم جزائه .

وفى قوله : (ولسوف) إيماء إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد منزلة الرضا الإلهى .

وقصارى ماسلف : إن الناس أصناف :

(١) الأبرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين مايجعلهم يبتعدون عن الفواحش ماظهر منها وما بطن .

(٢) الذين يلون هؤلاء ، وهم من تغلبهم الشهوة أحيانا فيقعون فى الذنب ، ثم يثوب إليهم رشدهم فيتوبون ويندمون ، وهذان القسمان يدخلان فى (الأتقى) .

(٣) من يخلط بين الخير والشر فيعتقد وحدانية الله ويقترف بعض السيئات ، ويصرّ عليها ولا يتوب منها ، فهذا الإصرار منه دليل على أنه غير مصدّق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد .

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » والمراد أن صورة الوعيد تذهب عن

ذهن المخالف وتوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه فى النفس وتغلب عليها .

(٤) الكافرون الجاحدون بالله وبرسله وبما أنزل عليهم ، وهذان القسمان يشملهما (الأشقى) وقد أعدت النار لكل منهما ، إلا أن الفاسقين لايخلدون فيها ، ويدخلها الكافرون وهم فيها خالدون .

اللهم أبعدنا عن هذه النار التى تتلظى ، وأدخلنا فسيح جناتك .

مقاصد هذه السورة

(ا) بيان أن الناس فى الدنيا فريقان :

(١) فريق يهيئه الله للخصلة اليسرى، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها ، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على من أنفقوا .

(٢) فريق يهيئه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، وهم الذين بخلوا بالأموال واستغنوا بالشهوات ، وأنكروا ما وعد الله به من ثواب الجنة .

(ب) الجزاء فى الآخرة لكل منهما وجعله إما جنة ونعيما ، وإما ناراً وعذابا أليماً .

ســـورة الضحى

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة الفجر .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر فى السابقة « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » ولما كان سيد الأتقين رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ذلك سبحانه بذكر نعمه عزّ وجل عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) .

شرح المفردات

الضحى : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون ، وسجى : أى سكن ؛ والمراد سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة ، ما ودعك ربك : أى ما تركك ، وما قلى : أى وما قلاك وما أبغضك ، والقلى : شدة الكره والبغض .

المعنى الجملى

أجمع الرواة على أن سبب نزول هذه السورة حدوث فترة فى نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حزن لذلك حزناً شديداً حتى غدا مراراً إلى الجبال ليتردّى من شواهقها ، وأنه ما كان يمنعه إلا تمثل الملك له وإخباره إياه أنه رسول الله حقًّا .

وإنما حزن لهذه الفترة خيفة أن يكون ذلك من غضب أو قِلًى من ربه له ، بعد أن ذاق حلاوة الاتصال به ، وشاهد من جمال الأنس بالوحى مايثير لواعج

شوقه إلى التزوّد منه ، وقد كان يعلم أنه بشر ، لا فضل له على غيره إلا بهذا القرب الذى يعلو به على من عداه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على تكميل نفسه و إعدادها لتحمل ماهى بسبيله من أعباء الرسالة .

لاجرم يكون حزنه لهذه الفترة شديدا ، وأن يتوجس منه خيفة ، ولا عجب أن يدعوه ذلك إلى التفكير فيما كان يفكر فيه ، وأن يهمّ بتنفيذه .

ومن ثم نزلت هذه السورة حاملة له أجمل البشرى ، ملقية فى نفسه الطمأنينة ، معدّدة ما أنعم الله به عليه ، وكأنه تعالى يقول لرسوله : إن من أنعم عليك بكذا وكذا لم يكن ليتركك ولا ينساك بعد أن هيأك لحمل أمانته ، وأعدّك للاضطلاع بأعباء رسالته ، فلا تحزن على ما كان من فترة الوحى عنك ، ولا يكن فى صدرك حرج منها ، فما ذلك إلا لتثبيت قلبك ، وتقوية نفسك على احتمال مشاقّها .

الإيضاح

(والضحى . والليل إذا سجى . ماودّعك ربك وما قلى) أقسم سبحانه لرسوله بآيتين عظيمتين من آياته فى الكون ضحى النهار وصدره ، والليل وظلامه — إنه ماترككك وما أبغضك كما يقال لك وما تتوهم فى نفسك .

ثم ذكر له مايثلج صدره ، وما فيه كمال الطمأنينة والبشرى فقال :

(وللآخرة خير لك من الأولى) أى و إن أحوالك فى مستأنف حياتك خير لك مما مضى منها ، وأن كل يوم ستزداد عزّا إلى عزّ ، وسيرتفع شأنك كل يوم عما قبله ، وسأمنحك كل آن جلالا فوق جلالك ، ورفعة فوق رفعتك؛ وكأنه يقول له لاتظنّن أنى كرهتك أو تركتك ، بل أنت عندى اليوم أشد تمكيناً وأقرب اتصالا .

ولقد صدق الله وعده ؛ فما زال يسمو بنبيه ، و يرفع درجته يوما بعد يوم حتى بلغ الغاية التى لم يبلغها أحد قبله ، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه ،

وجعل محبته من محبة الله ، واتباعه والاقتداء به سبباً للفوز العظيم بنعيمه ، وجعله وأمته شهداء على الناس جميعاً ، ونشر دينه ، وبلّغ دعوته إلى أطراف المعمورة ! فأىّ فضل فوق ذلك الفضل ؟ وأى نعمة أضفى من هذه النعمة ؟ وأى إكرام فوق هذا الإكرام ؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم زاده فى البشرى فقال :

(ولسوف يعطيك ربك فترضى) أى ولسوف يظاهر ربك عليك نعمه ، ويوالى عليك مننه ، ومنها توارد الوحى عليك بما فيه إرشادك وإرشاد قومك إلى مافيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وسيظهر دينك على الأديان كلها ، وتعلو كلمتك ويرتفع شأنك على شئون الناس جميعاً .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

شرح المفردات

ضالا فهدى : أى غافلا عن الشرائع فهداك إلى مناهجها ، عائلا : أى فقيراً ، فلا تقهر : أى فلا تستذل ، فلا تنهر : أى فلا تزجر ، فحدّث : أى فأدِّ الشكر لموليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر رضاه عن رسوله ، ووعده له أن يمنحه من المراتب والدرجات مايرضيه ، ويثلج قلبه — أردف ذلك بيان أن هذا ليس عجباً منه جل شأنه ، فقد أنعم عليه بالنعم الجليلة قبل أن يصير رسولا ؛ فكيف يتركه بعد أن أعده لرسالته ،

ثم نهاه عن أمرين : قهر اليتيم وزجر السائل ، لما لهما من أكبر الأثر فى التعاطف والتعاون فى المجتمع ، ولما فيهما من الشفقة بالضعفاء وذوى الحاجة ، ثم أمره بشكره على نعمه المتظاهرة عليه باستعمال كل منها فى موضعها وأداء حقها .

الإيضاح

(ألم يجدك يتيما فآوى) أى ألم تكن يتيما لاأب لك يُعْنى بتربيتك ، ويقوم بشئونك ، ويهتم بتنشئتك ؛ فما زال يحميك ويتعهدك برعايته ، ويجنبك أدناس الجاهلية وأوضارها حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنسانى .

وقد عاش النبى صلى الله عليه وسلم يتيما ، إذ توفى أبوه وهو فى بطن أمه ، فلما ولد عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب ، فما زال يكفله خير كفالة حتى توفى والنبى صلى الله عليه وسلم يومئذ فى سن الثامنة ، فكفله عمه أبوطالب بوصية من عبد المطلب ، فكان به حفيًّا ، شديد العناية بأمره ، وما زال يتعهده حتى كبر وترعرع ، حتى أرسله الله رسولا ، فقام يؤازره وينصره ، ويدفع عنه أذى قريش حتى مات ، فاستطاعت قريش أن تنال منه ، وتجرّأ عليه سفهاؤهم ، وسلطوا عليه غلمانهم ، حتى اضطروه إلى الهجرة .

ولو تدبر المنصف فى رعاية الله له ، وحياطته بحفظه وحسن تنشئته ، لوجد من ذلك العجب ، فلقد كان اليتم وحده مدعاة إلى المضَيْعة وفساد الخلق ، لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه ، وكان فى خلق أهل مكة وعاداتهم مافيه الكفاية فى إضلاله لو أنه سار سيرتهم ، لكن عناية الله كانت ترعاه ، وتمنعه السير على نهجهم ، فكان الوفىّ الذى لا يَمين ، والأمين الذى لا يخون ، والصادق الذى لا يكذب ، والطاهر الذى لم يدنّس برجس الجاهلية .

(ووجدك ضالاً فهدى) أى ووجدك حائرا مضطربا فى أمرك ، مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم ؛ فعباداتهم باطلة ، ومعتقداتهم فاسدة ، وكان

يفكر فى دين اليهودية ، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه ، إذ بدلوا دينهم ، وخالفوا ما كان عليه رسولهم ، فيبدو عليه الإعراض عنه ، ثم يفكر فى دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، فيرى النصارى على حال شر من حال اليهود ، فيرجع عن التفكير فيه ، وهو أمىّ لايقرأ ولا يكتب ، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع .

وأعظم أنواع حيرته ما كان يراه فى العرب أنفسهم من سخف فى العقائد ، وضعف فى البصائر ، باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم ، وشؤمها فى أحوالهم ، بتفرق الكلمة ، وتفانيهم فى سفك الدماء ، والإشراف على الهلاك باستبعاد الغرباء لهم ، وتحكمهم فيهم ؛ فالحبشة والفرس من جانب ، والرومان من جانب آخر .

فما العمل فى تقويم عقائدهم ، وتخليصهم من تحكم العادات فيهم ؟ وأىّ الطرق ينبغى أن يسلك فى إيقاظهم من سباتهم ؟

وقصارى ذلك ، إنه كان فى قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل ، و بدلوا دين أبيهم إبراهيم ، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليست خيراً من حالهم لكن الإله الحكيم لم يتركه ونفسه ، بل أنزل عليه الوحى يبين له أوضح السبل كما قال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ » .

(ووجدك عائلاً فأغنى) أى إنك كنت فقيرا لم يترك لك والدك من الميراث إلا ناقة وجارية ، فأغناك بما أجراه لك من الربح فى التجارة ، و بما وهبته لك خديجة من مالها .

وخلاصة ماتقدم — إن من آواك فى يتمك ، وهداك من ضلالك ، وأغناك من فقرك ، لايتركك فى مستقبل أمرك .

و بعد أن بين نعمه السابقة طالبه بشكر هذه النعم وأداء حقها فقال :

(فأما اليتيم فلا تقهر) أى لاتقهر اليتيم ولا تستذله، بل ارفع نفسه بالأدب، وهذّبه بمكارم الأخلاق، ليكون عضوا نافعا فى جماعتك، لاجُرثومة فساد يتعدى أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك.

ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه، فما أجدره أن يستشعرها فى غيره، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتيما، فباعد الله عنه ذل اليتم فآواه، فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكرا لله على نعمته.

(وأما السائل فلا تنهر) أى وأما المستجدى فلا تزجره، ولكن تفضل عليه بشىء أو ردّه ردًّا جميلا، وقد يكون المراد من (السائل) المسترشد، وهو أيضا يُطلب الرفق به و بيان ماأشكل عليه من الأمر.

(وأما بنعمة ربك فحدّث) أى أوسع فى البذل على الفقراء بمالك، وأفض من نعمه الأخرى على طالبيها، وليس المراد مجرد ذكر الثروة والإفاضة فى حديثها، فإن ذلك ليس من كرم الأخلاق فى شىء.

وقد جرت عادة البخلاء أن يكتموا مالهم، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل، ولا تجدهم إلا شاكين من القُلّ؛ أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل مما آتاهم الله من فضله، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه.

وقد استفاضت الأحاديث بأنه صلى الله عليه وسلم كان كثير الإنفاق على الفقراء، عظيم الرأفة بهم، واسع الإحسان إليهم، وكان يتصدق بكل مايدخل فى ملكه و يبيت طاويا.

اللهم صل على محمد عبدك، ورسولك الذى أوحيت إليه وأرضيته، وشرحت صدره، واجعلنا من الذين يقتفون آثاره، ويتبعون سنته.

مقاصد السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على أربعة مقاصد :

(١) أن الله ماقلا رسوله ولا تركه .

(٢) وعد رسوله بأنه سيكون فى مستأنف أمره خيرا من ماضيه .

(٣) تذكيره بنعمه عليه فيما مضى وأنه سيواليها عليه .

(٤) طلب الشكر منه على هذه النعم .

سورة الشرح

هى مكية ، وآيها ثمان ، نزلت بعد سورة الضحى .

وهى شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحـدة ، وما كانا يفصلان بينهما بالبسملة ، ولـكن المتواتر كونهما سورتين وإن كانتا متصلتين معنى ، إذ فى كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) .

شرح المفردات

الشرح : البسط والتوسعة ، والعرب تطلق عظم الصدر وتريد به القوة وعظيم المنة ، والمسرة وانبساط النفس ، ويفخرون بذلك فى مدائحهم ، من قِبَل أن سعة

الصدر تعطى الأحشاء فسحة للنمو والراحة ، وإذا تم ذلك للمرء كان ذهنه حاضرا لايضيق ذرعا بأمر ، والوزر : الحمل الثقيل ، وأنقض : أى أثقل ، والظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض ، أى صوت خفى .

الإيضاح

(ألم نشرح لك صدرك) أى إنا شرحنا لك صدرك ، فأخرجناك من الحيرة التى كنت تضيق بها ذرعا ، بما كنت تلاقى من عناد قومك واستكبارهم عن اتباع الحق ، وكنت تتلمس الطريق لهدايتهم ، فهديت إلى الوسيلة التى تنقذهم بها من التهلكة ، وتجنبهم الردى الذى كانوا مشرفين عليه .

وقصارى ذلك — إنا أذهبنا عن نفسك جميع الهموم حتى لاتقلق ولاتضجر ، وجعلناك راضى النفس ، مطمئن الخاطر ، واثقا من تأييد الله ونصره ، عالما كل العلم أن الذى أرسلك لايخذلك ، ولا يعين عليك عدوا .

(ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك) أى حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها ، فجعلنا التبليغ عليك سهلا ، ونفسك به مطمئنة راضية ، ولو قوبلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم ، كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم ، فالعبء مهما ثقل عليه يخففه مايجيش بقلبه من العطف عليهم ، والحدب على راحتهم ، ويتحمل الشدائد وهو راض بما يقاسى فى سبيل حياطتهم وتنشئتهم .

(ورفعنا لك ذكرك) أى وجعلناك عالى الشأن ، رفيع المنزلة ، عظيم القدر ، وأىّ منزلة أرفع من النبوة التى منحكها الله ؟ وأى ذكر أنبه من أن يكون لك فى كل طرف من أطراف المعمورة أتباع يمتثلون أوامرك ، ويجتنبون نواهيك ، ويرون طاعتك مغنما ، ومعصيتك مغرما .

وهل من فخار بعد ذكرك فى كلمة الإيمان مع العلىّ الرحمن ؟ وأى ذكر أرفع

من ذكر من فرض الله على الناس الإقرار بنبوته ، وجعل الاعتراف برسالته بعد بلوغ دعوته ، شرطا فى دخول جنته .

هذا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أنقذ أمما كثيرة من رق الأوهام ، وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة الأولى من حرية العقل والإرادة ، والإصابة فى معرفة الحق ، ومعرفة من يقصد بالعبادة ، فاتحدت كلمتهم فى الاعتقاد بإله واحد بعد أن كانوا متفرقين طرائق قددا ، عبّاد أصنام وأوثان ، وشموس وأقمار ، لايجدون إلى الهدى سبيلا ، ولا للوصول إلى الحق طريقا ؛ فأزاح عنهم تلك الغمّة ، وأنار لهم طريق الهدى والرشاد .

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) .

شرح المفردات

العسر : الفقر والضعف وجهالة الصديق وقوة العدو وإنكار الجميل ، فرغت : أى من عمل ، فانصب : أى اتعب .

المعنى الجملى

بعد أن أبان بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر بعد استحكام الكرب ، وضيق الأمر — ذكر أن ذلك قد وقع على ماجرت به سنته فى خلقه ، من إحداث اليسر بعد العسر ، وأكد هذا بإعادة القضية نفسها مؤكدة لقصد تقريرها فى النفوس وتمكينها فى القلوب .

الإيضاح

(فإن مع العسر يسرا) أى فإن مع الضيق فرجا ، ومع قلة الوسائل إلى إدراك المطلوب مخرجا إذا تدرّع المرء بالصبر وتوكل على ربه ، ولقد كان هذا حال النبى

صلى الله عليه وسلم فإنه قد ضاق به الأمر فى بادئ أمره قبل النبوة و بعدها إذ تألب عليه قومه ، لكن ذلك لم يثنه عن عزمه ، ولم يفلل من حدّه ، بل صبر على مكروههم وألقى بنفسه فى غمرات الدعوة متوكلا على ربه ، محتسبا نفسه عنده ، راضيا بكل مايجد فى هـذا السبيل من أذى ، ولم تزل هذه حاله حتى قيض الله له أنصاراً أشْرِبت قلوبهم حبه ، وملئت نفوسهم بالرغبة الصادقة فى الدفاع عنه وعن دينه ، ورأوا أن لاحياة لهم إلا بهدم أركان الشرك والوثنية ، فاشتروا ماعند الله من جزيل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأزواجهم ، ثم كان منهم من قوّض دعائم الأكاسرة ، وأباد جيوش الأباطرة والقياصرة .

وقصارى ذلك — إنه مهما اشتد العسر ، وكانت النفس حريصة على الخروج منه ، طالبة كشف شدته ، مستعملة أجمل وسائل الفكر والنظر فى الخلاص منه ، معتصمة بالتوكل على ربها ، فإنها ولا ريب ستخرج ظافرة مهما أقيم أمامها من عقبات ، واعترضها من بلايا ومحن .

وفى هذا عبرة لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيبدّل حاله من الفقر إلى الغنى ، ومن قلة الأعوان إلى كثرة الإخوان ، ومن عداوة قومه إلى محبتهم ، إلى أشباه ذلك.

ثم أعاد الأسلوب للتوكيد فقال :

(إن مع العسر يسرا) إذا احتملت ذلك العزيمة الصادقة ، وعملت بكل ما أوتيت من قوة على التخلص منه ، وقابلت مايقع من عسر بالصبر والأخذ بأسباب تفريجه ولم تستبطئ الفرج ، فيدعوها ذلك إلى التوانى وفتور العزيمة .

و بعد أن بين نعمه على رسوله ووعده بتفريج كربه — طلب منه أن يقوم بشكر هذه النعم بالانقطاع لصالح العمل والاتكال عليه دون من عداه فقال :

(فإذا فرغت فانصب) أى فإذا فرغت من عمل فاتعب فى مزاولة عمل آخر ، فإنك ستجد فى المثابرة لذة تقرّ بها عينك ويثلج لها صدرك .

وفى هذا حث له عليه الصلاة والسلام على المواظبة على العمل واستدامته .

(وإلى ربك فارغب) أى ولا ترغب فى ثواب أعمالك وتثميرها ، إلا إلى ربك وحده ، فإنه هو الحقيق بالتوجه إليه والضراعة له ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين .

مقاصد السورة

تشتمل هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد :

(١) تعداد ما أنعم به على رسوله من النعم .

(٢) وعده له بإزالة ما نزل به من الشدائد والمحن .

(٣) أمره بالمداومة على الأعمال الصالحة .

(٤) التوكل عليه وحده ، والرغبة فيما عنده .

ســـورة التين

هى مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة البروج .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر فى السورة السابقة حال أكمل خلق الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر هنا حال النوع الإنسانى وما ينتهى إليه أمره ، وما أعد سبحانه لمن آمن برسوله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) .

شرح المفردات

المراد بالتين كما قال الأستاذ الإمام هنا : عهد الإنسان الأول الذى كان يستظل فيه بورق التين حينما كان يسكن الجنة ؛ والمراد بالزيتون : عهد نوح عليه السلام وذريته حينما أرسل الطير فحمل إليه ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وعلم أن الطوفان انحسر عن الأرض ، وطور سينين : الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عنده ، والبلد الأمين : مكة التى كرمها الله بالكعبة ، والتقويم : جعل الشىء على ماينبغى أن يكون عليه فى التأليف والتعديل ؛ يقال قوّمه تقويماً ، واستقام الشىء وتقوّم : إذا جاء وفق التقويم ، وممنون : أى مقطوع ، والدِّين : الجزاء بعد البعث .

الإيضاح

(والتين) أى قسما بعصر آدم أبى البشر الأول ، وهو العهد الذى طفق فيه آدم وزوجه يخصفان عليهما من ورق الجنة .

(والزيتون) أى وقسما بعصر الزيتون عصر نوح عليه السلام وذريته حينما أهلك الله من أهلك بالطوفان ، ونجّى نوحا فى سفينته ، و بعد لأى ماجاءته بعض الطيور حاملة ورقة من هـذا الشجر فاستبشر ، وعلم أن غضب الله قد سكت وأذن للأرض أن تبتلع ماءها لتعمر ويسكنها الناس ، ثم أرسى السفينة ونزل هو وأولاده وعَمَروا الأرض .

وقصارى ذلك — إن التين والزيتون يذكران بهذين العصرين عصر آدم أبى البشر الأول ، وعصر نوح أبى البشر الثانى .

(وطور سينين) وهو تذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى وقومه ، وما كان بعد ذلك من إنزال التوراة عليه ، وظهور نور التوحيد بعد أن تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وما زال الأنبياء بعده يدعون أقوامهم إلى التمسك بهذه الشريعة ، ثم عرضت لهـا البدع ، فجاء عيسى مخلّصاً لها مما أصابها ، ثم أصاب قومه ما أصاب الأمم قبلهم من الاختلاف فى الدين ، حتى منّ الله على الناس بعهد النور المحمدى ، و إليه الإشارة بقوله :

(وهـذا البلد الأمين) الذى شرفه الله بميلاد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكرّمه بالبيت الحرام .

وخلاصة ماسلف — إن الله أقسم بهذه العهود الأربعة التى كان لها أثر بارز فى تاريخ البشر ، وفيها أنقذ الناس من الظلمات إلى النور .

ثم ذكر المحلوف عليه فقال :

(لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) أى لقد خلقنا الإنسان فى أحسن صورة ، فجعلناه مديد القامة ، حسن البِزّة ، يتناول ما يريد بيده لا كسائر الحيوان يتناول ما يريد بفيه ؛ إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف، واستنباط الحيل التى بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات ، وله من الحول والطَّوْل ما يمتد إلى كل شىء .

لكن قد غفل عما مُيِّز به ، وظنّ نفسه كسائر المخلوقات ، وراح يعمل ما لا يبيحه له العقل ، ولا ترضى عنه الفطرة ، وانطلق يتزوّد من متاع الدنيا والاستمتاع بشهواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأعرض عن النظر فيما ينفعه فى معاده ، وما يرضى به ربه ، وما يوصله إلى النعيم المقيم ، « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ثم رددناه أسفل سافلين) أى إنه استشرى فيه الفساد ، وأمعن فى سبيل الضلالة ، ونسى فطرته وعاد إلى حيوانيته ، وتردَّى فى هاوية الشرور والآثام إلا من عصمهم الله فظلوا على فطرتهم التى فطرهم عليها ، وهم من عناهم سبحانه بقوله :

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) أى إلا الذين أشربت قلوبهم عقيدة الإيمان ، وعرفوا أن لهذا الكون موجدا دبّر أمره ، ووضع لخلقه شرائع يسيرون على نهجها ، وأيقنوا أن للشر جزاء وللخير مثله .

وهؤلاء سيعطون أجر صالح أعمالهم إذا انتقلوا إلى الحياة الثانية ، وهم أتباع الأنبياء ومن هداهم الله إلى الحق من كل أمة .

ثم وبخ المشركين على التكذيب بالجزاء بعد ظهور الدليل عليه فقال :

(فما يكذبك بعد بالدين ؟) أى فأىّ سبب يحملك أيها الإنسان على التكذيب

بالجزاء على أعمالك بعد أن تظاهرت لديك الأدلة على ذلك ، فإن الذى خلقك من نطفة ثم سيَّرك بشراً سويًّا — قادر على أن يبعثك ويحاسبك فى نشأة أخرى ، ومن شاهد ذلك وتدبره وأعمل فيه فكره ثم بقى على عناده ، فقد طُمس على بصيرته وضل سواء السبيل .

ثم زاد ماسلف توكيدا فقال :

(أليس الله بأحكم الحاكمين) صنعاً وتدبيراً ، ومن ثم وضع الجزاء لهذا النوع الإنسانى ، ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعدها له بأصل فطرته ، ثم انحدر منها إلى المنازل السفلى بجهله وسوء تدبيره ، ولهـذا أرسل له الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الشرائع ليبينوها له ويدعوه إليها رحمة به .

سبحانك ، ما أعدلك وأحكمك ، وأنت اللطيف الخبير ، وإليك المرجع والمصير .

سورة العلق

هى مكية ، وآياتها تسع عشرة ، وهى أول مانزل من القرآن .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هنالك خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وذكر هنا خلق الإنسان من علق ، إلى أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ماهو كالشرح والبيان لما سلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ (٥) .

تقدمة تاريخية

جاء فى صحيح الأحاديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى غار حِراء (حراء جبل بمكة) يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الوحى وهو فى الغار إذ جاءه الملك فقال له : اقرأ ، قال ما أنا بقارئ ، قال : فأخذه ثانية فغطّه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال :اقرأ ، قال ماأنا بقارئ . قال فأخذه ثالثة فغطّه حتى بلغ منه الجهد فقال : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ .

قال الرواة : فرجع ترجُف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زمّلونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الرّوْع ؛ فأخبر خديجة الخبر ، ثم قال : قد خشيت على نفسى ، فقالت له : كلاّ ، أبشر ، فوالله لايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتَقْرى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت وَرَقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى (ابن عم خديجة) وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، وكتب بالعبرانية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيراً قد عَمِى ، فقالت خديجة : أى ابنَ عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال وَرَقة : ابن أخى ماترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على عيسى ، ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَمُخْرِجِىّ هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت أحد قط بمثل ماجئت به إلا عُودِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مُؤَزَّرا ، ثم لم ينْشَب أن تُوُفِّى ، رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

ومن ذلك تعلم أن صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن الكريم ، وأول رحمة رحم الله بها عباده ، وأول خطاب وُجِّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما بقية السورة فهو متأخر النزول ، نزل بعد شيوع بعثته صلى الله عليه وسلم وبعد أن دعا قريشا إلى الإيمان به ، وآمن به قوم منهم ، وكان جمهرتهم يتحرشون بمن آمن به ويؤذونهم ، ويحاولون ردهم عن تصديقه ، والإيمان بما جاء به من عند ربه .

الإيضاح

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) أى صر قارئا بقدرة الله الذى خلقك وإرادته بعد أن لم تكن كذلك ، فانه صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئا ولا كاتبا ، وقد جاءه الأمر الإلهى بأن يكون قارئا وإن لم يكن كاتبا ، وسيُنزل عليه كتابا يقرؤه وإن كان لا يكتبه .

وقصارى ذلك — إن الذى خلق الكائنات وأوجدها ، قادر أن يوجد فيك القراءة ، و إن لم يسبق لك تعلّمها .

ثم بين كيفية الخلق فقال :

(خلق الإنسان من علق) العلق : الدم الجامد ، أى إن الذى خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات كلها من العلق ، وآتاه القدرة على التسلط على كل شىء مما فى هذا العالم الأرضى ، وجعله يسوده بعلمه ، ويسخره لخدمته ، قادر أن يجعل من الإنسان الكامل كالنبى صلى الله عليه وسلم قارئاً و إن لم يسبق له تعلّم القراءة .

والخلاصة — إن من كان قادرا على أن يخلق من الدم الجامد إنسانا حيا ناطقا يسود المخلوقات الأرضية جميعها ، قادر أن يجعل محمدا صلى الله عليه وسلم قارئا و إن لم يتعلم القراءة والكتابة .

(اقرأ) أى افعل ما أمرت به من القراءة .

وكرر الأمر لأن القراءة لاتكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ماجرت به العادة ؛ وتكرار الأمر الإلهى يقوم مقام تكرار المقروء ، وبذلك تصير القراءة ملكة للنبى صلى الله عليه وسلم ، تدبر قوله تعالى : « سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى » .

ثم أزاح العذر الذى بينه صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ ، أى إنى أمىّ لا أقرأ ولا أكتب فقال :

(وربك الأكرم) أى وربك أكرم لكل من يرتجى منه الإعطاء ، فيسير عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة من بحار كرمه .

ثم أراد أن يزيده اطمئنانا بهذه الموهبة الجديدة فقال :

(الذى علم بالقلم) أى الذى جعل القلم واسطة التفاهم بين الناس على بُعْد الشُّقّة ، كما أفهمهم بوساطة اللسان ؛ والقلم آلة جامدة لاحياة فيها وليس من شأنها الإفهام ، فمن جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان . أفيصعب عليه أن يجعل منك قارئا مبيّنا ، وتاليا معلّما ، وأنت إنسان كامل ؟

وقد وصف سبحانه نفسه بأنه خلق الإنسان من علق ، وأنه علمه بالقلم ، ليبين أحوال هذا الإنسان ، وأنه خلق من أحقر الأشياء ، و بلغ فى كماله الإنسانى أن صار عالما بحقائق الأشياء ، فكأنه قيل : تدبر أيها الإنسان تجد أنك قد انتقلت من أدنأ المراتب وأخسها ، إلى أعلى الدرجات وأرفعها ، ولا بد لذلك من مدبر قادر حكيم أحسن كل شئ خلقه .

ثم زاد الأمر بيانا بتعداد نعمه فقال :

(علم الإنسان مالم يعلم) أى إن من صدر أمره بأن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم قارئا ، هو الذى علم الإنسان جميع ماهو متمتع به من العلم ، وممتاز به عن غيره من الحيوان ، وكان فى بدء أمره لايعلم شيئا ، فهل من عجب أن يعلمك القراءة ، ويعلمك كثيرا من العلوم سواها ، ونفسك مستعدة لقبول ذلك .

وفى الآية دليل على فضل القراءة والكتابة والعلم .

ولعمرك لولا القلم ماحفظت العلوم ، ولا أحصيت الجيوش ، ولضاعت الديانات ، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل ، وعلومهم ومخترعاتهم وفنونهم ، ولما سُجّل تاريخ السابقين : المسيئين منهم والمحسنين ، ولا كان علمهم نبراسا يهتدى به الخلف ، ويبنى عليه مابه ترقى الأمم ، وتتقدم المخترعات .

كما أن فيها دليلا على أن الله خلق الإنسان الحى الناطق مما لا حياة فيه ولا نطق ، ولاشكل ولاصورة ، وعلمه أفضل العلوم وهى الكتابة ، ووهبه العلم ولم يكن يعلم شيئا ، فما أعجب غفلتك أيها الإنسان !.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣)

أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥)
نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُو الزَّبَانِيَةَ (١٨)
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) .

شرح المفردات

المراد بالإنسان : أى فرد من هذا النوع ، يطغى : أى يتكبر و يتمرد ، استغنى : أى صار ذا مال وأعوان يغنى بهما ، والرجعى والمرجع والرجوع : المصير والعودة ، أرأيت : أى أخبرنى ؛ والمراد من الاستخبار إنكار الحال المستخبر عنها وتقبيحها على نحو ما جاء فى قوله تعالى: «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟» والسفع : الجذب بشدة، والناصية : شعر الجبهة ؛ والمراد بذلك القهر والإذلال بأشد أنواع العذاب ، والنادى : المكان الذى يجتمع فيه القوم ، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله قال زهير :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم   وأنديةٌ ينتابها القول والفعل

والزبانية : واحدهم زِبْنِية (بكسر فسكون) وزِبْنى (بالكسر) ؛ والمراد بهم الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى مطلع السورة دلائل التوحيد الظاهرة ، ومظاهر القدرة الباهرة ، وعلامات الحكمة ودقة الصنع ؛ وكان ذلك كله بحيث يبتعد من العاقل ألا يلتفت إليه ، أتبعه جل شأنه ببيان السبب الحقيقى فى طغيان الإنسان وتكبره وتماديه ، وهو حبه للدنيا ، واشتغاله بها ، وجعلها أكبر همه ، وذلك يعمى قلبه ، ويجعله يغفل عن خالقه ، وما يجب له فى عنقه من إجلال وتعظيم ؛ وقد كان ينبغى أن يكون حين الغنى والميسرة ، وكثرة الأعوان ، واتساع الجاه ، أشد حاجة إلى الله

منه فى حال الفقر والمسكنة ، لأنه فى حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه ، أما فى حال الغنى فيتمنى ذلك ويتمنى سلامة مماليكه وأتباعه وأمواله .

ألا يعلم أنه راجع إلى ربه فمجازيه على مايعمل ؟ وقد بلغ من حمقه أن يأمر وينهى ، وأنه يوجب على غيره طاعته ، ثم هو بعد ذلك يعرض عن طاعة ربه .

أما ينبغى له أن يهتدى ويشتغل بأمر نفسه ؟ فمن كان ذا عقل ورأى وثروة وجاهٍ وأعوان ، واختار الهدى ، وتخلق بأخلاق المصلحين ، كان ذلك خيرا له ، وأجدى .

وإنا لننكلنّ به نكالاً شديدا فى العاجلة ، ونهيننَّه يوم العرض والحساب ، وليدْعُ أمثاله من المغرورين ، فإنهم لن يمنعوه ، ولن ينصروه .

ثم ختم السورة بأمره بالتوفر على عبادة ربه فعلا وإبلاغا للناس ، مبتغياً بذلك القربى منه .

الإيضاح

(كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى) أى حقا إن أمر الإنسان لعجيب فإنه متى أحسَّ من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذى يجب أن يكون عليه ، واستكبر عن الخشوع لربه ، وتطاول بأذى الناس ، وعدَّ نفسه فوقهم جميعاً ، وقد كان من حقه أن يكون وإياهم أعضاء أسرة واحدة يتعاونون فى السراء والضراء . ويحب الخير لهم كما يحب لنفسه .

روى البخارى : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وروى عن على فى نصيحته لابنه الحسن : « أحب الخير لغيرك كما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها » .

وقد حكم على الإنسان باعتبار الأعم الأغلب فى أفراده ، وإلا فإن الغنى والقوة فى أيدى الأتقياء من وسائل الخير ، وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ،

لأنهم يستعملونهما فيما يرضى ربهم ، ويعود عليهم بالنفع فى دينهم ودنياهم .

ثم حذر من الطغيان وأنذر من عاقبته ، وأبان أن ما بيد الطاغى عارية ، وليست نفسه بباقية ، وأن مرجع الأمر كله لله فقال :

(إن إلى ربك الرجعى) أى إن المرجع إلى ربك وحده ، وهو مالك أمرك وما تملك ، وسيتبين لك عظيم غرورك حينما تخرج من هذه الحياة ، وتظهر فى مظهر الذل ، وتحاسب على كل ما اجترحته فى حياتك الأولى ، قل أو كثر ، عظُم أو حقر كما قال : « وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » .

ثم أعقب ما تقدم بالوعيد والتهديد والتعجيب فقال :

(أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى) أى أخبرنى عن حال هذا الأحمق ، فإن أمره لعجب ، فقد بلغ به الكبر والتمرد والعناد أن ينهى عبدا من عبيد الله عن صلاته ، ويعتقد أنه يجب عليه طاعته ، وهو ليس بخالق ولا رازق ، فكيف يستسيغ ذلك لنفسه ، ويعرض عن طاعة الخالق الرازق .

وقد روى أن عليا كرم الله وجهه رأى قوما يصلون قبل صلاة العيد فقال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقيل له : ألا تنهاهم ؟ فقال : أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى » .

(أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى) أى أخبرنى عن حال ذلك الطاغية لو تخلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر وتقوى الله ، أما كان ذلك خيرا له من الكفر به والنهى عن طاعته ، فإن ذلك يفوّت عليه أعلى المراتب ، ويجعله فى أحط الدركات وأدناها .

والخلاصة — أما كان الأفضل له أن يهتدى ويهدى غيره إلى خصال البر والخير ، وقد كانت هذه حال النبي صلى الله عليه وسلم ، فعمله كان إما فى إصلاح نفسه بالعبادات من صلاة وصيام وغيرهما ، وإما فى إصلاح غيره بأمره بالتقوى ودعائه إليها .

(أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى) أى أنبئنى عن حال هذا الكافر، إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة ، وأمارات القدرة الباهرة ، وأعرض عن دعوتك والاستماع لهديك ، ودعا الناس إلى مثل ذلك أفلا يخشى أن تحل به قارعة ، ويصيبه من عذاب الله مالا قِبَل له باحتماله ؟ ألا عقل له يرشده إلى أن خالق هذا الكون مطلع على عمله ، وأنه حكيم لا يهمل عقابه ، وأنه سيؤاخذه بكل ما اقترف من جُرم ؟

ولا يخفى مافى هذا من تهديد وتخويف للعصاة والمذنبين .

ثم زاد فى الزجر والوعيد فقال :

(كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة) أى لا يستمرنّ بهذا الكافر جهله وغروره وطغيانه ، قسما لئن لم ينته عن هذا الطغيان ، ويكفّ عن نهى المصلى عن صلاته لنأخذن بناصيته ولنذيقنه العذاب الأليم .

ألا إن تلك الناصية لكاذبة لغرورها بقوتها، مع أنها فى قبضة خالقها ، فهى تزعم مالا حقيقة له ، وإنها لخاطئة ، لأنها طغت وتجاوزت حدها ، وعتت عن أمر ربها .

ونسبة الكذب والخطيئة إلى الناصية ، والكاذبُ والمخطئُ صاحبها، من قِبل أنها مصدر الغرور والكبرياء .

وقد أمر هذا الكافر على ضرب من التهكم والتوبيخ بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوى النجدة والبطش لينقذوه مما سيحل به فقال :

(فليدع ناديه . سندعُ الزبانية) أى فليجمع أمثاله ممن ينتدى معهم ليمنع المصلين المخلصين ، ويؤذى أهل الحق الصادقين ، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسخط

ربه والتنكيل به ، وسندعو له من جنودنا كل قوىّ متين لاقبل له بمغالبته فيهلكه فى الدنيا ، أو يرديه فى النار فى الآخرة .

والمراد بهم الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه ، وسمّوا زبانية لأنهم يَزْبُنُون الكفار فى النار أى يدفعونهم و يسوقونهم إليها .

روى أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم حين أغلظ له فى القول : يامحمد بمن تهددنى ؟ وإنى لأكثر هذا الوادى ناديا .

وروى أنه قال : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأنَّ عنقه ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : لو فعل لأخذته الملائكة .

ثم بالغ فى زجر الكافر عن صلفه وكبريائه ، ونفى قدرته على ماتهدد به فقال :

(كلا لاتطعه واسجد واقترب) أى إنه لن يصل إلى زعمه وأن يدعو نادى قومه ، ولئن دعاهم لاينفعونه ولا ينصرونه ، فإنه أذل وأحقر من أن يقاومك ، فلا تطعه إذا نهاك عن عبادة ربك كما قال : « فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ » وتوفر على عبادته بالفعل و إبلاغ الرسالة للناس ، وتقرّب بذلك إليه ، ولا تبتعد عنه بتركها ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

وصلّ وسلم ربنا على من أمرته بالتقرب إليك ، ونهيته عن طاعة عدوك الصَّلِفِ المتكبر.

مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على المقاصد الآتية :

(١) حكمة الله فى خلق الإنسان ، وكيف رقاه من جرثومة صغيرة إلى أن بسط سلطانه على جميع العوالم الأرضية .

(٢) إنه لكرمه وعظيم إحسانه علمه من البيان ما لم يعلم ، وأفاض عليه من العلوم ماجعل له القدرة على غيره مما فى الأرض .

(٣) بيان أن هذه النعم على توافرها قد غفل عنها الإنسان ، فإذا رأى نفسه غنيا صلِف وتجبر واستكبر .

ســـورة القدر

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة عبس .

ومناسبتها لما قبلها — أن فى تلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذى خلق ، واسم الذى علم الإنسان مالم يعلم ، وفى هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذى العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس وبما يسعدهم فى دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله فى ليلة لها من الجلال والكمال ماقصته السورة الكريمة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ؟ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) .

شرح المفردات

القدر : العظمة والشرف ، من قولهم لفلان قدر عند فلان : أى منزلة وشرف ، تنزل الملائكة : أى تنزل وتتجلى للنفس الطاهرة التى هيأها الله لقبول تجليها ، وهى نفس النبى الكريم ، سلام : أى أمن من كل أذى وشر ، مطلع الفجر : أى وقت طلوعه .

تقدمة تبين ميقات هذه الليلة

أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فى أربعة مواضع من كتابه الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا :

(١) فى سورة القدر : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

(٢) فى سورة الدخان : « حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

(٣) فى سورة البقرة : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .

(٤) فى سورة الأنفال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

فآية القدر صريحة فى أن إنزال القرآن كان فى ليلة القدر ، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان فى ليلة مباركة ، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان فى شهر رمضان ، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله كان فى ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر ، التى فرق الله فيها بين الحق والباطل ، ونصر حزب الرحمن على حزب الشيطان ، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هى ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان .

الإيضاح

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أى إنا بدأنا نزل الكتاب الكريم فى ليلة الشرف ، ثم أنزلناه بعد ذلك منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث التى كانت تدعو إلى نزول شىء منه ، تبيانا لما أشكل من الفتوى فيها ، أو عبرة

بما يقص فيه من قصص وزواجر ، ولا شك أن البشر كان فى حاجة إلى دستور يبين لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم ودنياهم ، ويوضح لهم أمر النشأة الأولى وأمر النشأة الآخرة ، لأنهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحهم الحقة حتى يسنّوا لأنفسهم من النظم مايغنيهم عن الدين والتدين ، وحوادث الكون التى نراها رأى العين كفيلة بأن تبين وجه الحق فى ذلك، فإن الناس من بدء الخليقة يُبدئون ويعيدون، ويصححون ويراجعون فى قوانينهم الوضعية ، ثم يستبين لهم بعد قليل من الزمن أنها لاتكفى لهدى المجتمع والأخذ بيده إلى موضع الرشاد ، وتمنعه من الوقوع فى مهاوى الزلل ، ومن ثم قيل : لاغنى للبشر عن دين ولا عن وازع روحى يضع لهم مقاييس الأشياء وقيمها بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصها ، كما لاغنى له عن الاعتقاد فى قوة غيبية يلجأ إليها حين يظلم عليه ليل الشك ، وتختلط عليه صروف الحياة وألوان مآسيها اهـ .

ثم أشار إلى أن فضلها لايحيط به إلا هو فقال :

(وما أدراك ماليلة القدر؟) أى ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها ، ومنتهى علوّ قدرها .

وفى هذا إيماء إلى أن شرفها مما لايحيط به علم العلماء ، وإنما يعلمه علام الغيوب الذى خلق العوالم وأنشأها من العدم .

ثم أوضح مقدار فضلها فقال :

(ليلة القدر خير من ألف شهر) لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى وتكون فاتحة التشريع الجديد الذى أنزل لخير البشر ، ويكون فيها وضع الحجر الأساسى لهذا الدين الذى هو آخر الأديان الصالح لهم فى كل زمان ومكان ، هى خير من ألف شهر من شهورهم التى كانوا يتخبطون فيها فى ظلام الشرك وضلال الوثنية ، حيارى لايهتدون إلى غاية ، ولا يقفون عند حد .

وقد يكون التحديد بالألف جاريا على مايستعملونه فى تخاطبهم من إرادة الكثرة منه ، لا إرادة العدد المعين ، كما جاء فى قوله : « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » .

والله تعالى يفضل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعانى التى تدعو إلى التفضيل وله الحكمة البالغة .

وأى عظمة أعلى من عظمة ليلة يبتدئ فيها نزول هذا النور والهداية للناس بعد أن مضت على قومه صلى الله عليه وسلم حقب متتابعة وهم فى ضلال الوثنية .

وأىّ شرف أرفع من شرف ليلة سطع فيها بدر المعارف الإلهية على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة بعباده ، يبشرهم وينذرهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويجعل منهم أمة تحرر الناس من استعباد القياصرة ، وجبروت الأكاسرة ، ويجمعهم بعد الفرقة ، ويلمّ شعثهم بعد الشتات .

فحق على المسلمين أن يتخذوا هذه الليلة عيدًا لهم ، إذ فيها بدأ نزول ذلك الدستور السماوى ، الذى وجه المسلمين تلك الوجهة الصالحة النافعة ، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياطته بأنفسهم وأموالهم ، شكراً له على نعمه ، ورجاء مثوبته .

ثم ذكر سبحانه بعض مزايا هذه الليلة المباركة فقال :

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) أى تنزلت الملائكة من عالَمها الروحانى حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم ، وتمثل له الروح (جبريل) مبلِّغا للوحى ، وهذا التجلى على النفس الكاملة كان بإذن ربهم بعد أن هيأه لقبوله ليبلغ عباده مافيه الخير والبركة لهم .

ونزول الملائكة إلى الأرض شأن من شئونه تعالى ، لانبحث عن كيفيته ، فنحن نؤمن به دون أن نحاول معرفة تفاصيله وأسراره ، فما عرف العالم بعد علمه

المادى بشتى وسائله إلا النذر اليسير من الأكوان كما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » .

والخلاصة — إن هذه الليلة عيد للمسلمين لنزول القرآن فيها ، وليلة شكر على الإحسان والإنعام بذلك ، تشاركهم فيها الملائكة بما يشعر بعظمتها ، ويشعر بفضل الإنسان وقد استخلفه الله فى الأرض .

(سلام هى حتى مطلع الفجر) أى هذه الليلة التى حفّها الخير بنزول القرآن ، وشهود ملائكة الرحمن ، ليلة كلها سلامة وأمن ، وكلها خير وبركة ، من مبدئها إلى نهايتها ؛ ففيها فرّج الله الكرب عن نبيه ، وفتح له سبل الهداية والإرشاد .

وصل وسلم ربّنا على محمد الذى أكرمته بإنزال الدستور الشامل لخير البشر إلى يوم القيامة .

سورة البينة

هى مدنية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الطلاق .

ووجه مناسبتها لما قبلها — أن قوله : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ » كالعلة لإنزال القرآن ، كأنه قيل : إنا أنزلناه ؛ لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفا مطهرة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

شرح المفردات

أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، المشركون : عبدة الأوثان والأصنام من العرب وغيرهم ، منفكين : أى مفارقين ماهم عليه ، والبينة : الحجة الواضحة ، والمراد

بها النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحف : واحدها صحيفة : وهى ما يكتب فيه ، مطهرة : أى مبرأة من الزور والضلال ، والقيمة : المستقيمة التى لاعوج فيها لاشتمالها على الحق ، والبينة : الثانية الدليل ، والإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصا له تعالى لايشرك به سواه ، الدين : العبادة ، و إخلاص الدين لله : تنقيته من أدران الشرك ، حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو فى الأصل المائل المنحرف ؛ والمراد به المنحرف عن الزيغ إلى إسلام الوجه لله ، والبرية : الخليقة ، خشى الله : أى خاف عقابه .

المعنى الجملى

كان اليهود والنصارى من أهل الكتاب فى ظلام دامس من الجهل بما يجب الاعتقاد به والسير عليه من شرائع أنبيائهم ، إلا من عصم الله ، لأن أسلافهم غيروا وبدّلوا فى شرائعهم ، وأدخلوا فيها ماليس منها ، إما لسوء فهمهم لما أنزل على أنبيائهم ، و إما لاستحسانهم ضروبا من البدع توهموها مؤيدة للدين ، وهى هادمة لأركانه ، و إما لإفحام خصومهم ، والرغبة فى الظفر بهم .

وقد توالت على ذلك الأزمان ، وكلما جاء جيل زاد على ماوضعه مَن قبلهم حتى خَفيت معالم الحق ، وطمست أنوار اليقين .

وكان إلى جوار هؤلاء عبدة الأوثان من العرب وغيرهم ممن مرنت نفوسهم على عبادتها ، والخنوع لها ، وأصبح من العسير تحويلهم عنها ، زعما منهم أن هذا دين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وكان الجدل ينشب حينا بين المشركين واليهود ، وحينا آخر بين المشركين والنصارى ، وكان اليهود يقولون للمشركين: إن الله سيبعث نبيا من العرب من أهل مكة ، وينعتونه لهم ، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصروه وآزروه ، واستنصروا به عليهم حتى يبيدهم .

قد كان هذا وذاك ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قام المشركون يناوئونه

ويرفعون راية العصيان فى وجهه ، وألَّبوا الناس عليه ، وآذوا كل من اتبعه وسلك سبيله ممن أنار الله بصائرهم ، وشرح صدورهم لمعرفة الحق .

كذلك قلب له اليهود ظهر المِجَنّ بعد أن كانوا من قبل يستفتحون به ، إذ وجدوا نعته عندهم فى التوراة ، فزعموا أن ماجاء به من الدين ليس بالبِدْع الجديد ، بل هو معروف فى كتبهم التى جاءت على لسان أنبيائهم ، فلا ينبغى أن يتركوا ماهم عليه من الحق ، ليتبعوا رجلا ما جاء بأفضل مما بين أيديهم ، بل قد بلغ الأمر بهم أن كانوا عليه مع المشركين الذين كانوا يعاندونهم ويتهددونهم بأنهم سيتبعون هذا النبي وينصرونه .

ففى الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الذين يجحدون واضح الحق ، ويغمضون أعينهم عن النظر فيه — نزلت هذه السورة .

الإيضاح

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) أى لم يكن الذين جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا نبوته من اليهود والنصارى والمشركين بمفارقين لكفرهم ، تاركين لما هم عليه من الغفلة عن الحق ، والوقوف عند ما كان عليه آباؤهم ولو كانوا لا يعقلون شيئا ، حتى يأتيهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيُحدِث مجيئه رجّة فيما رسخ من عقائدهم ، وتمكن من عاداتهم ، ومن ثم أخذوا يحتجون لعنادهم بأن ماجاء به هو ما كان بين أيديهم وليس بمستحسن أن يتبع ، والبقاء على ماهم عليه أجدر وأجمل ، والسير على نهج الآباء أشهى إلى النفس وأسلم .

ثم فسر البينة التى تعرّفهم وجه الحق فقال :

(رسول من الله يتلو صحفا . مطهرة فيها كتب قيمة) أى هذه البينة هى محمد صلى الله عليه وسلم يتلو لهم صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيغ والتدليس ، والتى

تنبعث منها أشعة الحق كما قال : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » وفيها الصحيح القويم من كتب الأنبياء السابقين كموسى وعيسى وإبراهيم كما قال : « وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » ، وقال : « إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ » .

وقد يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته ، فإن كل سورة منه كتاب قويم ، أوالأحكام والشرائع التى تضمنها كلام الله ، والتى بها يتبين الحق من الباطل كما قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وقصارى ذلك — إن حال الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بعد مجىء الرسول تخالف حالهم قبلها ، فقد كانوا قبل مجيئه كفارا يتيهون فى عماية من الأهواء والجهالات ، فلما بعث آمن به قوم منهم ، فلم تبق حالهم كما كانت قبل ، إلى أنهم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانوا جازمين بما هم عليه ، واثقين بصحته ، فلما بعث إليهم تغيرت حال جميعهم ، فمنهم من آمن به ، واعتقد أن ما كان فيه ضلال وباطل ، ومنهم من لم يؤمن ولكنه صار مترددا فى صحة ماهو عليه ، أوهو واثق بعدم صحته ، ولكن يمنعه العناد والتكبر والاقتداء بالآباء من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم سلّى رسوله صلى الله عليه وسلم عن تفرق القوم فى شأنه فقال :

(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) أى لا تبخع نفسك عليهم حسرات ، ولا يكوننّ فى صدرك حرج منهم ، فإن هذا شأنهم الذى درجوا عليه ، ودَيْدَنهم وديدن أسلافهم الذين بدلوا وافتروا على أنبيائهم ، وتفرقوا طرائق قددا حتى صار أهل كل مذهب يبطل ماعند غيره بغيا وعدوانا وقولا بالتشهى والهوى ، ولم يكن تفرقهم لقصور حجتك أوخفاء شأنك عليهم ، فهم إن يجحدوا

بينتك فقد جحدوا بينة من قبلك ، وإن أنكروا نبوتك فقد أنكروا آيات الله بعد ما استيقنتها أنفسهم .

وإذا كانت هذه حال أهل الكتاب فما ظنك بالمشركين وهم أعرق فى الجهالة وأسلس مقادة للهوى .

ثم أنبهم ووبخهم على ماصاروا إليه من الأفعال ، وعلى مابلغوه من فساد العقل والضلال فقال :

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) أى إنهم تفرقوا واختلفوا وهم لم يؤمروا إلا بما يصلح دينهم ودنياهم ، وما يجلب لهم سعادة فى معاشهم ومعادهم من إخلاص لله فى السر والعلن ، وتخليص أعمالهم من الشرك به ، واتباع ملة إبراهيم الذى مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة له كما قال : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وقال : «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ».

والمراد من إقامة الصلاة الإتيان بها مع إحضار القلب لهيبة المعبود ، ليعتاد الخضوع له ؛ وإيتاء الزكاة إنفاقها فيما عين لها فى الكتاب الكريم من المصارف .

(وذلك دين القيمة) أى هذا الذى ذكر من إخلاص العبادة للخالق ، والميل عن الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو الدين الذى جاء فى الكتب القيمة .

وقصارى ماسلف — إن أهل الكتاب افترقوا فى أصول الدين وفروعه ، مع أنهم ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله ويخلصوا له فى عقائدهم وأعمالهم ، وألا يقلدوا فيها أبا ولا رئيسا ، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل مايعرض لهم من خلاف .

وهذا مانعاه الله من حال أهل الكتاب فى افتراقهم فى دينهم ، فما بالنا نحن المسلمين وقد ملأنا ديننا بدعا ومحدثات ، وتفرقنا فيه شيعا ، أفليس مانحن فيه من ذل وهوان ، وضعف بين الأمم جزاء من ربنا لما صرنا إليه من انحراف عن منهج الشرع القويم ، والسير على الصراط المستقيم ؟ .

ثم بين جزاء الذين جحدوا رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها) أى إن هؤلاء الذين دسّوا أنفسهم بقبيح الشرك واجتراح المعاصى ، وإنكار الحق الواضح بعد أن عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، يجازيهم ربهم بالعقاب الذى لايخلصون منه أبدا ، فيدخلهم نارا تلظى جزاء ما كسبت أيديهم ، وجزاء إعراضهم عما دعا إليه الداعى ، وهدت إليه الفطرة .

ثم حكم عليهم بحكم آخر فقال :

(أولئك هم شر البرية) أى هم شر الخليقة على الإطلاق ، إذ منكر الحق بعد معرفته ، وقيام الدليل عليه منكر لعقله ، جالب لنفسه الدمار والوبال .

وبعد أن ذكر جزاء الجاحدين الكافرين ، أردفه جزاء المؤمنين المخبتين فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) أى إن الذين سطع نور الدليل فى قلوبهم ، فاهتدوا به وصدقوا بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وعملوا صالح الأعمال ، فبذلوا النفس فى سبيل الله وجهاد أعدائه ، وبذلوا نفيس المال فى أعمال البر ، وأحسنوا معاملة خلقه ، أولئك هم خير الخليقة ، لأنهم بمتابعة الهدى أدّوا حق العقل الذى شرفهم الله به ، وبعملهم للصالحات حفظوا الفضيلة التى جعلها الله قوام الوجود الإنسانى .

ثم بين ماسيلقون من جزاء عند ربهم فقال :

(جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) أى هؤلاء يجازيهم ربهم بجنات يقيمون فيها أبدا ، وفيها من اللذائذ ماهو أكمل وأوفر من لذات الدنيا .

وعلينا أن نؤمن بالجنة ولا نبحث عن حقيقتها ، ولا أين موضعها ، ولا كيف نتمتع فيها ، فإن علم ذلك عند ربنا لايعلمه إلا هو ، فهو من علم الغيب الذى استأثر بعلمه .

ثم ذكر أسباب هذا الجزاء فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى إنهم حازوا رضا الله بالتزام حدود شريعته ، فحمدوا مغبة أعمالهم ، ونالوا ما يرضيهم فى دنياهم وآخرتهم .

(ذلك لمن خشى ربه) أى هذا الجزاء الحسن إنما يكون لمن ملأت قلبه الخشية والخوف من ربه .

وفى ذلك تحذير من خشية غير الله ، وتنفير من إشراك غيره به فى جميع الأعمال؛ كما أن فيه ترغيبا فى تذكر الله ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصا ، إلى أن فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفى فى نيل ما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء ، لأن الخشية لم تحلّ قلوبهم ، ولم تهذب نفوسهم .

نسأل الله أن يطهر قلوبنا ، وينير بصائرنا ، حتى لا نرهب سواه ، ولا نخشى إلا إياه ، والحمد لله رب العالمين .

سورة الزلزلة

هى مدنية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة النساء .

ووجه مناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر فيما سلف جزاء المؤمنين والكافرين ، بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا ؟ (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

شرح المفردات

الزلزلة : الحركة الشديدة مع اضطراب ، والأثقال: واحدها ثِقْل؛ وهو فى الأصل متاع البيت كما قال : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » والمراد به هنا ما فى جوف الأرض من الدفائن كالموتى والكنوز ، وتقول أوحيت له وأوحيت إليه ووحى له ووحى إليه ، أى كلمه خفية أو ألهمه كما جاء فى قوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » يصدر : أى يرجع ، فالوارد هو الآتى للماء ليشرب أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه ، أشتاتا : واحدهم شتيت أى متفرقين متمايزين لا يسير محسنهم ومسيئهم فى طريق واحدة ، الذرة : النملة الصغيرة ، أوهى الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ، ومثقال الذرة: وزنها ، وهو مثل فى الصغر.

سبب نزول هذه السورة

كان الكفار كثيرا ما يسألون عن يوم الحساب فيقولون : « أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » ويقولون : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ » وما أشبه ذلك ، فذكر لهم فى هذه السورة علامات ذلك فحسب ، ليعلموا أنه لا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم الذى يعرض الناس فيه على ربهم لعقاب المذنبين وثواب المؤمنين .

الإيضاح

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) أى إذا اضطربت الأرض وتحركت حركة شديدة .

ونحو الآية قوله : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا » ، وقوله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ » .

وفى ذلك إيماء إلى شدة الحال يومئذ ، ولفت لأنظار الكافرين إلى أن يتدبروا

الأمر ويعتبروا ، وكان يقال لهم : إذا كان الجماد يضطرب لهول هذا اليوم ، فهل لكم أن تستيقظوا من غفلتكم ، وترجعوا عن عنادكم ؟

(وأخرجت الأرض أثقالها) أى وأخرجت الأرض مافى جوفها من الكنوز والدفائن والأموات ، فإنها لشدة اضطرابها يثور باطنها ويقذف مافيه .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ » .

ومثال هذا ماتراه فى حياتنا الدنيا من جبال النار الثائرة (البراكين) كما حدث فى إيطاليا سنة ١٩٠٩ م من ثوران بركان بزوف وابتلاعه مدينة مسينا ولم يُبق من أهلها ديّاراً ولا نافخ نار .

(وقال الإنسان مالها؟) أى وقال من يكون من الناس مشاهداً لهذا الزلزال الذى يخالف أمثاله فى شدته ، ويحار العقل فى معرفة أسبابه ، ويصيبه الدّهش مما يرى ويبصر : مالهذه الأرض ، وما الذى وقع لها مما لم يعهد له نظير من قبل ؟ كما جاء فى آية أخرى : « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُمْ بِسُكَارَى » .

(يومئذ تحدّث أخبارها) أى فى ذلك الوقت وقت الزلزلة تحدثك الأرض أحاديثها ، والمراد أن حالها ومايقع فيها من الاضطراب والانقلاب ، ومالم يعهد له نظير من الخراب ؛ تُعلِم السائل وتُفْهِمه أن ماتراه لم يكن لسبب من الأسباب التى وضعت لأمثاله مما نراه حين استقر نظام هذا الكون .

ثم بين سبب مايرى فقال :

(بأن ربك أوحى لها) أى إن ما يكون للأرض يومئذ إنما هو بأمر إلهى خاص ، فيقول لها : كونى خرابا كما قال لها حين بدء النشأة الأولى كونى أرضا ، وإنما سمى ذلك وحيا ، لأنه أتى على خلاف ماعهد منذ نشأة الأرض ، قاله الأستاذ الإمام .

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) أى يوم يقع الخراب العظيم لهذا العالم الأرضى ، ويظهر ذلك الكون الجديد كون الحياة الأخرى ، يصدر الناس متفرقين

متمايزين ، فلا يكون محسن فى طريق واحد مع مسيء ، ولا مطيع مع عاص ، ليريهم الله جزاء ماقدمت أيديهم ، ويجنوا ثمر ماغرسته أيمانهم .

ثم فصل ذلك بقوله :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره) أى فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فانه يجد جزاءه ، ومن يعمل الشر ولو قليلا يجد جزاءه ، لافرق بين المؤمن والكافر .

وحسنات الكافرين لاتخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون فى الشقاء ، ومانطق من الآيات بحبوط أعمال الكافرين وأنها لاتنفعهم ، فالمراد به أنها لاتنجيهم من عذاب الكفر و إن خففت عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم من السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شيء ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . فقوله : « فلا تظلم نفس شيئا » صريح فى أن المؤمن والكافر فى ذلك سواء . وأن كلا يوفّى يوم القيامة جزاءه ؛ وقد ورد أن حاتما يخفف عنه لكرمه ، وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبى صلى الله عليه وسلم ، هذا تلخيص ماقاله الأستاذ الإمام فى تفسير الآية .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقصدين :

(١) اضطراب الأرض يوم القيامة ودهشة الناس حينئذ .

(٢) ذهاب الناس لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم .

سورة العاديات

هى مكية، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد سورة العصر.

ووجه المناسبة بينها وبين ماقبلها — أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ولا يستعدون لحياتهم الثانية، بتعويد أنفسهم فعل الخير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١).

شرح المفردات

العاديات: واحدها عادية من العدو وهو الجرى، والضبح: صوت أنفاس الخيل حين الجرى. قال عنترة:

والخيل تكدح حين تضـــبح فى حياض الموت ضبحا

والموريات: واحدها مورية من الإيراء وهو إخراج النار تقول: أورى فلان إذا أخرج النار بزند ونحوه، والقدح: الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر، والمغيرات: واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقتله أو يأسره، أو يستلب ماله، والإثارة: التهييج وتحريك الغبار، والنقع: الغبار، وسطن:

أى توسطن تقول وسطتُ القوم أسطهم وسْطا : إذا صرت فى وسطهم ، والكنود: الكفور ، يقال كند النعمة أى كفرها ولم يشكرها وأنشدوا :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنودا لنعماء الرجال يُبَعَّدِ

وأصل الكنود الأرض التى لاتنبت شيئا ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات ، لشهيد : أى لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه ، والخير : المال كما جاء فى قوله : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » ، لشديد : أى لبخيل ، بعثر : أى بعث وأثير ، وحصِّل : أى أظهر محصلا مجموعا ، مافى الصدور : أى مافى القلوب من العزائم والنوايا .

الإيضاح

(والعاديات ضبحا) أى قسما بالخيل التى تعدو وتجرى ويسمع لها حينئذ ضبح أى زفير شديد .

(فالموريات قدحا) أى والخيل التى تخرج النار بحوافرها ويتطاير منها الشرر أثناء الجرى .

(فالمغيرات صبحا) أى والخيل التى تعدو لتهجم على العدو وقت الصباح ، لأخذه على غير أهبة واستعداد .

(فأثرن به نقعا) أى فهيجن فى الصبح غبارا لشدة عدوهن .

(فوسطن به جمعا) أى فتوسطن جمعا من الأعداء ففرقنه وشتتن شمله .

أقسم سبحانه بالخيل التى لها هذه الصفات ، والتى تعمل تلك الأعمال ، ليعلى من شأنها فى نفوس عباده المؤمنين أهل الجد والعمل ، وليعْنَوا بتربيتها وتعويدها الكرّ والفرّ ، وليحملهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها ليكون كل امرئ مسلم منهم عاملا ناصبا إذا جدّ الجد واضطرت الأمة إلى صد عدوّ أو بعثها باعث على كسر شوكته ، يرشد إلى ذلك قوله فى آية أخرى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وفى إقسام الله بها بوصف العاديات المغيرات الموريات ـ إشارة إلى أنه يجب أن تقنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع لا للخيلاء والزينة ، وأن الركوب الذى يحمد ما يكون لكبح جماح الأعداء ، وخضد شوكتهم ، وصد عدوانهم .

وقصارى ذلك — إن للخيل فى عدوها فوائد لا يحصى عدّها ، فهى تصلح للطلب ، وتسعف فى الهرب ، وتساعد جد المساعدة فى النجاء ، والكر والفر على الأعداء ، وقطع شاسع المسافة فى الزمن القليل .

ثم ذكر المحلوف عليه بتلك الأيمان الشريفة فقال :

(إن الإنسان لربه لكنود) أى إن الإنسان طبع على نكران الحق وجحوده وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له إلا من عصمهم الله وهم الذين روّضوا أنفسهم على فعل الفضائل ، وترك الرذائل ، ما ظهر منها وما بطن .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الكنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رِفْده » أى إنه لا يعطى شيئا مما أنعم الله به عليه ، ولا يرأف بعباده كما رأف به ؛ فهو كافر بنعمته ، مجانف لما يقضى به العقل والشرع .

وسر هذه الجبلّة ـ أن الإنسان يحصر همه فيما حضره ، وينسى ماضيه ، وما عسى أن يستقبله ؛ فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرته غفلته ، وقسا قلبه ، وامتلأ جفوة على عباده .

(وإنه على ذلك لشهيد) أى وإنه مع كنوده ولجاجته فى الطغيان ، وتماديه فى الإنكار والبهتان ، إذا خُلِّىَ ونفسه رجع إلى الحق ، وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على نعمه ـ إلى أن أعماله كلها جحود لنعم الله ، فهى شهادة منه على كنوده ، شهادة بلسان الحال ، وهى أفصح من لسان المقال .

(وإنه لحب الخير لشديد) أى وإن الإنسان بسبب محبته للمال وشغفه به وتعلقه بجمعه وادخاره ــ لبخيل شديد فى بخله ، حريص متناهٍ فى حرصه ، ممسك مبالغ فى إمساكه ، متشدد فيه ، قال طَرَفَة :

أرى الموت يَعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدِّد

ثم هدد الإنسان الذى هذه صفاته وتوعده بقوله :

(أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصّل ما فى الصدور ؟ . إن ربهم بهم يومئذ لخبير) أى أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله عليه ، الجاحد لفضله وأياديه ــ أنه سبحانه عليم بما تنطوى عليه نفسه ، وأنه مجازيه على جحده وإنكاره يوم يحصّل ما فى الصدور ويبعثر ما فى القبور ؟ .

وقد عبر سبحانه عن مجازاتهم على ما كسبت أيديهم ــ بالخبرة بهم والعلم المحيط لأعمالهم ، وهذا كثير فى الكلام ، تقول لشخص فى معرض التهديد : سأعرف لك عملك هذا مع أنك تعرفه الآن قطعا ، وإنما عرفانه الآتى هو ظهور أثر المعرفة وهو مجازاته بما يستحق ، وقد جاء على هذا النسق قوله تعالى : «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا» مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلا ؛ فالمراد سنجازيهم بما قالوا الجزاء الذى هم له أهل . والله أعلم .

سورة القارعة

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة قريش .

ومناسبتها لما قبلها ــ أن آخر السابقة كان فى وصف يوم القيامة ، وهذه السورة بأسرها فى وصف ذلك اليوم ، وما يكون فيه من الأهوال .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) .

الإيضاح

(القارعة) من أسماء القيامة كالحاقة والصاخّة والطامّة والغاشية ؛ وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها ، كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى حادثة عظيمة تقرعهم وتصك أجسادهم فيألمون لها .

(ما القارعة ؟) أى أىّ شئ هى القارعة ؛ وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها كأنها لشدة ما يكون فيها من الأهوال ، التى تفزع منها النفوس ، وتدهش لها العقول ، يصعب تصوّرها ، ويتعذر إدراك حقيقتها .

ثم زاد أمرها تعظيما فقال :

(وما أدراك ما القارعة) أى وأىّ شىء يعرّفك بها ، كأنه لاشىء يحيط بها ؛ فهما تخيلت أمرها وحدّست شأنها فهى أعظم من تقديرك .

ولما ذكر سبحانه أن إدراك حقيقتها مما لاسبيل إليه ، أخذ يعرف بزمانها الذى تكون فيه ، وما يحدث للناس حينئذ من الأهوال فقال :

(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) الفراش : هو الحشرة التى تراها تترامى على ضوء السراج ليلا ، وبها يضرب المثل فى الجهل بالعاقبة قال جرير :

إن الفرزدق ما علمتَ وقومَهُ مثلُ الفراش غَشِينَ نارَ المُصْطَلِي

والمبثوث : المفرق المنتشر ، تقول بثثت الشيء : أى فرقته .

أى إن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين على وجوههم لايدرون ماذا يفعلون ، ولا ماذا يراد بهم كالفراش الذى يتجه إلى غير جهة واحدة ، بل تذهب كل فراشة إلى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى .

وجاء تشبيههم فى آية أخرى بالجراد المنتشر فى كثرتهم وتتابعهم فقال : « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » .

(وتكون الجبال كالعهن المنفوش) العهن (بكسر العين وسكون الهاء) الصوف ذو الألوان ، والمنفوش : الذى نفش ففرقت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح .

أى إن الجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ، فكيف يكون الإنسان حين حدوثها وهو ذلك الجسم الضعيف السريع الانحلال .

وقد كثر فى القرآن ذكر حال الجبال يوم القيامة فقال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » وقال : « فَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً » وقال : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً » كل ذلك ليبين أن هذه الأجسام العظيمة التى من طبعها الاستقرار والثبات تؤثر فيها هذه القارعة ، فما بالك أيها المخلوق الضعيف الذى لاقوة له ؟

وفى هذا تحذير للإنسان وتخويف له كما لايخفى .

وبعد أن ذكر أوصاف هذا اليوم بما يكون من أحوال بعض الخلائق ـ أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال فقال :

(فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية) يقال ثقل ميزان فلان إذا كان له قدر ومنزلة رفيعة ، كأنه إذا وضع فى ميزان كان له به رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة ، والفضائل الراجحة ، فهؤلاء يجزون النعيم الدائم ويكونون فى عيشة راضية ، تقرّ بها أعينهم ، وتسرّ بها نفوسهم .

ويرى بعض المفسرين أن الذى يوزن هو الصحف التى تكتب فيها الحسنات والسيئات .

ولما ذكر نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر فقال :

(وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) يقال خف ميزانه : أى سقطت قيمته فكأنه ليس بشىء حتى لو وضع فى كفة ميزان لم يرجح بها على أختها ، ومن كان فى الدنيا كثير الشر ، قليل فعل الخير ، فدسّى نفسه بالشرك واجتراح المعاصى وعاث فى الأرض فسادا ـ لم يكن شيئا ، فلا ترجح له كفة ميزان لو وضع فيها .

وعلى الجملة فعلينا أن نؤمن بما ذكره الله من الميزان فى هذه الآية وفى قوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » ومن وزن الأعمال ، وتمييز مقدار لكل عمل ، وليس علينا أن نبحث وراء ذلك ، فلا نسأل كيف يزن ، ولا كيف يقدر ؟ فهو أعلم بغيبه ، ونحن لا نعلم .

أما أن الميزان له لسان وكفّتان فهذا لم يرد به نص عن المعصوم يلزمنا التصديق به ، وكيف يوزن بهذا الميزان الذى تعلمه الإنسان فى مهد البداوة الأولى ، ويُترك ما هو أدق منه مما اختُرِع فيما بعد وهُدى إليه الناس ؛ على أن جميع ما عمله البشر فهو ميزان للأثقال الجسمانيــة لا ميزان للمعانى المعقولة كالحسنات والسيئات ، فلنفوّض أمر ذلك إلى عالم الغيب .

والمراد من كون أمه هاوية ـ أن مرجعه الذى يأوى إليه مهواة سحيقة فى جهنم يهوى فيها ، كما يأوى الولد إلى أمه ، قال أمية بن أبى الصلت :

فالأرض معْقِلُنا وكانت أمَّنا	فيها مقابرنا وفيها نولَد

(وما أدراك ما هيه ؟) أى وأىّ شىء يخبرك بما هى تلك الهاوية ، وأنها أىّ شىء تكون ؟.

ثم فسرها بعد إبهامها فقال :

(نار حامية) أى هى نار ملتهبة يهوى فيها ليَلقى جزاء ما قدّم من عمل ، وما اجترح من سيئات .

وفى هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها لم تكن حامية ، وذلك دليل على قوة حرارتها ، وشدة استعارها .

وقانا الله شر هذه النار الحامية ، وآمننا من سعيرها بمنه وكرمه .

سورة التكاثر

هى مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الكوثر .

ومناسبتها لما قبلها ــ أن فى الأولى وصف القيامة و بعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار ، وأن فى هذه ذكر الجحيم وهى الهاوية التى ذكرت فى السورة السابقة ، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال فى الحياة الدنيا ، وهذا بعض أحوال الآخرة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) .

شرح المفردات

اللهو : ما يشغل الإنسان ، سواء أكان مما يسرّ أم لا ، ثم خص بما يشغل مما فيه سرور ؛ وإذا أُلهِيَ المرء بشىء فهو غافل به عما سواه ، والتكاثر : التباهى بالكثرة بأن يقول كل للآخر أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك ولدا ، أنا أكثر منك رجال ضرب وحرب ، حتى زرتم المقابر : أى حتى صرتم من الموتى ، قال جرير :

زار القبورَ أبو مالك فأصبح ألأمَ زُوّارها

علم اليقين : أى علم الأمر الميقون الموثوق به ، والجحيم: دار العذاب عين اليقين : أى عين هى اليقين نفسه .

أسباب نزول السورة

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بُرَيْدة قال : نزلت « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » فى قبيلتين من الأنصار وهما بنو حارثة وبنو الحرث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى : مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : أفيكم مثل فلان وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله هذه السورة .

الإيضاح

(ألهاكم التكاثر) أى شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأنصار والأشياع ، وصرفكم ذلك عن الجد فى العمل ، فكنتم فى لهو بالقول عن الفعل ، وفى غرور وإعجاب بالآباء والأعوان ، وصرفكم ذلك عن توجيه قواكم إلى العمل بما فرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهليكم ، وما زال ذلك ديدنكم ودأبكم الذى سرتم عليه .

وفى صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : ألهاكم التكاثر قال : يقول ابن آدم مالى ومالك ، يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقتَ فأمضيتَ ، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس » وروى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان : ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

قال الأستاذ الإمام : وقد يكون معنى التكاثر التغالب فى الكثرة ، أى طلب كل واحد منهما أن يكون أكثر من الآخر مالا أوجاها ، والسعى إلى ذلك لمجرد المغالبة ، لايبغى الساعى فى سعيه إلا أن يكون ماله أكثر من مال الآخر ، أو أن يكون عضده أقوى من عضده ، لينال بذلك لذة التعلى والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الغالب من طلاب الثروة والقوة ، ولا ينظر الدائب منهم فى عمله إلى تلك الغاية الرفيعة ، غاية البذل مما يكسب فى سبل الخير ، أو النهوض بالقوة إلى نصر الحق ، وحمل المبطلين على معرفته والتوجه إليه ، ثم المحافظة بعد ذلك عليه .

وهذا معنى معقول ذهب إليه بعض المفسرين ، وهو يتفق كل الاتفاق مع مايفهم من لفظ (ألهاكم) فان الذى يلهى الناس عن الحق فى كل حال ، ويصرف وجوههم عنه إلى الباطل ، هو طمع كل واحد منهم أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ، ليعلو عليه ، أو ليستخدمه لسلطانه ، بقدر مايدخل فى إمكانه ، أما التفاخر بالأقوال فانما يلهيهم فى بعض الأحوال اهـ .

(حتى زرتم المقابر) أى حتى هلكتم وصرتم من الموتى ، فأضعتم أعماركم فيما لا يجدى فائدة ، ولا يعود عليكم بعائدة ، فى حياتكم الباقية الخالدة .

قال العلماء : إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسى ، لأنها تذكر بالموت والآخرة ، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد فى الدنيا وترك الرغبة فيها ،

ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهّد فى الدنيا وتذكركم الآخرة » .

كما لاخلاف فى منع زيارتها إذا حدث فى ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الدين كاختلاط الرجال بالنساء وحدوث فتن لاتحمد عقباها .

ثم نبههم إلى خطإ ما هم فيه ، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التى لها وخيم العاقبة فقال :

(كلا سوف تعلمون) أى ازدجروا عن مثل هذا العمل الذى لاتكون عاقبته إلا القطيعة والهجران ، والضغينة والأحقاد ، والجئوا إلى التناصر على الحق ، والتكاتف على أعمال البر ، والتضافر على مافيه حياة الأفراد والجماعات ، من تقويم الأخلاق ، وتطهير الأعراق ، وإنكم سوف تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من التكاثر إذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح نافع لكم فى العقبى .

ثم أكد هذا وزاد فى التهديد فقال :

(ثم كلا سوف تعلمون) وهذا وعيد بعد وعيد فى مقام الزجر والتوبيخ كما يقول السيد لعبده : أقول لك لاتفعل ، ثم أقول لك لاتفعل .

(كلا لو تعلمون علم اليقين) أى ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم ، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثر ، وصرفكم إلى صالح الأعمال ، وإن ماتدعونه علما ليس فى الحقيقة بعلم ، وإنما هو وهم وظن لايلبث أن يتغير ، لأنه لايطابق الواقع ، والجدير بأن يسمى علما هو علم اليقين المطابق للواقع ، بناء على العيان والحس ، أو الدليل الصحيح الذى يؤيده العقل ، أو النقل الصحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وإنما ذكر سبحانه هذا زيادة فى زجرهم لتغريرهم بأنفسهم ، فقد جرت عادة الغافلين أنهم إذا ذكروا بعواقب حالهم أن يقولوا : إنهم يعلمون العواقب ، وأنهم فى منتهى اليقظة وسداد الفكرة .

ثم ذكر لهم بعض ماينتهى إليه هـذا اللهو ، وهو عذاب الآخرة بعد خزى الدنيا فقال :

(لترونّ الجحيم) أى إن دار العذاب التى أعدت لمن يلهو عن الحق لاريب فيها ولترونّها بأعينكم ، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم ، لتنبهكم إلى ماهو خير لـكم مما تلهون به .

والمراد برؤية الجحيم ذوق عذابها ، وهذا استعمال شائع فى الـكتاب الـكريم .

ثم كرر ذلك للتأكيد فقال :

(ثم لترونّها عين اليقين) أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه ، إلى أى دين أو إلى أى شخص كانت نسبتكم فلتتقوا الله ربكم ، ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها ، ولتنظروا إلى ما أنتم فيه من نعمة ، ولترعوا حق الله فيها ، فاستعملوها فيما أمر أن تستعمل فيه ، ولا تجترحوا السيئات وتقترفوا المنكرات ، وإنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنكم ، ويزحزكم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامى وتلقيبكم بألقابه ، مع مخالفتكم أحكام القرآن وعملـكم عمل أعداء الإسلام .

ثم شدد عليهم وزاد فى تأنيبهم فقال :

(ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم) أى إن هذا النعيم الذى تتفاخرون به وتعدونه مما يباهى به بعضكم بعضا — ستسألون عنه — ماذا صنعتم به ؟ هل أديتم حق الله فيه وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به ، فإن لم تفعلوا ذلك كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء .

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « أىُّ نعيم نسأل عنه يارسول الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ظلال المساكن والأشجار ، والأخبية التى تقيكم الحر والبرد ، والماء البارد فى اليوم الحار » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح آمنا فى سِرْبه ، معافى فى بدنه ، عنده قوتُ يومه ، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها » .

اللهم وفقنا لشكر نعمتك وأداء حقها ، لنجد الجواب حاضرا حين سؤالنا عنها ، اللهم آمين .

سورة العصر

وهى مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة الشرح .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر فى السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يلهى عن طاعة الله ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار ، وموقعة له فى الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه ، فكأن هذا تعليل لما سلف — إلى أنه ذكر فى السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه ، وجرى مع شيطانه حتى وقع فى التهلكة ، وهنا ذكر من تجمل بأجمل الطباع ، فآمن بالله وعمل الصالحات ، وتواصى مع إخوانه على الاستمساك بعُرى الحق ، والاصطبار على مكارهه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) .

شرح المفردات

العصر : الدهر ، والإنسان : هو هذا النوع من المخلوقات ، والخسر والخسران : النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ماينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة ،

والحق : هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع، أو عيان ومشاهدة ، أو شريعة صحيحة جاء بها نبى معصوم ، والصبر : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة فى العمل الطيب ، وتهوّن عليها احتمال المكروه فى سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة ، والتواصى بالحق : أن يوصى بعضهم بعضا بما لاسبيل إلى إنكاره وهو كل فضيلة وخير ، والتواصى بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضا به ويحثه عليه ، ولا يكون ذلك نافعا مقبولا إلا إذا كمّل المرء نفسه به وإلا صدق عليه قول أبى الأسود الدؤلى :

يأيها الرجل المعلم غيرَه ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السّقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم

الإيضاح

(والعصر) أقسم ربنا سبحانه بالدهر لما فيه من أحداث وعبر يستدل بها على قدرته وبالغ حكمته وواسع علمه ، انظر إلى مافيه من تعاقب الليل والنهار وهما آيتان من آيات الله كما قال : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإلى مافيه : من سراء وضراء ، وصحة وسقم ، وغنى وفقر ، وراحة وتعب ، وحزن وفرح ؛ إلى نحو ذلك مما يسترشد به حصيف الرأى إلى أن للكون خالقا ومدبّرا ، وهو الذى ينبغى أن يُوجه إليه بالعبادة ويدعى لكشف الضر وجلب الخير — إلى أن الكفار كانوا يضيفون أحداث السوء إلى الدهر ، فيقولون هذه نائبة من نوائب الدهر ، وهذا زمان بلاء ، فأرشدهم سبحانه إلى أن الدهر خَلْق من خلقه ، وأنه ظرف تقع فيه الحوادث خيرُها وشرُّها ، فإن وقعت للمرء مصيبة فبما كسبت يداه ، وليس للدهر فيها من سبب .

(إن الإنسان لفى خسر) أى إن هذا الجنس من المخلوقات — لخاسر فى أعماله ضروبا من الخسران إلا من استثناهم الله ؛ فأعمال الإنسان هى مصدر شقائه ، لا الزمان

ولا المكان ، وهى التى توقعه فى الهلاك ، فذنب المرء فى حق بارئه ، ومن يمنّ عليه بنعمه الجليلة ، وآلائه الجسيمة ، جريمة لاتعدلها جريمة أخرى .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فاعتقدوا اعتقادا صحيحا أن للعالم كله إلهاً خالقا قادراً يرضى عن المطيع ، ويغضب على العاصى ، وأن هناك فرقا بين الفضيلة والرذيلة ، فدفعهم ذلك إلى عمل البر والخير — وجماع ذلك نفع المرء نفسه ونفعه للناس أجمعين .

وخلاصة أمرهم — أنهم باعوا الفانى الخسيس ، واشتروا الباقى النفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات ، فيالها من صفقة ما أربحها ، ومنقبة جامعة للخير ما أوضحها .

(وتواصوا بالحق) أى وأوصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذى لاسبيل إلى إنكاره ، ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله من إيمان بالله عز وجل واتباع لكتبه ورسله فى كل عقد وعمل .

(وتواصوا بالصبر) أى وأوصى بعضهم بعضا بالصبر عن المعاصى التى تشتاق إليها النفس بحكم الجبلّة البشرية ، وعلى الطاعات التى يشق عليها أداؤها ، وعلى مايبتلى الله تعالى به عباده من المصايب ويتلقاها بالرضا ظاهرا وباطنا ، فلا بد للنجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكّنوه من قلوبهم ، ثم يحمل بعضهم بعضا على سلوك طريقه ، وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات التى لاقرار للنفوس عليها ، ولا دليل يهدى إليها .

وخلاصة ماسلف — إن الناس جميعا فى خسران إلا من اتصفوا بأربعة أشياء: الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ؛ فيعملون الخير ويدعون إلى العمل به ، ولا يزحزحهم عن الدعوة إليه مايلاقونه من مشقة وبلاء .

والإنسان جميعه خسر مساعيَه وضلّ مناهجه ، وصرف عمره فى غير مطالبه ، فهو قد جاء إلى الأرض ليخلص نفسه من الرذائل ويتحلى بالفضائل ، حتى إذا رجع

إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحا ، وأمضى سلاحا ، لكنه حين رجع إلى مقره في عالم السموات بالموت لم يجد إلا نقصا يحيط به ، وجهلا يرديه ، فندم إلا طائفة منه عاشوا في الدنيا مفكرين ، فآمنوا بأنبيائهم وصدقوا برسلهم ، وأحبوا بني جنسهم ، وأحسنوا إلى إخوانهم فساعدوهم بأنفسهم وأموالهم ، وصاروا معهم متعاضدين متعاونين ، وصبروا على ما نزل بهم من الحدثان ، ورُموا به من البهتان ، فهؤلاء في الدنيا يفوزون بما يريدون ، وفي الآخرة بالنعيم يفرحون .

جعلنا الله في زمرة أولئك العاملين الذين تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

سورة الهُمَزَة

هي مكية ، وآياتها تسع ، نزلت بعد سورة القيامة .

ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر سبحانه في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله — ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال .

أسباب نزول هذه السورة

قال عطاء والكلبي : نزلت هذه السورة في الأخنس بن شُرَيق ، كان يلمز الناس ويغتابهم وبخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعُن فيه في وجهه .

وقال محمد بن إسحاق صاحب السيرة : مازلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) أَيَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ؟ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) .

شرح المفردات

ويل : أى خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتقبيح ؛ والمراد به التنبيه على قبح ماسيذكر بعدُ من صفاتهم ، والهمزة اللمزة : الذى يطعن فى أعراض الناس ويظهر عيوبهم ويُحقّر أعمالهم ، تلذذا بالحط منهم وترفعا عنهم ؛ وأصل الهمز : الكسر يقال همز كذا : أى كسره ؛ وأصل اللمز الطعن ، يقال لمزه بالرمح : أى طعنه ثم شاع استعمالهما فيما ذكرنا ، قال زياد الأعجم :

إذا لقيتُك عن شحْطٍ تكاشرنى　　　وإن تغيبتُ كنتَ الهامزَ اللمزَه

وعن مجاهد وعطاء : الهمزة الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل ، واللمزة : الذى يغتاب من خلفه إذا غاب ، ومنه قول حسان :

همزتك فاختضعْتَ بذلّ نفس　　　بقافية تأجّج كالشواظ

عدّده : أى عده مرة بعد أخرى شغفا به ، أخلده : أى ضمن له الخلود فى الدنيا ، والنبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير ، والحُطمة : من الحَطْم وهو الكسر ؛ يقال رجل حُطمة إذا كان شديدا لايبقى على شىء وفى أمثالهم : شرُّ الرِّعاء الحطمة : أى الذى يحطم ماشيته ويكسرها بشدة سوقها قال :

قد لفّها الليل بسواق حُطَمْ　　　ليس براعى إبلٍ ولا غنَم
ولا بجزّار على ظهر وضَمْ

والمراد بها النار ، لأنها تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ، تطّلع على الأفئدة : أى تعلو أوساط القلوب وتغشاها ، مؤصدة : أى مطبقة من أوصدت الباب : أى أغلقته قال :

تحنّ إلى أجبالِ مكة ناقتى ومن دونها أبوابُ صنعاء موصدهْ

والعمد : واحدها عمود ، وممدّدة : أى مطولة من أول الباب إلى آخره .

الإيضاح

(ويل لكل همزة لمزة) أى سخط وعذاب من الله لكل طعّان فى الناس ، أكال للحومهم ، مؤذ لهم فى غيبتهم أو فى حضورهم .

ثم ذكر سبب عيبه وطعنه فى الناس فقال :

(الذى جمع مالا وعدّده) أى إن الذى دعاه إلى الحط من أقدار الناس والزراية بهم هو جمعه للمال وتعديده مرة بعد أخرى، شغفا به وتلذذا بإحصائه ، لأنه يرى أن لاعزّ إلا به ، ولا شرف بغيره ، فهو كلما نظر إلى كثرة ماعنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه ، ثم هو لايخشى أن تصيبه قارعة بهمزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس ، لأن غروره أنساه الموت ، وأعمى بصيرته عن النظر فى مآله ، والتأمل فى أحواله .

ثم بين خطأه فى ظنه فقال :

(يحسب أن ماله أخلده) أى يظن هـذا الهماز العياب أن ماعنده من المـال قد ضمن له الخلود فى الدنيا ، وأعطاه الأمان من الموت ، فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حيّا أبد الدهر ، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سىء الأعمال .

وبعد أن توعد مَن هذه صفاته بشديد العقاب ، وأردفه ذكر السبب الذى حمله على ارتكاب هذه الخلال الممقوتة ، من ظنه أن ماله يضمن له الأمان من الموت ، أعقبه بتفصيل ما أُعِدّ له من هذا العذاب المحتوم فقال :

(كلا لينبذنّ فى الحطمة) أى ازدجر أيها العيّاب عما خيل إليك من أن المال يخلدك ويبقيك ، بل الذى ينفع هو العلم وصالح العمل ، فإنك والله مطروح فى النار لامحالة ، لايُؤْبه لك ولا ينظر إليك .

وأثر عن علىّ كرم الله وجهه من عِظة له: يا كُمَيْلُ هلك خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون مابقى الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة. يريد أن خزان الأموال ممقوتون مكروهون عند الناس ، لأنهم لاينالون منهم شيئا ، أما العلماء فالثناء عليهم مستمر مابقى على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم، ويغترف من بحار فضلهم .

ثم أخذ يهوّل أمر هذه النار ويعظم شأنها فقال :

(وما أدراك ماالحطمة) أى إن هذه الحطمة مما لاتحيط بها معرفتك ، ولا يقف على حقيقتها عقلك ، فلايعلم شأنها ، ولا يقف على كنهها ، إلا من أعدها لمن يستحقها .

ثم فسر هذه الحطمة بعد إبهامها فقال :

(نار الله الموقدة) أى إنها النار التى لاتنسب إلا إليه سبحانه ، إذ هو الذى أنشأها وأعدها لعقاب العصاة والمذنبين ، وفى وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لاتخمد أبدا ، بل هى ملتهبة التهابا لايدرك حقيقته إلا من أوجدها .

ثم وصفها بأوصاف تخالف نيران الدنيا ليؤكد مخالفتها لها فقال :

(١) (التى تطلع على الأفئدة) أى إنها تتغلب على الأفئدة وتقهرها ، فتدخل فى الأجواف حتى تصل إلى الصدور ، فتأكل الأفئدة ، والقلب أشد أجزاء البدن تألما ، فإذا استولت عليه النار فأحرقته ، فقد بلغ العذاب بالإنسان غاية لايقدرها قدرها .

وقد يكون المراد بالاطلاع المعرفة والعلم ، وكأن هـذه النار تدرك ما فى أفئدة الناس يوم البعث ، فتميز العاصى عن المطيع ، والخبيث عن الطيب ، وتفرق بين من اجترحوا السيئات فى حياتهم الأولى ، ومن أحسنوا أعمالهم ، و إنا لنكل أمر ذلك إلى علام الغيوب .

وفى وصفها بالاطلاع على الأفئدة التى أودعت باطن الإنسان فى أخفى مكان منه — إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولا وأكثر تغلبا .

(٢) (إنها عليهم مؤصدة) أى إنها مطبقة عليهم لايخرجون منها، ولا يستطيعون الخروج إذا شاءوا ، فهم « كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا » .

(٣) (فى عمد ممدّدة) قال مقاتل : إن الأبواب أطبقت عليهم ، ثم شدّت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح اهـ .

والمراد بذلك تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء و إحكامها عليهم ، والمبالغة فى ذلك ليودع فى قلوبهم اليأس من الخلاص منها .

وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كون العمد من نار أو حديد ، ولا فى أنها تمتد طولا أو عرضا ، ولا فى أنها مشبهة لعمد الدنيا ، بل نكل أمر ذلك إلى الله ، لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا ، ولم يأتنا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم يبين ذلك ، فالكلام فيه قول بلا علم ، وافتراء على الله الكذب .

نسأل الله أن يحفظنا من غضبه ، و يقينا شر النار الموصدة ، بمنه وكرمه .

سورة الفيل

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الكافرين .

ومناسبتها لما قبلها — أنه بين فى السورة السابقة أن المال لايغنى من الله شيئا ، وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) .

شرح المفردات

الكيد : إرادة وقوع ضر بغيرك على وجه الخفاء ، والتضليل : التضييع والإبطال ، تقول ضلّلت كيد فلان إذا جعلته باطلا ضائعا ، والطير : كل ماطار فى الهواء ، صغيراً كان أو كبيرا ، والأبابيل : الجماعات ، لاواحد له من لفظه ، والسجيل : الطين الذى تحجر ، والعصف : ورق الزرع الذى يبقى بعد الحصاد ، وتعصفه الرياح : فتأكله الماشية ، مأكول : أى أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

المعنى الجملى

ذكّر الله سبحانه نبيه ومن تبلغه رسالته بعمل عظيم دالّ على بالغ قدرته ، وأن كل قدرة دونها فهى خاضعة لسلطانها — ذاك أن قوما أرادوا أن يتعززوا بفيلهم

ليغلبوا بعض عباده على أمرهم ، ويصلوا إليهم بشرّ وأذى ، فأهلكهم الله ، وردّ كيدهم ، وأبطل تدبيرهم ، بعد أن كانوا فى ثقة بعَددهم وعُددهم ولم يفدهم ذلك شيئاً .

قصص أصحاب الفيل كما رواه أرباب السير

حادث الفيل معروف متواتر لدى العرب ، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : ولد عام الفيل ، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك .

وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم — أن قائدا حبشيا ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدى على الكعبة المشرّفة ويهدمها ، ليمنع العرب من الحج إليها ، فتوجه بجيش جرار إلى مكة ، واستصحب معه فيلا أوفيلة كثيرة زيادة فى الإرهاب والتخويف ، ولم يزل سائرا يغلب من يلاقيه ، حتى وصل إلى « المُغَمَّس » وهو موضع بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما جاء لهدم البيت ، ففزعوا منه ، وانطلقوا إلى شعَف الجبال ينظرون ماهو فاعل .

وفى اليوم الثانى فشا فى جند الحبشى داء الجُدَرى والحصبة ، قال عكرمة : وهو أول جُدَرِىّ ظهر ببلاد العرب ، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ماينذر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط ، فذُعِر الجيش وصاحبه وولّوا هاربين ، وأصيب الحبشى ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة ، وأنملة أنملة ، حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء .

الإيضاح

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟) أى ألم تعلم الحال العجيبة والكيفية الهائلة الدالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته ، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام ، فتلك حال قد جاءت على غير مايعرف من

الأسباب والعلل ، إذ لم يعهد أن يجىء طير فى جهة فيقصد قوما دون قوم ، وهم معهم فى جهة واحدة ، فذلك أمارة أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنفاذ مقصد معين .

وإنما عبر عن العلم بالرؤية ، للايماء إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض ، فالعلم به مساو فى قوّة الثبوت مع الوضوح — للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة .

وخلاصة ذلك — إنك قد علمت ذلك علما واضحا لا لبس فيه ولا خفاء .

ثم بين الحال التى وقع عليها فعله فقال :

(ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟) أى إنك لترى ما كان عليه فعل الله بأولئك القوم ، فقد ضيع تدبيرهم ، وخيّب سعيهم .

ثم فصل تدبيره فى إبطال كيد أولئك القوم فقال :

(وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل) أى إنه تعالى أرسل عليهم فرقا من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، فابتلوا بمرض الجدرى أو الحصبة حتى هلكوا .

وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم الذى تحمله الرياح ، فيعلَق بأرجل هذا الطير ، فإذا اتصل بجسم دخل فى مسامه ، فأثار فيه قروحا تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه .

ولا شك أن الذباب يحمل كثيرا من جراثيم الأمراض ، فوقوع ذبابة واحدة ملوّثة بالمكروب على الإنسان كافية فى إصابته بالمرض الذى يحمله ، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجمّ الغفير من الناس ، فإذا أراد الله أن يهلك جيشا كثير العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدا عن مجرى الإلف والعادة ، وهذا أقوى فى الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه ، من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور ، وغرائب الأمور ، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام القهر الإلهى ، وكيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة ، وتقضّ مضجعه بعوضة ، ويؤذيه هبوب الريح .

قال الأستاذ الإمام : فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه مايوصل إليه مادة الجدرى أوالحصبة ، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة ، وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرَمه على وثنيتهم ، حفظا لبيته حتى يرسل إليه من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جُرْم اجترمه ، ولا ذنب اقترفه اه .

(فجعلهم كعصف مأكول) أى فجعل هؤلاء القوم كعصف وقع فيه الأُكال وهو السوس ، أوأكلت الدوابّ بعضه ، وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

وصل ربنا على محمد الذى قصصت عليه مافيه العبرة لمن ادّكر ، وأوحيت إليه مافيه مزدجر ، لمن تدبر واعتبر ، إنك أنت العليم الحكيم .

سورة قريش

هى مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة التين .

ومناسبتها لما قبلها — أن كلا منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ؛ فالأولى تضمنت إهلاك عدوهم الذى جاء ليهدم بيتهم وهوأساس مجدهم وعزهم؛ والثانية ذكرت نعمة أخرى هى اجتماع أمرهم ، والتئام شملهم ، ليتمكنوا من الارتحال صيفاً وشتاء فى تجارتهم ، وجلب المِيرَة لهم .

ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبىّ بن كعب يعتبرهما سورة واحدة ، حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهما ببسملة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) .

شرح المفردات

تقول ألفت الشيء إلفاً وإلافا، وآلفته إيلافا : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به وعدم النفور منه، وقريش : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة ، والرحلة : ارتحال القوم أى شدهم الرحال للمسير ، أطعمهم : أى وسع لهم الرزق ، ومهّد لهم سبيله ، وآمنهم : أى جعلهم فى أمن من التعدى عليهم ، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم .

الإيضاح

(لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا ربّ هذا البيت) أى فلتعبد قريش ربها شكرا له على أن جعلهم قوما تَجْرًا ذوى أسفار فى بلاد غير ذات زرع ولا ضَرع ، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه التى تأتى من بلاد الهند والخليج الفارسى إلى تلك البلاد ؛ ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها .

وقد كان العرب يحترمونهم فى أسفارهم ، لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه ، وولاة الكعبة ، فيذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لايمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التى لاتنقطع .

فكان احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التى تحتمى بها قريش فى الأسفار ، ولهذا ألفتها نفوسهم ، وتعلقت بالرحيل ، استدراراً للرزق .

وهذا الإجلال الذى ملك نفوس العرب من البيت الحرام ، إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمته ، وزادها فى نفوس العرب رَدُّ الحبشة عنه حين أرادوا هدمه ، وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجرا ، بل قبل أن يدنوا منه .

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمته عندهم ، واستطالت الأيدى على سُفّارهم لنفروا من تلك الرحلات ، فقلّت وسائل الكسب بينهم ، لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضَرْع ، وماهم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم وهم فى عُقْر ديارهم ، ليأخذوا منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

(فليعبدوا رب هذا البيت) الذى حماه من الحبشة وغيرهم ، ومكّن منزلته فى النفوس ، وكان من الحق أن يفردوه بالتعظيم والإجلال .

ثم وصف رب هذا البيت بقوله :

(الذى أطعمهم من جوع) أى إنه هو الذى أوسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبله ، ولولاه لكانوا فى جوع وضنك عيش .

(وآمنهم من خوف) أى وآمن طريقهم ، وأورثهم القبول عند الناس ، ومنع عنهم التعدى والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان فعاشوا فى ضَنْك وَجَهْد شديد .

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بفضل رب هذا البيت ، فلِمَ يتوسلون إليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ؟ مع أنه لافضل لأحد ممن يوسطونه فى شىء من النعمة التى هم فيها ، نعمة الأمن ونعمة الرزق ، وكفاية الحاجة .

اللهم ألهم قلوبنا الشكر على نعمك التى تترى علينا ، وزدنا بسطة فى العلم والرزق .

سورة الماعون

هى مكية ، وآياتها سبع ، نزلت بعد سورة التكاثر .

ووجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أنه لما قال فى السورة السابقة : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ » ذم فى هذه من لم يحض على طعام المسكين .

(٢) أنه قال فى السورة السابقة : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » وهنا ذم من سها عن صلاته .

(٣) أنه هناك عدد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويجحدون الجزاء ، وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) .

شرح المفردات

أرأيت : أى هل عرفت وعلمت ؛ والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرّف ما يذكر بعده مع تضمنه التعجب منه ، كما تقول : أرأيت فلانا ماذا صنع ، وأرأيت فلانا كيف عرّض نفسه للمخاطر — أنت فى كل ذلك تريد بعث المخاطب على التعجب مما فعل ، والدين : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشؤون الإلهية التى لا يمكن الإنسان أن يعرف حقيقتها ، وإنما يجد آثارها فى السكون باعثة على الإذعان

والتصديق ، كوجود الله ووحدانيته ، و بعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء ، يدعّ اليتيم : أى يدفعه و يزجره زجرا عنيفا كما جاء فى قوله : « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » يحض : أى يحث و يدعو الناس إلى ذلك ، يراءون : أى يفعلون بقدر ما يرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها ؛ وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة ، وطلب المنزلة فى قلوب الناس ، و يكون فعل ذلك على ضروب :

(١) بتحسين السمت مع إرادة الجاه وثناء الناس .

(٢) بلبس الثياب القصار أو الخشنة ليأخذ بذلك هيبة الزهاد فى الدنيا .

(٣) بإظهار السخط على الدنيا ، و إظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير .

(٤) بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لرؤية الناس له .

والماعون : ماجرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى كالقدر والدلو والفأس .

وقال جار الله : ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله عليه الصلاة والسلام : « ولا غمة فى فرائض الله » لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، و إن كان تطوعا فحقه أن يخفى ، لأنه مما لايلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا الاقتداء به كان جميلا ، و إنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح ؛ وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك ؟ و إنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة .

على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على المسح الأسود » اهـ . المسح : كساء خشن من صوف يلبسه الزهاد .

الإيضاح

(أرأيت الذى يكذب بالدين) أى هل عرفت ذلك الذى يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلهية، والشئون الغيبية، بعد أن ظهر له بالدليل القاطع، والبرهان الساطع، فإن كنت لاتعرفه بذاته، فاعرفه بصفاته وهى:

(١) (فذلك الذى يدعّ اليتيم) أى فذلك المكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم ويزجره زجرا عنيفا إن جاء يطلب منه حاجة، احتقارا لشأنه وتكبرا عليه.

(٢) (ولا يحض على طعام المسكين) أى ولا يحث غيره على إطعامه، وإذا كان لايحث غيره على ذلك ولا يدعو إليه، فهو لايفعله بالأولى.

وفى هذا توجيه لأنظارنا إلى أنا إذا لم نستطع مساعدة المسكين كان علينا أن نطلب من غيرنا معونته ونحثه على ذلك كما تفعل جماعات الخير: «الجمعيات الخيرية».

وقصارى ماسلف — إن المكذب بالدين صفتين: أولاهما أن يحتقر الضعفاء ويتكبر عليهم. وثانيتهما أن يبخل بماله على الفقراء والمحاويج، أو يبخل بسعيه لدى الأغنياء، ليساعدوا أهل الحاجة ممن تحقق عجزهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة، ويقوم لهم بكفاف العيش.

وسواء أكان المحتقر للحقوق،البخيل بالمال والسعى لدى غيره مصليا أو غير مصلّ فهو فى صف المكذبين، ولا تخرجه صلاته منهم، لأن المصدق بشىء،لا تطاوعه نفسه على الخروج مما صدّق به، فلو صدّق بالدين حقا لصار منكسرا متواضعا لايتكبر على الفقراء ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم؛ فمن لم يفعل شيئا من ذلك فهو مراء فى عمله، كاذب فى دعواه، ومن ثم قال سبحانه:

(فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون) أى فعذاب لمن يؤدى الصلاة بجسمه ولسانه من غير أن يكون لها أثر فى نفسه، ومن غير أن تؤتى ثمرتها التى

شرعت لأجلها ، لأن قلبه غافل عما يقوله اللسان ، وتفعله الجوارح ، فيركع وهو لاهٍ عن ركوعه ، ويسجد وهو لاهٍ عن سجوده ، ويكبر وهو لايعى مايقول ؛ وإنما هى حركات اعتادها ، وكلمات حفظها ، لاتدرك نفسه معناها ، ولا تصل إلى معرفة ثمرتها .

(الذين هم يراءون) أى إنهم يفعلون أفعالا ظاهرة بقدر ما يرى الناس ، دون أن تستشعر قلوبهم بها ، أو تصل إلى معرفة حِكمها وأسرارها .

(ويمنعون الماعون) أى ويمنعون مالم تجر العادة بمنعه مما يسأله الفقير والغنى ، وينسب منعه إلى لؤم الطبع وسوء الخلق كالقدر والفأس ، والقدوم ونحو ذلك .

قال الأستاذ الإمام : فأولئك الذين يصلّون ، ولا يأتون من الأعمال إلا ما يرى للناس ، مما لايكلفهم بذل شىء من مالهم ، ولا يخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم ، أو نقصا يُلِمُّ بجاههم ، ثم يمنعون ماعونهم ، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سدّ حاجة المعوزين ، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم ـ لاتنفعهم صلاتهم ، ولا تخرجهم عن حد المكذبين بالدين ، لافرق بين من وسموا أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره ، فإن حكم الله واحد ، لامحاباة فيه للأسماء المنتحلة ، التى لاقيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع .

فخاصة المصدّق بالدين التى تميزه عن سواه من المكذبين هو العدل والرحمة وبذل المعروف للناس ، وخاصة المكذب التى يمتاز بها عن المصدقين هى احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة ، وحب الأثَرة بالمال ، والتعزز بالقوة ، ومنع المعروف عمن يستحقه من الناس .

فهل للمسلمين الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلون فى هذه السورة الشريفة ؟ ليعرفوا هل هم من قسم المصدقين أو المكذبين ؟ وليُقْلِعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة التى لا أثر لها إلا فى ظواهر أعضائهم ، وبهذا الجوع الذى يسمونه صياما

ولا أثر له إلا فى عبوس وجوههم ، وبذاذة ألسنتهم ، وضياع أوقاتهم فى اللهو والبطالة ، ويرجعوا إلى الحق من دينهم ، فيقيموا الصلاة ، ويحيوا صورتها بالخشوع للعلىّ الأعلى ، فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد لله يلتمسون رضاه فى رعاية حقوقه بما يراه ، ويجعلوا من الصوم مؤدبا للشهوة ، ومهذّبا للرغبة ، رادعا للنفس عن الأثَرة ، فلا يكون فى صومهم إلا الخير لأنفسهم ولقومهم ، ثم يؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ولا يبخلون بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة اه والله أعلم .

سورة الكوثر

هى مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة العاديات .

ومناسبتها لما قبلها ـ أنه وصف فى الأولى الذى يكذب بالدين بأمور أربع : البخل . الإعراض عن الصلاة . الرياء . منع المعونة ـ وهنا وصفُ ما مُنِحَه رسوله صلى الله عليه وسلم من الخير والبركة ، فذكر أنه أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ، والحرص على الصلاة ودوامها ، والإخلاص فيها والتصدّق على الفقراء .

أسباب نزول هذه السورة

كان المشركون من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبى صلى الله عليه وسلم ويلمزونه بأمور :

(١) أنه إنما اتبعه الضعفاء ولم يتبعه السادة الكبراء ، ولو كان ما جاء به الدين صحيحا لكان أنصاره من ذوى الرأى والمكانة بين عشائرهم ، وهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة ، فقد قال قوم نوح له فيما قصه الله علينا : «وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ ، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» .

وقد جرت سنة الله فى خلقه أن يسرع فى إجابة دعوة الرسل الضعفاء ، من قِبَل أنهم لا يملكون مالا فيخافوا أن يضيع فى سبيل الدعوة الجديدة ، ولا جاها ونفوذا فيخافوا أن يضيعا أمام الجاه الذى مُنِحَه صاحب الدعوة ـ وأن يتخلف عنها السادة الكبراء حتى يدخلوا فى دين الله وهم له كارهون ، ومن ثم يظل الجدل بين أولئك الصناديد ورسل الله ، ويأخذون فى انتقاصهم ، وكيل التهم لهم تهمة بعد تهمة ، والله ينصر رسله ويؤيدهم ويشدّ أزرهم .

وعلى هذا السَّنن سار أهل مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تخلف عنه سادتهم وكبراؤهم حسدا له ولقومه الأدْنَيْن .

(٢) إنهم كانوا إذا رأوا أبناءه يموتون ، يقولون : انقطع ذكر محمد وصار أبتر ، يحسبون ذلك عيبا فيلمزونه به ويحاولون تنفير الناس عن اتباعه .

(٣) إنهم كانوا إذا رأوا شدة نزلت بالمؤمنين طاروا بها فرحا وانتظروا أن تدول الدَّولة عليهم وتذهب ريحهم ، فتعود إليهم مكانتهم التى زعزعها الدين الجديد .

فجاءت هذه السورة لتؤكد لرسوله أن مايرجف به المشركون وهَم لاحقيقة له ، ولتمحص نفوس الذين لم تصلُب قناتهم ، ولتردّ كيد المشركين فى نحورهم ، ولتعلمهم أن الرسول منتصر لامحالة ، وأن أتباعه هم المفلحون .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) .

شرح المفردات

الكوثر : المفرط فى الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، ويقال للرجل الكثير العطاء هو كوثر ، قال الكميت الأسدى :

وأنت كثير يابن مَرْوان طيّبٌ وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

والمراد به هنا النبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، والشانىء : المبغض ، وأصل الأبتر : الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هنا ما لا يبقى له ذكر ولا يدوم له أثر ـ شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذنب الحيوان من حيث إنه يتبعه وهو زينة له ، وشبه الحرمان منه ببتر الذنب وقطعه .

الإيضاح

(إنا أعطيناك الكوثر) أى إنا أعطيناك من المواهب الشىء الكثير الذى يعجز عن بلوغه العدّ ، ومنحناك من الفضائل ما لا سبيل للوصول إلى حقيقته ، وإن استخف به أعداؤك واستقلوه ، فإنما ذلك من فساد عقولهم ، وضعف إدراكهم .

(فصلّ لربك وانحر) أى اجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك وما هو نسك لك لله أيضا ، فإنه هو الذى رباك وأسبغ عليك نعمه دون سواه كما قال تعالى آمرا له : « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

وبعد أن بشر رسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم البشارة ، وطالبه بشكره على ذلك ، وكان من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهورا ذليلا ، أعقبه بقوله :

(إن شانئك هو الأبتر) أى إن مبغضك كائنا من كان هو المقطوع ذكره من

خيرى الدنيا والآخرة، وأما أنت فستبقى ذريتك ، ويبقى حسن صيتك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة .

وشانئوه ما كانوا يبغضونه لشخصه ، لأنه كان محببا إلى نفوسهم ، بل كانوا يمقتون ماجاء به من الهدى والحكمة ، لأنه سفّه أحلامهم ، وعاب معبوداتهم ، ونادى بفراق ما ألفوه ونشئوا عليه .

وقد حقق الله فى شانئيه من العرب وغيرهم فى زمنه صلى الله عليه وسلم مايستحقونه من الخذلان والخسران ، ولم يبق لهم إلا سوء الذكر ؛ أما النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن اهتدى بهديه فان الله رفع منزلتهم فوق كل منزلة ، وجعل كلمتهم هى العليا .

قال الحسن رحمه الله : عنى المشركون بكونه أبتر : أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله بيّن أن خصمه هو الذى يكون كذلك اه .

وصل ربنا على نبيك محمد الذى أعليت ذكره ، وأذللت شانئه ، صلاة تبقى مابقى الدهر .

سورة الكافرون

هى مكية ، وآياتها ستّ ، نزلت بعد سورة الماعون .

ومناسبتها لما قبلها — أنه فى السورة السابقة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة ، باخلاص العبادة له ، وفى هذه السورة التصريح بما أشير إليه فيما سلف .

أسباب نزول السورة

روى أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمى والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف فى جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا له : هلمّ يامحمد فاتبع ديننا ونتبع دينك ، ونشركَكَ فى أمرنا كله ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فان كان الذى جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا حظا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيرا كنت قد شركتنا فى أمرنا ، وأخذت حظك منه ، فقال : معاذ الله أن نشرك به غيره ، وأنزل الله ردا على هؤلاء هذه السورة ، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقام على رءوسهم ، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك ، وطفقوا يؤذونه ويؤذون أصحابه حتى كانت الهجرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) .

الإيضاح

(قل يأيها الكافرون . لاأعبد ماتعبدون) أى قل لهم : إن الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده ، لأنكم تعبدون من يتخذ الشفعاء أو الولد ، أو يتجلى فى شخص أو يتجلى فى صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون ، وأنا أعبد إلهاً لامثيل له ولا ندّ ، وليس له ولد ولا صاحبة ، ولا يحل فى جسم ، ولا تدرك

كنهه العقول ، ولا تحويه الأمكنة ، ولا تمر به الأزمنة ، ولا يتقرّب إليه بالشفعاء ، ولا تقدم إليه الوسائل .

وعلى الجملة فبين ماتعبدون وما أعبد ، فارق عظيم ، وبون شاسع ، فأنتم تصفون معبودكم بصفات لا يجمل بمعبودى أن يتصف بها .

(ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى إنكم لستم بعابدين إلهى الذى أدعو إليه لمخالفة صفاته لإلهكم ، فلا يمكن التوفيق بينهما بحال .

وبعد أن نفى الاختلاف فى المعبود نفى الاختلاف فى العبادة ، من قِبَل أنهم كانوا يظنون أن عباداتهم التى يؤدّونها أمام شفعائهم ، أو فى المعابد التى أقاموها لها أو فى خلواتهم وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة خالصة لله ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لايفضلهم فى شىء فقال :

(ولا أنا عابد ماعبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد) أى ولا أنا بعابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى قاله أبو مسلم الأصفهانى .

وخلاصة ماسلف — الاختلاف التامّ فى المعبود ، والاختلاف البيّن فى العبادة فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى منزه عن الندّ والنظير ، متعال عن الظهور فى شخص معين ، وعن المحاباة لشعب أو واحد بعينه ، والذى تعبدونه أنتم على خلاف ذلك .

كما أن عبادتى خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك ، مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(لكم دينكم ولى دين) أى لكم جزاؤكم على أعمالكم ولى جزائى على عملى كما جاء فى قوله تعالى : « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » .

وصل ربنا على محمد الذى جعل الدين لك خالصا ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

سورة النصر

هى مدنية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة التوبة .

ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر فى السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذى يدعو إليه ، ودين الكفار الذى يعكفون عليه — أشار فى هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذى يدعو إليه سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان المعمورة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) .

شرح المفردات

النصر : العون؛ يقال نصره على عدوه ينصره نصرا : أى أعانه ، ونصر الغيث الأرض : إذا أعان على إظهار نباتها ومنع من قحطها ، قال شاعرهم :

إذا دخل الشهر الحرام فجاوزى　　بلاد تميم وانصرى أرض عامر

والفتح : الفصل بينه وبين أعدائه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ، والأفواج : واحدهم فوج ؛ وهو الجماعة والطائفة ، واستغفره : أى اسأله أن يغفر لك ذنوبك ولقومك الذين اتبعوك ، توّابا : أى كثير القبول لتوبة عباده .

المعنى الجملى

كان المؤمنون أيام قلّتهم وفقرهم وكثرة عَدد عدوهم وقوته ، يمر الضجر بنفوسهم ويُقِضّ مضاجعهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن ويضيق صدره ،

لتكذيب قومه له على وضوح الحق وسطوع البرهان . كما قال تعالى مخاطبا رسوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » وقال : « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » وقال: « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ . فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » .

وفى هذا القلق والضجر استبطاء لنصر الله للحق الذى بعث به نبيّه ، بل فيه سهو عن وعد الله بتأييد دينه ، كما جاء فى قوله : « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ » .

هذا الضجر ليس بنقص يعاب به النبى صلى الله عليه وسلم ، لكن الله يعدّه على أقرب عباده إليه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد يراه النبى صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى نفسه وخرج من غمرة شدته ذنبا يتوب إلى الله منه ويستغفره ، ومن ثمّ ورد الأمر الإلهى بالاستغفار مما كان منه من حزن وضجر فى أوقات الشدة حين يجىء الفتح والنصر .

الإيضاح

(إذا جاء نصر الله والفتح) أى إذا رأيت نصر الله لدين الحق ، وانهزام أهل الشرك وخذلانهم ، وفتح الله بينك وبين قومك ، بجعل الغلبة لك عليهم ، وإعزاز أمرك ، وإعلاء كلمتك .

(ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) أى ورأيت الناس يدخلون فى دينك ، وينضوون تحت لوائك جماعات لا أفرادا كما كان فى بدء أمرك وقت الشدة .

(فسبح بحمد ربك) أي إذا تمّ لك كل ذلك فنزّه ربك وقدّسه عن أن يهمل الحق ، ويدعه للباطل يتغلب عليه ، وعن أن يخلف وعده الذي وعدك به ، بأن يجعل كلمتك العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ويتم نعمته عليك ولو كره الكافرون .

وليكن تنزيهه بحمده على ما أولاك من نعم ، وشكره على ما منحك من خير ، والثناء عليه بما هو له أهل ، فإنه هو القادر الذي لا يغلبه غالب ، والحكيم الذي إذا أمهل الكافرين ، فلن يضيع أجر العاملين .

(واستغفره) أي واسأله أن يغفر لك ولمن اتبعك من أصحابك ما كان منهم من القلق والضجر والحزن والأسى لتأخر النصر .

والتوبة من هذا القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله ، وتغليبها على خواطر النفس التي تحدثها الشدائد ، وإن كان ذلك مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله قد علم أن نفس رسوله قد تبلغ ذلك الكمال ، ومن ثم أمره به ، وهكذا يحدث في نفوس الكملة من أصحابه وأتباعه مايقارب ذلك ، والله يتقبله منهم .

ثم علل طلب الاستغفار بقوله :

(إنه كان توابا) أي إنه سبحانه كثير القبول لتوبة عباده ، لأنه يربي النفوس بالمحن ، فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشدّد عزيمتها بحسن الوعد ، ولا يزال بها حتى تبلغ مرتبة الكمال .

وخلاصة ماسلف — إذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق فقد زال الخوف ، فعليك أن تسبّح ربك وتشكره وتنزع عما كان من خواطر النفس وقت الشدة ، فلن تعود الشدائد تأخذ نفوس المخلصين من عباده ما داموا على تلك الكثرة ، ينزل بساحتهم الإخلاص وتجمعهم الألفة .

وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم من هذا أن الأمر قد تمّ ، ولم يبق إلا أن يلحق بالرفيق الأعلى ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نُعيتْ إليه نفسه .

قال ابن عمر : نزلت هـذه السورة بمنى فى حجة الوداع ، ثم نزلت « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » فعاش بعدها ثمانين يوما ، ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوما ، ثم نزلت : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما ، ثم نزلت : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فعاش بعدها واحدا وعشرين يوما .

وصلِّ وَسَلِّمْ ربنا على محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا ورابطوا فى سبيل الله.

سورة المسد

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفتح .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر فى السورة السابقة أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى العقبى . وهنا ذكر أن عاقبة العاصى الخسار فى الدنيا والعقاب فى الآخرة .

أسباب نزول هذه السورة

روى البخارى عن ابن عباس أنه قال : « خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى (ياصباحاه) فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبّحكم أوممسّيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبولهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبًّا لك !! وفى رواية : إنه قام ينفض يديه ويقول : تبًّا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥) .

شرح المفردات

التباب : الهلاك والخسران قال تعالى : « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ » وأبولهب: أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب ، وتبّ : أى قد تبّ وخسر، يصلى نارا : أى يجد حرها و يذوقه، ولهب النار: مايسطع منها عند اشتعالها وتوقدها ، والجيد : العنق ، والمسد : الليف .

الايضاح

(تبت يدا أبى لهب) هذا دعاء عليه بالخسران والهلاك ، ونسب الهلاك إلى اليدين ، لأنهما آلة العمل والبطش ، فإذا هلكتا وخسرتا كان الشخص كأنه معدوم هالك .

(وتبّ) أى وقد تب وهلك .

والجملة الأولى دعاء عليه بالخسران والهلاك ، والجملة الثانية إخبار من الله بأن هذا الدعاء قد حصل ، وقد خسر الدنيا والآخرة .

ثم ذكر أن ما كان يعتزّ به فى الدنيا من مال وجاهٍ لم يغن عنه من الله شيئا يوم القيامة فقال :

(ما أغنى عنه ماله وما كسب) أى لم يفده حينئذ ماله ولا عمله الذى كان يأتيه فى الدنيا من معاداته رسول الله طلبا للعلوّ والظهور ، فكما أن ذلك لم يُجدِه شيئا

فى الدنيا ، إذ لم يتغلب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقطع ما أراد الله أن يوصل - لم يفده فى الآخرة ، بل لحقه البوار والنكال وعذاب النار .

وقد كان أبولهب شديد العداوة للنبى صلى الله عليه وسلم ، شديد التحريض عليه ، شديد الصدّ عنه .

روى أحمد عن ربيعة بن عباد قال: «رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذوغديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبولهب» .

ومن ذلك تعلم أن أبا لهب كان يصدّ عن الحق ، وينفّر عن اتباعه ، وذاع عنه تكذيبه للرسول صلى الله عليه وسلم وتحدّيه واتباع خطواته لدحض دعوته ، والحط من شأن دينه وماجاء به .

(سيصلى نارا ذات لهب) أى سيذوق حر النار ويعذب بلظاها .

وخلاصة ماسلف — خسر أبولهب وضل عمله ، وبطل سعيه الذى كان يسماه للصد عن دين الله ، ولم يغن عنه ماله الذى كان يتباهى به ، ولا جدّه واجتهاده فى ذلك ، فان الله أعلى كلمة رسوله ، ونشر دعوته ، وأذاع ذكره ، وأنه سيعذب يوم القيامة بنار ذات شرر ولهيب ، وإحراق شديد ، أعدها الله لمثله من الكفار المعاندين ، فوق تعذيبه فى الدنيا بإبطال سعيه ، ودحض عمله ؛ وستعذب معه امرأته التى كانت تعاونه على كفره وجحده ، وكانت عضده فى مشاكسة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذائه ، وكانت تمشى بالنميمة للإفساد ، وإيقاد نار الفتنة والعداوة كما قال :

(وامرأته حمالة الحطب) أى وستعذب أيضا بهذه النار امرأته أروى بنت حرب أخت أبى سفيان بن حرب ، جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعى بالنميمة إطفاء لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ والعرب تقول لمن يسعى فى الفتنة ويفسد

بين الناس ، هو يحمل الحطب بينهم ، كأنه بعمله يحرق مابينهم من صلات .

وقيل إنها كانت تحمل حُزَم الشوك والحَسَك والسَّعْدان ، وتنثرها بالليل فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لإيذائه .

وقد زاد سبحانه فى تبشيع عملها وتقبيح صورته فقال :

(فى جيدها حبل من مسد) أى فى عنقها حبل مما مُسِد من الحبال أى أحكم فتله ، وقد صورها الله بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كبعض الحطّابات المتهنات احتقارا لهـا ، واحتقارا لبعلها ، حين اختارت ذلك لنفسها .

وقصارى أمرها — إنها فى تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس وإيقاد نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حاملة الحطب التى فى عنقها حبل خشن تشدّ به ماتحمله إلى عنقها حتى تستقلّ به ، وهذه أبشع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب وهى على تلك الحال .

ويرى بعض العلماء أن المراد بيان حالها وهى فى نار جهنم ، إذ تكون على الصورة التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهى لاتزال تحمل حُزمة من حطب النار ، ولايزال فى جيدها حبل من سلاسلها ، ليكون جزاؤها من جنس عملها ؛ فقد روى عن سعيد بن المسيّب أنه قال : كانت لأم جميل قلادة فاخرة فقالت : لأنفقنّها فى عداوة محمد ، فأعقبها الله حبلا فى جيدها من مسد النار .

نسأل الله الوقاية من النار ، والبعد من الصدّ عن دينه وكتابه ، إنه هو السميع العليم .

سورة الإخلاص

هى مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة الناس .

أسباب نزولها

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عامر ابن الطفيل فقال له عنهم : شققت عصانا (فرّقت كلمتنا) ، وسببت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فان كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنونا داويناك ، وإن كنت قد هويت امرأة زوجناكها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست بفقير، ولا مجنون ، ولاهويت امرأة ، أنا رسول الله ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له : بيّن لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أم من فضة ؟ فأنزل الله هذه السورة .

المعنى الجملى

هذه السورة تضمنت أهمّ الأركان التى قامت عليها رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى توحيد الله وتنزيهه ، وتقرير الحدود العامة للأعمال ، ببيان الصالحات وما يقابلها ، وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب ، وقد ورد فى الخبر : « إنها تعدل ثلث القرآن » لأن من عرف معناها ، وتدبر ماجاء فيها حق التدبر ، علم أن ماجاء فى الدين من التوحيد والتنزيه تفصيل لما أجمل فيها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) .

شرح المفردات

أحد : أى واحد لا كثرة فى ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادية ولا من أصول متعدّدة غير مادية ، والصمد : الذى يقصد فى الحاجات كما قال :

لقد بكّر الناعى بخير بنى أسدْ　　　بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمدْ

والكفء والمكافئ : النظير فى العمل والقدرة .

الإيضاح

(قل هو الله أحد) أى قل لمن سألك عن صفة ربك : الله هو الواحد المنزه عن التركيب والتعدّد ، لأن التعدد فى الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى تلك الأجزاء والله لا يفتقر إلى شىء .

(الله الصمد) أى هو الله الذى يقصده العباد ويتوجهون إليه ، لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى شفيع ، وبهذا أبطل عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغاهم ، فيلجئون إليهم أحياء وأمواتا ، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين ، كما يخشعون لله أو أشد خشية .

(لم يلد) أى تنزه ربنا عن أن يكون له ولد ، وفى هذا ردّ لمزاعم مشركى العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، ولمزاعم النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، اقرأ إن شئت قوله تعالى: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

(ولم يولد) لأن ذلك يقتضى مجانسته لسواه ، وسبق العدم قبل الوجود — تنزه ربنا عن ذلك .

وأثر عن ابن عباس أنه قال : لم يلد كما ولدت مريم ، ولم يولد كما وُلد عيسى وعُزَير ، وهو ردّ على النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، وعلى اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله .

(ولم يكن له كفوا أحد) أى ليس له نِدٌّ ولا مماثل ، وفى هذا نفى لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله ندا فى أفعاله كما ذهب إلى ذلك مشركو العرب حيث جعلوا الملائكة شركاء لله .

والخلاصة — إن السورة تضمنت نفى الشرك بجميع أنواعه ، فقد نفى الله عن نفسه أنواع الكثرة بقوله : « الله أحد » ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله : « الله الصمد » ونفى عن نفسه المجانسة والمشابهة لشىء بقوله : « لم يلد » ونفى عن نفسه الحدوث والأوّلية بقوله : « ولم يولد » ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

سورة الفلق

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

شرح المفردات

أعوذ : أى ألجأ ، والفلق : شق الشىء وفصل بعضه من بعض ، تقول فلقت الشىء فانفلق كما قال تعالى : « فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى » والشىء المفلوق يسمى فَلَقا ،

والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التى تنفلق عن النبات ، والجبال التى تنفلق عن عيون الماء ، والسحاب التى تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التى تنفلق عن الأولاد ، والغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه ، ووقب : دخل ظلامه فى كل شىء ، ويقال وقبت الشمس إذا غابت ، والنفاثات : واحدهم نفاثة كعلاّمة ، من النفث وهو النفخ من ريق يخرج من الفم ، والعقد : واحدها عقدة ، والحاسد : هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود .

الإيضاح

(قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق) أى قل : أستعيذ برب المخلوقات ، ومبدع الكائنات ، من كل أذًى وشر يصيبنى من مخلوق من مخلوقاته طرّا .

ثم خصص من بعض ما خلق أصنافا يكثر وقوع الأذى منهم فطلب إليه التعوذ من شرهم ودفع أذاهم ، وهم :

(١) (ومن شر غاسق إذا وقب) أى ومن شر الليل إذا دخل وغمر كل شىء بظلامه ، والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفا باعثا على الرهبة — إلى أنه ستار يختفى فى ظلامه ذوو الإجرام إذا قصدوك بالأذى — إلى أنه عون لأعدائك عليك .

(٢) (ومن شر النفاثات فى العقد) أى ومن شر النمامين الذين يقطعون روابط المحبة ، ويبددون شمل المودة ، وقد شبه عملهم بالنفث ، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة ، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة ، كما سمى الارتباط بين الزوجين : (عُقْدَةَ النِّكَاحِ) .

فالنميمة تحوّل ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التى تشبه أن تكون ضربا من السحر ، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها ، فالنمام يأتى لك بكلام يشبه الصدق ، فيصعب عليك تكذيبه ، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد

أن يحل عقدة المحبة بين المرء وزوجه ، إذ يقول كلاما ويعقد عقدة وينفث فيها ، ثم يحلها إيهاما للعامة أن هذا حل للعقدة التى بين الزوجين .

قال الأستاذ الإمام ما خلاصته : قد رووا هاهنا أحاديث فى أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره لَبِيدُ بن الأعصم ، وأثَّر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وهو لايفعله ، أو يأتى شيئا وهو لايأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت موادّ السحر من بئر ، وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام ــ ماس بالعقل آخذ بالروح ، فهو مما يصدق قول المشركين فيه : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً » .

والذى يجب علينا اعتقاده أن القرآن المتواتر جاء بنفى السحر عنه عليه الصلاة والسلام ، حيث نسب القول بإثبات حصوله له إلى المشركين ووبخهم على ذلك .

والحديث على فرض صحته من أحاديث الآحاد التى لايؤخذ بها فى العقائد ، وعصمة الأنبياء عقيدة لايؤخذ فيها إلا باليقين ، ونفى السحر عنه صلى الله عليه وسلم لايستلزم نفى السحر مطلقا ، فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون ، ولكن من المحال أن يصيبه صلى الله عليه وسلم ، لأن الله عصمه منه .

إلى أن هذه السورة مكية فى قول عطاء والحسن وجابر ، ومايزعمونه من السحر إنما وقع بالمدينة ، فهذا مما يضعف الاحتجاج بالحديث ، ويضعف التسليم بصحته .

وعلى الجملة فعلينا أن نأخذ بنص الكتاب ، ونفوض الأمر فى الحديث ، ولا نحكمه فى عقيدتنا اهـ .

(٣) (ومن شر حاسد إذا حسد) أى ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده ، بالسعى والجدّ فى إزالة نعمة من يحسده ، فهو يُعْمِل الحيلة ، وينصب

شباكه ، لإيقاع المحسود فى الضرر ، بأدق الوسائل ، ولا يمكن إرضاؤه ، ولا فى الاستطاعة الوقوف على ما يدبره ، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة ، وليس فى الطوق دفع كيده ، وردّ عواديه ، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخالق الأكرم ، فهو القادر على رد كيده ، ودفع أذاه ، وإحباط سعيه .

نسألك اللهم وأنت الوزر والنصير ، أن تقينا أذى الحاسدين ، وتدفع عنا كيد الكائدين ، إنك أنت الملجأ والمعين .

سورة الناس

هى مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الفلق .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

شرح المفردات

رب الناس : أى مربيهم ومنميهم ومراعى شؤونهم ، الوسواس : أى الموسوس الذى يلقى حديث السوء فى النفس ، والخناس : من الخنوس وهو الرجوع والاختفاء ، والجنة : واحدهم جنىّ ، كإنس وإنسى .

الإيضاح

(قل أعوذ برب الناس) أمر رسوله أن يستعين بمن يربى الناس بنعمه ، ويؤدبهم بنقمه .

(ملك الناس) أى مالكهم ومدبر أمورهم، وواضع الشرائع والأحكام التى فيها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم.

(إله الناس) أى المستولى على قلوبهم بعظمته، وهم لا يحيطون بكنه سلطانه بل يخضعون بما يحيط منها بنواحى قلوبهم، ولا يدرون من أىّ جانب يأتيهم، ولا كيف يسلط عليهم.

وإنما قدم الربوبية، لأنها من أوائل نعم الله على عباده، ثم ثنى بذكر المالكية لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلا مفكرا، ثم ثلث بذكر الألوهية، لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة، وإنما قال: رب الناس، ملك الناس، إله الناس، وهو رب كل شىء ومالك كل شىء وإله كل شىء من قِبَل أن الناس هم الذين أخطئوا فى صفاته وضلوا فيها عن الطريق السوىّ، فجعلوا لهم أربابا ينسبون إليهم بعض النعم، ويلجئون إليهم فى دفع النقم، ويلقبونهم بالشفعاء، ويظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم، ويرسمون لهم حدود أعمالهم.

وبحسبك أن تقرأ قوله تعالى: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» وقوله: «وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟»

والخلاصة — إنه سبحانه أراد أن ينبه الناس بأنه هو ربهم، وهم أناس مفكرون، وملكهم وهم كذلك، وإلههم وهم هكذا، فباطل ما اخترعوا لأنفسهم من حيث هم بشر.

(من شر الوسواس الخناس) أى ألجأ إليك ربّ الخلق وإلههم ومعبودهم أن تنجينا من شر الشيطان الموسوس الكثير الخنوس والاختفاء، لأنه يأتى من ناحية

الباطل ، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوإ مصير ، إذا انجرّت مع وسوسته ، وانساقت معه إلى تحقيق ماخطر بالبال .

وهذه الأحاديث النفسية إذا سلط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت وسكن الموسوس عند إلقائها .

وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس ، يذهب هباء إذا تنبهت النفس لأوامر الشرع ، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ و بعثك على فعل السوء ثم ذكّرته بأوامر الدين يخنس و يمسك عن القول ، إلى أن تسنح له فرصة أخرى .

وقد وصف الله هذا الوسواس الخناس بقوله :

(الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) أى إن هـذا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور البشر ، قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فشيطان الجن قد يوسوس تارة و يخنس أخرى ، وشيطان الإنس كذلك ، فكثيرا مايريك أنه ناصح شفيق ، فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة ، وإذا أصغيت إلى كلامه استرسل واستمر فى حديثه و بالغ فيه ، وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها مالم تعمل أوتتكلم به » رواه أبوهريرة وخرّجه مسلم .

و إنما جعل الوسوسة فى الصدور من قِبَل أنه عهد فى كلام العرب أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، ألا تراهم يقولون : إن الشك يحوك فى صدرك ، و يجيش فى صدرى كذا ، و يختلج ذلك بخاطرى ، وما الشك إلا فى نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل تكون فى المخ ، و يظهر لها أثر فى حركات الدم ، وضربات القلب ، وضيق الصدر وانبساطه .

قال الأستاذ الإمام الموسوسون قسمان :

(١) قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لانعرفهم ، و إنما نجد فى أنفسنا

أثرا ينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان ، وهى قوة نازعة إلى الشر ، ويحدث منها فى نفسه خواطر السوء .

(٢) قسم الناس ، ووسوستهم مانشاهده ونراه بأعيننا ، ونسمعه بآذاننا .

وما أوردوه فى خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أوعلى القلب ونحو ذلك ؛ فهو من قبيل التمثيل والتصوير اهـ ملخصا .

وقد بدئت السورة برب الناس ، ومن كان مربيهم فهو القادر على دفع إغواء الشيطان ووسوستهم .

وقد أرشد فى هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه ، كما أرشد إليها فى الفاتحة ، للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله هو التوجه إليه وحده ، والإخلاص له فى القول والعمل ، والالتجاء فيما لاقدرة لنا على دفعه .

* * *

اللهم اجعلنا من المخلصين فى أعمالنا ، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجن ، وأبعد عنا شر الموسوسين ، وقنا عذاب جهنم ، ولا تفضحنا يوم العرض .

وصل ربنا على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الذين ذادوا عن دينك ، بقدر ماغرست فى قلوبهم من برد اليقين ، وأثلجت صدورهم بمحبة هذا الدين .

خاتمة التفسير

حمدا لك اللهم على نعمائك ، وشكرا لك على جزيل آلائك ، سبحانك رب وفقتنى لتفسير كتابك الكريم ، و بيان أسراره ومغازيه لجمهرة المسلمين ، بعد أن كانت تقوم أمامهم عقبات تلو عقبات ؛ فمن مصطلحات للعلوم لا تستسيغها إلا طوائف ممن تخصصوا لدرسها ، ومن تفسير لنظريات طبية أوفلكية دلت أبحاث العلماء المحدَثين على أن تفسير العلماء القُدامى لها كان مجانفا للحقائق التى أثبتها العلم الحديث ، ومن قصص دوّن فى كتب التفسير يعوزه الدليل النقلى الصحيح ، ولا يوافق على صدقه العقل الرجيح ، ولا سيما قصص الأنبياء وأخبار الأمم البائدة ، و بدء التكوين ، وخلق السموات والأرض .

وكم سهرت الليالى الطوال فى أيام القُرّ ، و إبّان الحرّ ، لا تؤنسنى إلا معونة الله وجميل توفيقه ، وما أشعر به من لذة تخفف عنى ما أنقض ظهرى .

وحينما كنت أحس بسأم من العمل المضنى — آنس أن نفحة من روح الله يهب نسيمها على قلبى ، فأنشط للعمل ، وأدأب على المضى قُدُما ، لمواصلة الدرس والتأليف .

وهكذا كانت تمر الليالى والأيام ، فلا أجد مع ذلك الجهد إلا انشراحاً وسرورا بمواصلة العمل . وقد أعاننى الله على إتمامه بعد سبع سنين دائبا العمل ليل نهار ، صباح مساء .

وكان مسك الختام ، و إنجاز التفسير فى سَلخ ذى الحجة من سنة ١٣٦٥ خمس وستين بعد الثلثمائة والألف من هجرة سيد ولد عدنان بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية .

ولله الحمد فى الآخرة والأولى ، و إليه المرجع والمآب ؟ المؤلف

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن أنزل القرآن تبيانا للناس وهدى وموعظة للمتقين ، وأرسل سيدنا محمدا بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين ، صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه مصابيح الهدى وترجمان القرآن الذى هو حجة الله على الناس أجمعين .

أتى رب العالمين فيه بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة على انفراده سبحانه بالألوهية ، واختصاصه جل ذكره بالمعبودية . دمغ به الباطل وأزهقه ، وزيف به عقائد العرب وبين لهم النجدين، فمنهم من مال إلى الإسلام، ومنهم من خضع بالسيف والسنان.

ولقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده ، وبين مراميه وفسر بعض آياته ، واقتدى به الصحابة ومن بعدهم فى ذلك .

ولله در حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ «أحمد مصطفى المراغى بك» حيث خاض لجة بحر علم تفسير القرآن ، فشرح الألفاظ المفردة التى يصعب على القارئ فهمها لأول وهلة ، ثم تلاها بالمعنى المراد من الآيات فى عبارة مختصرة ، ثم تلاها بإيضاح المعانى إيضاحا شاملا شافيا ، مع تجنب القصص الإسرائيلية المدسوسة والخرافات الدخيلة على هذا العلم النفيس ، فذكر منها الصريح والنقل الصحيح . اهتدى إلى مالم يهتد إليه الفحول من متقدميه ، واستدل بأحاديث الرسول فى بعض المواضيع ، وبأشعار العرب ، وبأقوال أهل اللغة والعلماء الموثوق بعلمهم ونقلهم ، فهو كما قال القائل :

إنى وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

وقد قام بطبعه طبعا متقنا ونشره بين الأنام السادة النبلاء من نشروا كتب الجهابذة الأعلام فى أنحاء المعمورة ، أصحاب :

[شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر]

فلله درهم حيث قدموه لجمهور القراء بهذا الشكل البديع مع الاعتناء بتصحيحه بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف برياسة الأستاذ الشيخ « أحمد سعد على » وإشراف صاحب الفضيلة الشيخ «على محمد الضباع» شيخ القراء والمقارئ بالديار المصرية .

القاهرة فى يوم الخميس { ٢٩ من ربيع الثانى ١٣٦٩ هـ
١٦ من فبراير ١٩٥٠ م }

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء